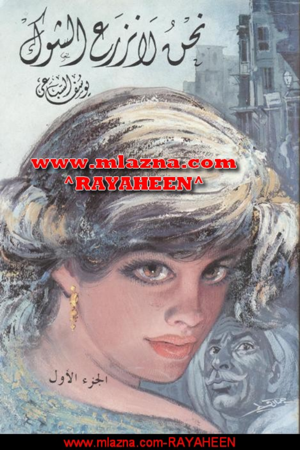

نحن لا نزرع الشوك
يوسف السباعي
الجزء الأول

البحث عن جسد	(رواية ..... ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية .... ١٩٥٣)
فديتك بالليل	(رواية ..... ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبى	(رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(رواية ..... ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات .... ١٩٥٧)
من حياتى	(» ...... ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» ...... ١٩٥٩)
نادية	(رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات .... ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» ...... ١٩٦١)
أيام من عمرى	(» ...... ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية .... ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين ١٩٦٨)
لست وحدك	(رواية ..... ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات .... ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» ...... ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(رواية ..... ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات .... ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة ...... ١٩٧٣)

الإهــداء

إلى فاطمة شيخــون
التى سألتنــى قبــل
موتها أن أدفنها
فى مقابــــر الأسرة
فأوحت إلـــىّ بهذه
القصة ؟

« يوسف السباعى »



هذه الـــــــــــــــقصة ...
شريحة من حياتنـــــــــــــــا ...
حياة الذين لا يزرعون الشوك ...
ولكنهم يحصدونه ؟

« **يوسف السباعى** »

(١)

من بعيد

من بعيد .. يبدو النيل شريطا يلمع فى أشعة الشمس المنحدرة فى الأفق ..
من بعيد .. تبدو البيوت والأشجار كالدمى ..
كل شىء يبدو ها من بعيد .. وكأنه صورة أحداث أيامها الغابرة ..
لا شىء يبدو قريبا .. سوى جدران المقابر المرصوصة فى سفح الجبل ..
إنها تبدو فى وضوح الحقيقة ..
وهى لا تشعر منها بخوف ولا جزع ...
على النقيض .. إنها تحس لها .. سكينة المستقر .. وراحة المضجع .. بعد كل هذا العدو فى طريق .. أدمى شوكه قدميها .. شوك لم يكن لها يد فى زرعه .. فنحن لا نزرع الشوك فى طريقنا .. ولكن ينبته القدر كما ينبت الزهر .
ولا نملك كأحياء .. إلا أن نخوض الطريق .. بأشواكه وأزهاره .. ويدمى الشوك أقدامنا .. وتنأى الزهور عن أيدينا .. وتظل لسعة الشوك حقيقة .. ونفحة الزهر وهما كالسراب .
أترى أحلامنا أكبر .. من قدرة الحياة ؟..
ولكن هل نملك التنازل عن أحلامنا .. وهى أجمل ما فى الحياة .. لنرضخ لواقع القدر .
إما أن نحلم .. أو نستسلم .. والأمانى حياة .. والاستسلام عدم .
ولقد كانت لها أمانٍ .. ظلت كالسراب .. لم تطبق يدها من الأمنية إلا على الشوك .. وتبددت الأمنية .. ولم تبق إلا لسعة الشوك .. حتى استقرت أخيرا بجوار الأمنية .. لم تطبق عليها يدها .. حتى لا تتبدد ..

لقد أقبلت على السراب .. ولم تمسك به .. بل جلست على حافته .. حتى يظل دائما حقيقة .. لا يذروها الخوض فيه والإمساك به ..

تلك هى قصة حياتها .. وهى تجلس فى انتظار الخاتمة .. تسمع دقات أجراس الرحيل .. وهى سعيدة .. فهى ترحل بغير لسعة شوك .. أو خيبة أمل .. فهى لم تطبق على الأمنية حتى يلسعها الشوك ولم تخض فى السراب حتى ينقشع بريقه وتخبو لمعته ..

وأمنيتها الأخيرة .. لم تعد مستحيلة المنال .. ورقدتها فى مقابر الأسرة بسفح الجبل .. لم تعد حلما من أحلام الحياة .. سرابى التحقيق .. بل باتت مقرها المريح بعد رحلة طويلة شاقة ..

لقد وعدها بذلك .. وهو لم يخلف وعده قط ..

لقد منحها كل ما جسرت على أن تطلبه ..

أما ما لم تجسر على طلبه .. فقد بقى فى نفسها مجرد أمنية .. من سرابى الأمانى .. تطويها الأيام فى صدرها .. حتى تذوى .. دون أن يدرى بها .. ودون أن يكرمها القدر بمنحها إياها .. كما منحها كل ما منح من أسباب الشقاء والأسى ..

وهى ترقد رقدتها الأخيرة .. فى سكينة وارتياح .. يمنحها الأمل فى مثوى .. قد يضمه وإياها .. بعد سنين طويلة .. شعور يؤنس وحشة طريقها ويضيء ظلمة آخرتها .

كانت سنواتها الأخيرة .. أجمل أيام عمرها .. كفتها الحياة فيها مشقة التمنى ومنحتها نعمة الاستقرار .. بلا إحساس بالحرمان أو شعور بالوحدة والضياع ..

لقد أحست أخيرا .. بأنس الأهل يحيطون بها .. ودفء المستقر بضمها .

أضحى لها ابن حبيب .. لم تنجبه .. يحنو عليها .. يتألم لألمها ويحزن لحزنها.. يمنحها كل ما يسعدها .. ويجنبها كل ما يشقيها ..

وأبوه .. أمنية العمر .. لقد بات ملء حياتها .. سيدها .. وعائلها ، ورب أسرة أضحت هى أحد أفرادها .. لها عليه حق الرعاية .. ككل من يحيطون به .. لم يرد لها طلبا .. من هذه الأشياء الصغيرة التى كانت لا تفتأ تطلبها منه .. مناديل الرأس .. وصديريات صوفية .. وطعام للعصافير .. وبن وحلوى وفاكهة .. إلى آخر هذه الأشياء التى تحتاجها لنفسها أو توزعها على بقية الخدم .. وبين آونة وأخرى يشترى لها قطعة حلى ذهبية كلما تجمع عندها قدر من المال .. لتضيفها إلى مجموعة الحلى الذهبية التى ما زالت تحتفظ بها .. لوقت الحاجة .. أو لليوم الأسود ..

وزوجته .. لم تكن قط سيدة .. بل كانت أقرب إلى أن تكون ابنة رقيقة .. تمنحها من العطف والمودة ما يجعلها تتلهف على خدمتها .. ومعاونتها .. وتجنب كل ما يضايقها .

لقد منحها الله موضعا بينهم ما كانت ترجو خيرا منه .. موضعا كريما .. آمنا .. يعطيها كل ما تمنته .. أو معظمه .. وكان يمكن أن يدوم حتى آخر العمر .. أو على الأصح .. دام حتى آخر العمر ..

ولكن آخر العمر .. هو الذى .. قرب ..

قرب بطريقة .. مفاجئة لم تتوقعها .. بحيث جعل آخر العمر .. ليس آخره .. بل يكاد يكون أوله .. إذا احتسبت عمرها .. باستقرارها بينهم .

ومع ذلك .. لم تضق باقترابه .. ما دام الطريق إليه غير محفوف بالآلام والأوجاع .

وهى تحس حتى هذه اللحظات .. أن القدر قد نوى أن يجنبها الآلام .. وأنه قد اكتفى بما منحه إياها خلال عمرها .. وأنه سيمنحها آخره بلا مواجع .

وحتى الآن لم تشعر إلا بأنها قد أخذت تعاف الطعام .. وأن قواها تخور يوما بعد يوم .. وجسدها يرق ويضمر كأنه ورق جف أو عود يبس .. وأنها ترقد على الفراش بلا قدرة على الحراك .. وكأن شيئا خفيا يستنفد قواها .. ويتركها

عاجزة .. خائرة ..

ولقد استمعت إلى الطبيب يهمس إليهم وهو يغادر غرفتها التى ترقد فيها « لا فائدة » وسمعت ابنها الحبيب يسأله فى صوت خافت حزين « هل ستتألم » وأجابه الرجل « أرجو الله أن يريحها قبل أن تتألم » وسمع الابن يدعو من قلبه بعد أن انصرف الطبيب « يا رب لا تجعلها تتألم » .

ولا جدال فى أن الله قد استجاب لدعاء الصغير .. الطيب .. فحتى الآن لم تشعر بألم ما .. لا شىء أكثر من الضمور والهزال .. والعزوف عن الطعام .. والاقتراب من حافة الفناء ..

وهى تحس أن حياتها تتسرب كالماء فى إناء مثقوب .. وعندما أقبل عليها السيد سألته فى استعطاف :

— لى رجاء عندك .

وأجابها هاشا فى ابتسامته الرقيقة :

— خير ...

— أن أدفن فى مدافنكم .. عندما أموت .

وبدا الطلب مفاجئا له .. وغامت على وجهه سحابة حزن .. وساد الصمت برهة وقد بدا عليه الشرود .

وأحست بلسعة الندم وهى تتوهم أنها قد طلبت ما لا حق لها فيه .. وعادت تتمتم بصوت خافت :

— أحسست أنى قد أكون فى ونس بجوار الأسرة كلها .. مع المرحومة الغالية .. وسيدى الكبير .

وأجاب السيد وهو يربت ذراعها فى رفق :

— أنت واحدة منا .. ولكن لا داعى لهذا الكلام الآن .. ربنا كريم .. يشفيك ويمنحك طول العمر .

وبدت لها الأمنية مستحيلة وعادت تستوثق من أمنيتها القريبة .. المعقولة .

وهتفت من قلبها :

— كل ما أتمناه ألا أدفن بعيدا .. عنكم .

وضغط على يدها مؤكدا فى ثقة :

— ستبقين معنا دائما .. أنت واحدة منا .

وملأت السكينة قلبها .. وشردت ببصرها من النافذة .. إلى الأفق البعيد .. إلى شريط النيل الذى يبرق فى أشعة الشمس .. والبيوت والأشجار مرصوصة كالدمى .. وجدران المقابر القائمة واضحة فى أسفل الجبل ..

ومن النافذة الأخرى هبت نسمة رطبة من الحديقة .. تحمل شذى الياسمين .. وبدت الكرمة بعناقيدها المدلاة .. والأوراق الخضر تتكاثف وراء النافذة . والنسيم يصفر فى غصون الجازورينا المحيطة بالحديقة .

وأطلقت تنهيدة ارتياح .. وتركت جسدها الذاوى يسترخى على الفراش .

جميل .. أن تكون نهاية المرء .. فى مثل هذا المكان .

وجميل أن تذكر كيف استقرت فيه .. عندما انتقلت الأسرة من بيتها فى شبرا إلى المقطم .. وأقبل عليها الصبى الصغير .. ابنها الحبيب .. يضمها إليه .. ويسألها أن تنهض معه لأنه أحضر العربة لنقلها .. وسارت تستند إلى ذراعه .. وهو يكاد يحملها ..

جميل .. جميل .. أن تشعر أن هناك من يحبك .. ويخشى عليك .. حتى ولو كنت فى طريقك إلى النهاية .

وجلست فى العربة متهالكة بجوار الصبى الحنون .. وهى تستند إلى كتفه .. وقد أحاطها بذراعيه .. والمرئيات تتوالى أمام ناظريها متلاحقة .. وهو يسألها بين آونة وأخرى :

— هل تشعرين بألم ؟

وتهز رأسها هامسة :

— أبدا .

كيف تشعر بألم .. وصدره الحنون يسندها .. وذراعاه تضمانها .. لقد اشتدت ذراعاه الصغيرتان .. اللتان ضمتاها وهو رضيع .. منذ أن تولت رعايته فى مرضه .. وأضحى منذ ذلك الحين ابنها الحبيب .. وأخذت العربة تصعد الجبل وتدور فى منحنياته .. حتى توقفت أمام البيت .

ووجدت السيد والسيدة ينتظران وصولها .وقال الأب باسما وهو يرى الصبى يسندها فى رفق وهى تسير فى الممر إلى حجرتها .

— هل تدرين أن محمد هو الذى أعد الحجرة ورتبها ؟

وأردفت السيدة تقول :

— أول مرة يفعلها حمادة .. لم أره يفعل شيئا مفيدا فى البيت .

وأحست بالفرحة تفعم قلبها وهى تستمع إلى الأبوين وتسير مستندة إلى ذراع الصبى حتى وصلت إلى حجرتها واستقرت على الفراش .

وتعودت فى رقدتها أن تقلب البصر بين الحديقة .. والأفق البعيد الممتد وراء سفح الجبل ..

النيل يمتد كشريط يبرق .. والبيوت والأشجار كالدمى .. وكل شىء يبدو من بعيد .. وكأنه أيامها الغابرة ..

كله يبدو .. كالوهم ..

الحقيقة الوحيدة .. هى هذه المقابر الملاصقة لسفح الجبل .. والتى ستثوى بباطنها ذات يوم ..

الموت .. قد بات وحده .. هو الحق .. وما خلاه .. زيف وباطل ..

وهى لا تخشاه .. ولا تجزع منه .. ما دامت ستلقاه بغير أوجاع .. ولا آلام ..

ولقد دعا ابنها الحبيب الله .. أن يجنبها الألم .. وهو لا شك مستجيب لدعائه .. ولم يعد عليها .. إلا أن تنتظر فى سكينة .. وتدفأ بكل ما يحيط بها من حنان .. حتى تحل النهاية .

ليس عليها إلا أن تقلب البصر .. فى هذه المرئيات البعيدة فى الأفق .. التى تتضاءل كأنها أحداث حياتها ..

حياتها .. بكل ما فيها .. من أمان .. سرابية براقة .. وواقع مكفهر مرير .

حياة .. كل إنسان .. فرضت عليه تجربة الحياة .. ولم يملك إلا أن يخوضها ..

ولكن هل حياتها حقيقة .. حياة كل إنسان .. بهذا الواقع الشقى يلاحقها كلسع السياط .. والأمل السرابى يفلت منها كقبضة وهم أو حفنة هواء .

خمسون عاما .. حملتها على كتفيها .. حتى ناءت بها .. عدا بضع سنوات فى الأوائل .. لم تستطع الذاكرة أن تعى منها حتى مجرد طيف .. وبضع سنوات فى النهاية .. منحتها نعمة الاستقرار .. وراحة اليأس .

منذ الخامسة أو السادسة .. تذكر بيت أبيها .. عم جابر .. وزوجته دلال .. فى عشش الماوردى تذكر أباها بلحيته التى وخطها الشيب .. وزوجة أبيها بدلالها وتبهرجها .. وأمها التى لا وجود لها إلا فى كلمات خاطفة وأحاديث عابرة تنم عن أنها كانت ولا شك موجودة .. فى أوائل سنوات عمرها المطموسة من ذهنها ..

كانت موجودة فى يوم ما .. وإلا لما وجدت هى نفسها .. وكان ذكرها يثار خلال المناقشات الحادة التى تدور بين أبيها وزوجته . أو فى تمتمات أبيها عندما كان يخلو إلى نفسه ويترحم عليها وعلى أيامها .

لم تكن أكثر من موضوع نقاش يثار بالصدفة .. ولم تكن هى نفسها تأبه كثيرا .. لما يقال .. فما دامت لم يعد لها أثر عليها بالضرر أو بالنفع .. وما دامت لا تستطيع أن تقيها قرصات زوجة أبيها أو صفعاتها .. وما دامت لا تملك أن تمنحها مليما أو مليمين تشترى بهما دومة أو جزرا أو براغيت الست أو مصاصة .. أو .. و .. إلى آخر كل هذه الرغبات التى تلح فى إغرائها بجوار الكوبرى أو حول الجامع .. أو فى الطريق إلى ورشة أبيها .

ما دامت أمها كشىء غير موجود .. لا تملك لها ضرا ولا نفعا .. بل لا تملك حتى أن تقيها الضر أو تمنع النفع .. فهى لا تعبأ كثيرا بما إذا كانت تذكر أو لا تذكر ولا تعبأ كذلك بأى شىء تذكر ..

ثم .. هبها عبأت أو لم تعبأ .. فماذا تملك من قدرة التغيير وهى لم تكن قط طرفا فى النقاش .. أو تصور أحد أن لها حق التعليق عليه ..

كانت المسألة تبدأ كذلك .

يرفع أبوها جلباب الشغل بين ذراعيه ليدخل رأسه فى فتحته .. ويغطى به الفانلة ذات الثقوب والسروال الطويل الفضفاض ذا التكة المدلاة ذات الشراريب . فيجد فيه مزقا فينادى فى ضيق :

— يا دلال .

وتسمع طقطقة الفراش .. وزوجة أبيها تتقلب عليه دون أن تجيب . وتترك الصيحة الثانية تمر بانقلابة أخرى تعطى مزيدا من الطقطقة .. وفى الثالثة تزوم فى تبرم وفى صوتها حشرجة النوم :

— ها .

— الجلباب كما هو .

وترد فى اقتضاب :

— طيب .

ويقول الأب فى غيظ مكتوم :

— ألم أقل لك خيطيه ؟

وتجيب الزوجة وهى تحاول أن تعاود النوم وتنهى الموضوع :

— طيب .

— طيب يعنى إيه .. لماذا لم تخيطيه ؟

— اللى حصل .

— وكيف أذهب للشغل ؟

— كما تذهب دائما .

— بالجلباب ممزق .

— أجل .

— أمام الناس ؟

— ولم لا ..

— كنت دائما مستورا .

— منذ متى .

— زمان .. عندما كان هناك من يرعى أمرى .

ويرتفع صوت دلال .. ويزول استرخاء النعاس من صوتها .. وينطلق ردها .. فى حدة .. كأنه الطلقة المفاجئة :

— جاتك نيلة عليها .. القرشانة .. المقيحة .

ويكون الجلباب قد استوى على جسد الأب والنعل قد دس فى قدميه ويجيء رده مستسلما كأنه يضع خاتمة للنقاش قائلا فى صوت مسترحم مغلوب :

— الله يرحمها .

وتأبى دلال إلا أن تكون صاحبة القول الأخير فتجيب فى إصرار :

— الله يجحمها مطرح ما راحت ..

هذا هو نموذج الحوار الذى كان يدور حول أمها .. لا تعرف هى أين كلمتها فيه .. ولا هل مطلوب منها التعليق عليه أم تكتفى بالمشاهدة والإنصات .

ولا يطول بها التفكير حتى تسمع صرخة باسمها منبعثة من مرقد دلال :

— سيدة .. بت ياللى تنقرصى ..

وتثب من فراشها الأرضى الذى استقرت عليه فى الصالة الصغيرة التى وضعت بها الطبلية والبوفيه الأحمر (آخر لون دهنه به أبوها منذ أسبوع فى يوم عطّلته) .

تقفز الصغيرة من الشلتة بمجرد وصول النداء إلى مرحلة (ياللى تنقرصى)

فقد كانت المرحلة التالية هى أن تنقرص فعلا .. وزوجة أبيها أخصائية فى القرص فيما تسميه بالبباليب وهى باطن الفخذ .. تمد أصابعها إليها بسرعة البرق .. فلا تتركها .. حتى تترك على الفخذين بصماتها الزرقاء .. كأختام الخراف المعلقة فى خطاف الجزار .

وتنهض سيدة فى جزع وخوف .. من المرحلة التالية .. لتواجه زوجة أبيها .. وقد جلست على الفراش . بجسد ممتلئ .. وقد تدلت ساقاها البيضاوان الممتلئتان . وبدت وسائل الفتنة فى جسدها . مبعزقة .. كل ثدى فى ناحية .. ومنديل الرأس قد انزلق على مؤخرة رأسها .. وانتفخت جفونها واختلطت خطوط الكحل فى عينيها .

وكان هذا الجسد .. المكوم فوق الفراش .. مشعثا مهملا .. مبعث فتنة أهل الحى .. عندما يوضع كل شىء فيه فى موضعه وتلمه الملاءة اللف السوداء .. بشدة على الردفين .. تبرزان رجرجتهما فى كل خطوة .. وفتحة بين النهدين تكشف عنهما .. عن عمد وسبق إصرار انزلاق الملاءة من فوق الكتف إلى الذراع . وطرقعة اللبانة بين الشدقين . وضحكة راضية .. أو زجرة ناهرة .. تجاه .. كل تعليق .. يطلق من جانبى الطريق .

وكان أول تعليق يصادف الجسد الملفوف المهتز من بائع البطاطا المستقر بعربته على ناصية الحارة .. بتصفيقة منتظمة من كفيه .. وصيحة يملؤها الحماس فى نداء منغم :

— معسلة قوى .. يا بطاطا ..

ثم يميل تجاهلها قائلا بصوت أقل ضجة :

— بنصبح .

وترد دلال فى غبطة :

— صباح الخير .. يا عزوز .

وتبدو النشوة على عزوز وكأنه نال أمنية عزيزة ويردد فى حماس مصحوب

بالتصفيق :

— يا صباح الفل .. يا صباح القشطة .

ويواصل الجسد المهتز سيره فى الحارة .. بين التصفيق والتحيات وتلعيب الحواجب ..

وتسمع الصغيرة .. تعليقات مختلفة .. عن زوجة أبيها لم تكن تعرف وقتذاك معناها بالضبط ..

كان البعض يقال أمامها علنا .

كالحوار الذى دار ذات مرة بين بهنسى بائع الكازوزة والثلج على باب الحارة . وبين أم عطوة بائعة الفجل والجرجير والكرات . عندما وقفت سيدة تشترى بنكلة كرات من أم عطوة . وصاحت بها تستحثها :

— ياللا يا أم عطوة .

ونهرتها المرأة قائلة :

— مسروعة على إيه ؟

— مرات أبويا .. تضربنى .

— تضربك ليه .. جاها خابط فى نفوخها .. لو عاشت أمك .. ما استطاعت أن تدخل الحارة ..

وتدخل بهنسى قائلا :

— الحق على المعلم جابر . الذى آواها .

ومصمصت أم عطوة شفتيها :

— كان الرجل فى حاجة إلى من يرعاه ويرعى الصغيرة التى معه .

— ألم يجد غير هذه الملعب ترعى ابنته .. كان يجب أن يبحث عن شىء من « توبه » .

. ولم تكن تعرف يوم ذاك .. ما هى الملعب .. ولا تعرف ماذا يقصد أن زوجة أبيها ليست من ثوب أبيها .. ولكن الشىء الذى كانت تعرفه هو أنها لم تكن قط

مصدر راحة فى البيت .. بل كانت مصدر قلق لأبيها .. وعذاب لها .

كانوا يقولون عنها فى الحارة إنها ملعب .. بجسدها الراقص المتأرجح . واختفائها من البيت خارج الحارة الساعات الطويلة . وعودتها أحيانا فى ساعات الليل المتأخرة فى إحدى عربات الأجرة .

وكانت تعلم أن لها أعذارها الواضحة التى تسوقها لأبيها عن غيابها . مرة عمتها غضبت مع زوجها وكانت توشك أن تتطلق . وقد اضطرت أن تمكث معها . ومرة اضطرت أن تبيت لكى تطلع القرافة مع خالتها .. ومرة كانت تعد فطير الرحمة .. وأخرى كتب كتاب نوسة بنت الشيخ زكى.وفى كل مرة لها حجة . ولكن أهل الحارة .. لم يكونوا يدرون شيئا عن هذه الحجج ولو دروا لما أقنعتهم . فلقد كان لهم رأيهم الخاص فى دلال الملعب . كانوا يقولون إن جابر لمها من الطريق .. وأن أمها كانت امرأة بطالة تعمل فى دحديرة المذبح وأن دلال كانت تحضر لجمع قصاصة الورق من مطبعة برعى وورشة التجليد التى كان يعمل بها جابر فى أول شارع السد البرانى . وأنها قد راقت لجابر بعد أن ماتت زوجته لأنها حلوة وبنت حلال ويتيمة .

أما إنها حلوة .. فنعم ..

أما أنها بنت حلال .. فأهل الحارة .. لم يصدقوا هذا الزعم من أول الأمر .. فلقد كانت من يومها .. ملعب .. شكلا وموضوعا .

ومع ذلك فإن أحدا من أهل الحارة .. لم يجسر أن يقول رأيه فيها .. بل وحتى إذا كان يجسر فلم يعرف كيف يقوله له .. ولا ما هى أدلته ..

هل كانت تكفى طرقعة اللبانة وهز الردفين .. فى الحارة .. سببا للاتهام .. ثم الاختفاء والتأخر فى العودة .. كيف يستطيعون أن يقدموها دليلا على سوء السلوك .. إذا كان هو قد أقر هذا السلوك ورضى عنه .

ثم .. ما لهم .. ولها .. وله ..

إن لديهم من مشاغلهم ما يكفيهم .. ويكفى أن يعلق كل منهم على

مايحس .. بما يريد ..

تلعيب حواجب .. وتصفيق أيد .. وصيحة إعجاب .. من المعجبين .. وتنهيدة سخط .. ولوية بوز .. وإشاحة قرف .. وأحاديث تشنيع .. من الساخطين .. ويمضى كل إلى حال سبيله .

أما هى فلم يكن يهمها فى الأمر .. إلا أن تتقى من المرأة .. ملعب .. أو غير ملعب .. قرصات الغيظ .. ولطمات الحنق .. ومن الرجل أبيها .. الملاليم التى كان لا يفتأ يمنحها إياها .. بين آونة وأخرى .. وفيما عدا ذلك .. لا تريد سوى أن تترك فى حالها .. تفعل ما تشاء ..

ولقد كان لها فى حياتها وقتذاك .. على كل ما فيها .. من مظاهر الحاجة والحرمان .. أوقات ممتعة .. هى أوقات اللعب .. والانطلاق فى الحارة .

ولم تكن ساعات اليقظة فى الصباح قطعا .. إحدى ساعاتها الممتعة .

كانت تنام عندها تأمرها زوجة أبيها بالنوم .. فى الليالى التى لا تكون فيها خارج الدار ..

كانت تصيح بها من الشباك وهى تجلس مع أترابها على الرصيف يتناولن ما اشترينه من كناسة المقلة الموجودة بجوار المطبعة فى شارع السد .. أو يلعبن السيجة أو يستمعن إلى حواديت أم عطوة عندما تأوى إلى حجرتها فى المنضرة ..

وتنطلق صيحة دلال .. من النافذة بالدور العلوى الذى سقط بياضه فكشف عن خشب جداره البغدادلى ..

— بت يا سيدة .. مش كفاياكى سهر ..؟

وقبل أن تمنحها فرصة الرد .. ينطلق نداؤها .

— بت ياللى تنقرصى ..

وتندفع سيدة بأقصى سرعة .. وهى ترد صائحة :

— جاية .. يام ..

كانت تناديها بـ « يام » .. هكذا علمها أبوها .. وهو يطلب منها أن تبلغ

زوجته طلبا ما .. قائلا :

— قولى لامك دلال .. ألا ترسل غداء اليوم .. لأنى سآكل فى المصمت مع الحاج برعى ..

أو :

— قولى لامك دلال .. إنى لن أعود فى المساء .. لأنى سأذهب إلى حلقة الذكر فى الماوردى ..

وهكذا فرضت عليها « أم » .. ولم تجد ما يمنع من قبولها .. لأنه لم يكن لها نداء بديل .. ولم يكن لها هى أيضا « أم » أخرى . يمكن أن تستحق منها النداء .

وتصعد سيدة السلم الحجرى وثبا وهى تتشبث بخشب الدرابزين الذى طالما استعملته بطريق الزحلقة . حتى تصل إلى الشقة وتسمع صوت دلال يأتى من حجرة النوم التى يتوسطها السرير الذى ترقد عليه بجوار أبيها وتستقر الكنبة أسفل النافذة المطلة على الحارة ويواجهها الدولاب ذو المرآة الكبيرة التى تسترق سيدة النظر فيها إلى نفسها كلما سنحت فرصة .

وتصيح دلال بسيدة عندما تسمع وقع خطواتها :

— الأكل عندك على الطبلية .. اقفلى الباب .. واقعدى كلى .. واتخمدى بقى وكفاية صرمحة فى الحوارى ..

وبغير رد تجلس سيدة أمام الطبلية .. لتأكل بقايا الطعام الذى تخلف عن عشاء الزوجين ، كما تعودت أن تفعل .. ولم تكن تكره البقايا .. فقد كانت بغير شك أفضل ما يمكن أن تحصل عليه إذا ما جلست هى وأبوها على الطبلية .. فقد كانت وحدها تملك حرية أن تأكل ما تريد وتترك ما لا تريد .. وهى تكره الطبيخ البارد ذا السمن المجرمز .. الذى يكون طبقة شمعية حمراء فوق سطح الطبق .. وتكره الرز البايت الذى يصطبغ بياضه بخضرة جنزرة الحلة التى قالت لها أم عطوة ذات مرة إنها سم .. وحذرتها من تناول الرز البايت فى الحلة .. ومع ذلك فهى لا تملك رفض أى شىء يقدم إليها وهى تجلس مع أبيها وزوجته .. حتى ولو كان سما ..

حتى تتجنب زغرات دلال .. وقولها فى غيظ :

— بنت .. ما له الأكل .. اتسممى .

وكانت سيدة تفضل سم الأكل .. على سم الكلام .. وكان عليها أن تزدرد كل ما يقدم إليها .. راضية .. حتى لا تتسبب فى خلق مشادة بين أبيها وزوجته من أجلها .. فقد كان الأب كعادته يخرج منها مغلوبا على أمره .. مستسلما فى مرارة ..

ومن أجل ذلك كانت تفضل أن تأكل وحدها .. أى شىء .. حتى ولو كانت البقايا .. مجرد فتات خبز .. ودُقَّة .. أو فجل .. أو رأس سمكة .. فلقد كانت تستطيع أن تملأ بطنها الخاوى بسهولة .. من هذه الأشياء البسيطة التى لا تعدم وجودها فى بقايا الطبلية ..

وعندما تنتهى من الطعام وتلم بقايا الطبلية .. فى صفيحة الزبالة .. كان عليها أن تستلقى على الشلتة المفروشة بجوار الطبلية ، وتجر عليها الغطاء المكوم فى المطبخ فى الشتاء أو لتستلقى كما هى إذا كان الجو صيفا ..

وتمر برهة قد تطول أو تقصر وهى محدقة فى سقف الحجرة .. ثم تستغرق فى النوم حتى توقظها صرخة زوجة أبيها فى الصباح .. أو تقلق أحيانا من قرقعة ملة الفراش فى الليالى التى يغلق باب حجرة النوم دونها .. وتسمع الباب يفتح ويغلق .. وتحس بخطوات تروح وتجىء بين الحجرة والحمام ..

وأحيانا توقظها حركة أبيها .. عند الوضوء والذهاب إلى جامع الماوردى لصلاة الفجر .. وأحيانا أخرى يغلبها النوم فلا توقظها إلا رفسة فى ظهرها بقدم زوجة أبيها ..

وصباحها لم يكن قط .. صباح خير .. رغم ما كانت تسمعه من أفواه كل الناس .. عن صباح الخير ..

فمن صرخة دلال .. إلى المسح والكنس والانطلاق لمشترى احتياجات الدار .. والعودة لاستبدال بعض ما أحضرت لعدم صلاحيته .. ورفض

الإبدال .. ثم علقة تأخذها فى النهاية لخيبتها .. لوجهها الذى يقطع الخميرة من البيت ..

وعليها بعد أن تنتهى من كل هذا أن تحمل الطعام إلى أبيها فى مطبعة برعى ..

ولعل هذا أحد المشاوير الممتعة بالنسبة لها .. فقد كانت غالبا ما تعود منه ببضعة ملاليم .. تستطيع أن تحقق بها الكثير من أمانيها والتى لا تتعدى الحلوى والأطعمة التى تطالعها فى إغراء على قارعة الطريق ..

وفى المطبعة كانت تلقى بعض الحنو من الحاج برعى .. ثم كانت تستطيع أن تجد من أبيها نوعا من الأنس والبشاشة تفتقدهما فى البيت وسط التوتر وجو الإرهاب الذى كانت دلال تثيره حولها ..

وعندما تعود إلى البيت كان خير ما تلاقيه .. هو ألا تلاقى دلال .. عندما يخبرها الجيران أنها أغلقت باب الشقة وخرجت وأنها طلبت منهم أن يأخذوا بالهم من البنت عندما ترجع ..

وتنطلق البنت لتشارك بنات الحارة كل ما يمارسنه من لعب .. نط حبل .. وحجلة .. واستغماية .. وشعبطة على كوبرى السكة الحديد الواصل بين الماوردى والمنيرة ..

تلك هى أيامها الأوائل فى بداية حياتها .. وتلك هى الصورة التى يمكن أن تتواتر على ذهنها منها .. حتى خرج أبوها من الصورة .. وتعرضت للحياة .. ووجدت نفسها فجأة وحدها .. بلا أب وبلا زوجة أب وبلا أى شىء أبدا ..

---

(٢)

يوم حافل

كان يوم مولد الماوردى .. ومنذ أسبوع والحى كله تشيع فيه البهجة .. أضواء حول الجامع .. ومراجيح .. وألعاب .. الشيخة زبيدة .. وفتح عينك تاكل ملبن .. وعلى لوز .. وغناء ورقص .. وهيصة .. ما بعدها هيصة .

كانت أيام المولد .. هى أكثر أيام السنة بهجة وطربا .

وكانت خاتمتها هى الليلة الكبيرة .

ومنذ الصباح استيقظت سيدة .. تشيع فى نفسها فرحة تغلب كل ما عداها من مشاعر ضيق أو خوف تصاحب يقظتها الطبيعية كل يوم .. فقد كان اليوم حافلا بأشياء مبهجة .

وقد وجدت نفسها تفتح عينيها وتفرد ذراعيها وتشد جسدها الصغير فى تمطع لذيذ وتقلبت على وجهها ثم اعتدلت على ظهرها .. دون أن تزعجها صرخة زوجة أبيها الناهرة بأن تفزّ .

وكان ضوء الصبح قد أخذ يتسرب من النافذة وشعاع أحمر رقيق قد افترش الأرض متسللا من نافذة المطبخ ونحنحة سعال قصيرة تأتى من باب غرفة أبيها ..

وسمعت دلال تقول فى صوت نائم :

ـــ اقفل الشباك يا جابر .. الدنيا بردت .

وكانت نسمة صباح سبتمبر تهب باردة .. لا تنم عن قيظ النهار . وقفزت سيدة من فراشها وهى تود أن تنطلق لتبدأ يومها الحافل .

وقبل أن يتحرك أبوها ليغلق النافذة . كانت هى قد اندفعت إليها قائلة :

ـــ أقفله أنا يام .

ولم تجب دلال .

وعاود جابر الاسترخاء فى ارتياح قائلا لسيدة :

— كتر خيرك يا سيدة .

ولم تعرف بماذا تجيب سيدة وأغلقت زجاج النافذة .. ثم همت بالخروج من الحجرة عندما سمعت صوت دلال يتساءل :

— إيه اللى صحاك من النجمة .

— الشمس طلعت يام .

— كل يوم بتطلع .. وانت مخمودة .

— الست زكية مرات الحج برعى .. حاتفرق الفول والعيش بدرى .

— وانتى مالك .

— قالت لى امبارح .. أن أحضر لمساعدتهم فى التفريق .

— قولى كده .. همك على بطنك .

وقبل أن تغادر سيدة الحجرة .. علا صوت فى الحارة مناديا بصيحة تشق سكون الصباح :

— نبيض النحاس .

واعتدلت دلال فى فراشها وهتفت بسيدة :

— لمى النحاس من المطبخ .. ونزليه لعلى المبيض .

وفى فرحة نشطة اندفعت سيدة إلى المطبخ وأطلت من النافذة الصغيرة لتصيح منادية :

— عم على .. يا عم على .

ورفع الرجل الأعجف النحيل رأسه إلى مصدر الصوت وهو يردد النداء :

— نبيض النحاس .

وعادت سيدة تهتف :

— استنى يا عم على ..

وتوقف عم على ثم أنزل خُرج عدة البياض من فوق كتفه ، وبدا بساقين عجفاوين تبرزان من سروال لا يعرف له لون من فرط ما علاه من هباب وتراب ، وفانلة مخططة .. كانت فانلة كرة فيما مضى من الزمان وبرز عنقه من فتحة الفانلة وقد ركب عليه وجه كأنه إحدى دمى العرائس واتسعت شفتاه فى ابتسامة راضية تناثرت حولها كتلة من الشعر الأشعث اختلط فيها شعر الشارب باللحية بالرأس وهتف بسيدة بعد أن ميز صوتها :

— انزلى يا سيدة .. يجعل استفتاحك لبن .. يا بنت جابر ورقية ..

وهبطت سيدة تحمل فوق كتفها مجموعة من الحلل وصينية القلل والمصفاة ووضعتها أمامه وهى تحييه فى بشاشة قائلة :

— صباح الخير يا عم على .

— صباح الخير يا سيدة .. ازاى أبوكى .

— الحمد لله ..

— لم نره فى الجامع هذا الصباح .

— ما زال نائما .

— سلامته .. ليس من عادته ألا يصلى الفجر حاضرا ..

— أظنه متعبا .

— أيام المرحومة .. لم يكن يفوته الفجر أبدا .. كانت صحته كالحصان ..

وبدأ على فى إخراج الأجنة والقادوم وأخذ فى إعداد الحفرة التى سيدفن فيها فوهة المنفاخ ورص فوقها بضعة قوالب طوب . وواصل حديثه قائلا :

— كانت له أيام .. لقد أغلق مرة شارع السد بحاله . وضرب رشوان فتوة المدبح حتى جعله يعدو أمامه .

وأخرج على من الخُرج كومة من الفحم بدأ يرصه فى الطرف الآخر من الحفرة وهو يقول :

— لم يهده غير موت المرحومة .. كانت ست ولا كل الستات . الحمى

خلصت عليها . بعد ما ولدتك بكام شهر .

ولم تجد سيدة جديدا فيما قاله على المبيض فلقد سمعته منه ومن أهل الحى كثيرا .. وكانت تعرف ما سيقوله بعد ذلك . وبعد أن رص الرجل الفحم ، بدأ فى قوله :

— هده موت المرحومة أمك .. وأكملت عليه الولية دلال .. لست أدرى ما الذى له عليها ..

ومد على يده وجذب سيدة وأجلسها بجواره قائلا :

— أنا أعرفها يا سيدة جيدا .. أعرفها هى وأمها من دحديرة المدبح ..

ثم أخفض صوته وهو يقرب شفتيه من أذنها هامسا :

— كنت مع أمها مرة .. فى تلال زينهم .. وكان الوقت ظهرا والشمس تلسع القفا . وهبطت أنا وهى فى إحدى الحفر نستتر من الأنظار ونستظل بظل الحفرة .. ولم نكد نبدأ حتى فاجأنا عساكر الهجانة .. وتركت عدة البياض فى الحفرة .. وانطلقنا هاربين . واستبقاها العساكر .. وأطلقوا سراحى بعد أن لهفونى كرباجين ما زال أثرهما على ظهرى حتى الآن .

وبدأ على يحرك المنفاخ ليشعل النار فى الفحم .

ووجدت سيدة أن هذا الجزء من حديث على المبيض جديد عليها فأرهفت سمعها جيدا .. وتساءلت قائلة :

— وبعدين يا عم على ؟..

— ولا قبلين . راحت علىّ العدة .. وتبت إلى الله .. من مشاوير الجبل ..

وصمت برهة وهو يخرج القصدير من الجراب وعاد يقول :

— وأصبحنا نذهب إليها فى البيت .. وكانت دلال قد كبرت وفتحت وبدأت تدخل فى الكار ..

وهز رأسه فى أسف وأردف :

— وبعد ذلك رمتها المقادير .. فى طريق أبيك .. واستطاعت أن تلفه ..

وتزوجها ..

وأخذ على يدق الحمرة وهو يتنهد قائلا :

— دنيا .. من كان يصدق .

وأحست سيدة أن الجديد فى حديث على قد استنفد ونهضت من جوار الرجل وهى تهم بالعودة إلى البيت :

ورفع على رأسه متسائلا :

— إلى أين ؟

كانت سيدة قد تعودت أن تشارك الرجل دائما عملية البياض .. كان النفخ فى النار يستهويها .. وكانت تمارس عملية الوقوف فى الحلة وتحريك القدمين فيها .. كما تمارس لعبة الحجلة .. ونط الحبل .. ولكنها اليوم كانت تشعر أن لديها أشياء أكثر جاذبية من نفخ النار بالمنفاخ والدوران فى الحلل .

وردت على سؤال الرجل قائلة :

— النهاردة المولد يا عم على .

— وماله .. هو النهار لسه طلع ..

— ست زكية مرات الحج برعى حاتفرق فول وعيش .

— وانت مالك .

— حاساعدها .

وتهللت أسارير الرجل ورد قائلا :

— ستأتى لنا برغيفين .

— طبعا .

ونهض على وجذبها من ذراعها ثم همس فى أذنها متسائلا :

— حاتفرق لحمة ؟

— ضرورى ..

ورفع على كفيه إلى السماء وقد اتسعت شفتاه عن ابتسامة عريضة كشفت

بقايا أسنانه ودعا إلى الله قائلا :

— يجعل استفتاحك لبن .

ثم استدار يهمس فى أذنها قائلا :

— حايكون لنا نصيب ..

وبدا التردد على سيدة قائلة :

— أنا لا أقدر إلا على الفول يا عم على .

— ابقى احجزى رغيف لحمة على جنب .. خليكى ناصحة اخفيه فى عبك .

وانطلقت سيدة تعدو إلى الداخل تثب فوق درجات السلم ولم تكد تبلغ الدور الأول حتى سمعت وقع أقدام تهبط الدرج .. استطاعت أن تميز فيها خطوات أبيها بطيئة متثاقلة .

وعلى البسطة التقت به يقف فى مواجهتها ووجدته أمامها طويلا عريضا . وذكرت قول على المبيض .. كيف كان . وكيف أغلق شارع السد وضرب فتوة المدبح . ولم يطل تفكيرها فى ذلك كثيرا .. فقد ذكرت ما كانت تحتاج إليه منه .

كانت تريد قرشا ..

قرشا بأكمله .. فهى لن تستطيع الاستمتاع بالمولد .. إلا وهى تملك هذا الشيء السحرى .. الذى يستطيع أن يفتح لها أبواب المولد .. يدخلها السيرك .. ويركبها المراجيح ويطعمها الكبدة بالشطيطة .. وعلى لوز .. و .. و ..

كل هذا يمكن أن يفعله القرش .

أجل .. لا بد لها من شيء أكبر من المليم .. والنكلة ..

ورفعت سيدة رأسها إلى الرجل الطويل وقد بدت على شفتيه ابتسامة حنون وقالت فى صوت يملأه التردد والخشية ..

— آبا .

— نعم يا سيدة .

— عايزة ..

ثم صمتت برهة .. وهى تستكثر على نفسها ما تنوى أن تطلبه .. وعادت تقول وقد تلاحقت أنفاسها :

— عايزة ..

— عايزة إيه يا سيدة ؟

— عايزة قرش .. أصل النهارده المولد .. و ..

وقبل أن تكمل حديثها مبررة أسباب طلبها . دفع الرجل يده فى جيبه وأخرج كيسه .. ثم أخرج قطعة نقود ومد بها أصابعه قائلا :

— خدى قرشين .. يا سيدة ..

ثم رفع رأسه إلى أعلى فى شيء من الحذر .. وأردف قائلا :

— لا تخبرى أمك.دلال .

— حاضر يا با ..

ورفعت إليه عينين ملؤهما الفرحة .. والشكر ..

ومد ذراعيه ووضع كفيه تحت إبطيها ثم رفعها إلى صدره وأحست بنفسها ترتفع إلى محاذاة وجهه فمدت ذراعيها الصغيرتين وأحاطت بهما عنقه . ووضعت وجهها فى لحيته . وقبلته . وهو يهمس بها قائلا :

— اشترى ما تريدين يا سيدة .. لا تبقى من النقود شيئا .

وسمع صوت دلال من أعلى يصيح مناديا :

— سيدة .. بت يا سيدة .. سيدة ياللى تنغدرى .

وصاحت سيدة وهى تهبط من ذراعى أبيها قائلة :

— جاية يام .

ثم انطلقت تصعد السلم وهى تقول لأبيها :

— سألحق بك على المطبعة .. لأساعد الست أم عباس فى تفريق الفول

والعيش .

ووصلت سيدة إلى الشقة لتجد دلال واقفة بالباب تنظر إليها ناهرة :

— بتهببى إيه تحت ؟..

— أعطيت النحاس للمبيض .

— سنة ؟!

— مسافة ما دق الحمرة .. و ..

— وانتى مالك تقعدى لغاية ما يدق الحمرة .. قلت لك ميت مرة .. بطلى حشرة فى الرجالة .. يا ملدوعة ..

ومدت يدها فجذبتها من شعرها إلى الداخل .

وكانت سيدة قد استطاعت منذ ذلك الحين أن تعى .. معنى كلمة السباب التى نعتتها بها .. بما كانت تصاحبها من مترادفات تطلقها دلال ببساطة .. وكأنها أوصاف طبيعية لا تقبل الجدل .

وكان عليها أن تنهى عملية الكنس والمسح قبل أن تنطلق إلى الورشة . وكانت فى الأيام العادية يمكن أن تستغرق منها إلى الضحى أو حتى إلى الظهيرة .. إذا كانت زوجة أبيها غائبة عن الدار . بكل ما يتخللها من وقوف فى النافذة .. ولعب فى أدراج زوجة أبيها ومحاولة تقليدها فى وضع الأحمر والكحل فى وجهها وتأمل نفسها فى المرآة .. والنوم على الفراش . والغناء .. ومعاكسة الباعة والمارة والجيران .. إلى آخر كل ما كان يتفتق عنه ذهنها وهى تقوم بمهمة تنظيف البيت .. وحدها .

ولكنها اليوم كانت فى عجلة من أمرها .. وفى سرعة البرق استطاعت أن تسكب المياه على الأرض وتمسحها بغير كنس .. وبعد برهة كانت تقف أمام دلال وهى تمشط شعرها بالفلاية البيضاء .. متسائلة فى لهفة :

— أروح بقى للست أم عباس يام ؟

— ملحوقة على إيه ؟

— قالت لى امبارح .. تعالى من بدرى .. لكى نفرق الفول والعيش .

— ألم تأت بسيرة اللحمة ؟..

ولم تكن سيدة سمعت شيئا عن اللحمة .. ولا تعرف إذا كان الحاج برعى قد نوى أن يفرق أرغفة اللحمة هذا العام أم سيكتفى بالفول والعيش .. ولكنها أدركت مدى ما يمكن أن يكون للحمة من جاذبية فى نفس دلال .. ومدى ما يمكن أن تسهل لها الانطلاق من البيت .. فلم تلبث أن رددت فى ثقة :

— سمعتها تقول للحاج برعى .. اعمل ترتيبك .. حانفرق اللحمة بكرة مع الفول .. للحبايب .

ولم يكن هناك شك فى أن عم جابر وأسرته يدخل فى نطاق الحبايب .. ومن وراء شعرها المدلى على عينيها تتخلله أسنان الفلاية .. نظرت المرأة إلى سيدة قائلة فى لهجة محذرة :

— ترجعى على طول على البيت .. إوعى تروحى بالحاجة هنا واللّا هنا .

ونظرت سيدة متسائلة فى خوف :

— ألن أذهب إلى المولد ؟

— هاتى اللحمة .. وبعدين روحى فى داهية ..

ودست سيدة قدميها فى القبقاب الموضوع خلف الباب وهبطت بضع درجات تطرق حجر الدرج بخشب القبقاب .. ولم تكد تصل إلى البسطة الأولى .. حتى سحبت القبقاب من قدميها .. وامتطت ظهر الدرابزين .. تمارس أولى متعات اليوم بالانزلاق حتى الفناء ..

وبالباب مرت بعلى المبيض وكان قد بدأ عملية جلى النحاس بالحمرة وبدأ الوقوف فى قاع إحدى الحلل تمهيدا لدعكها بقدميه . ولم تستطع سيدة أن تقاوم إغراء العملية الراقصة التى كانت تعاون بها عم على دائما .. خلال عملية البياض .

قذفت القبقاب من قدميها وأزاحت الرجل جانبا ثم قفزت إلى داخل الحلة ..

وبدأت تحرك قدميها بسرعة وهى تهز جسدها الصغير يمنة ويسرة .. كانت فرصتها الوحيدة فى ممارسة الرقص دون أن تتعرض للنهر من أحد ..

وبعد برهة مد على يده ليوقفها قائلا :

— كفاية يا سيدة .. خذى الحلة الثانية .

ولكن سيدة تذكرت المشوار المحبب إلى نفسها .. فقفزت من الحلة ودست القبقاب فى قدميها الصغيرتين قائلة :

— عن إذنك يا عم على .. ورايا شغل .. النهارده المولد .

وهتف بها على وهى تنطلق فى الحارة :

— لا تنسى اللحمة .

وقبل أن تصل سيدة إلى آخر الحارة .. أحست أن القبقاب يعوقها عن الجرى فسحبته من رجليها وأمسكت كل فردة بيد .. وعاودت الجرى ..

ووصلت إلى شارع الخليج . وبدا الجامع محاطا بالخيام والمراجيح .. ولم يكن الزحام قد بدا بعد .. وكانت حركة الناس بطيئة متكاسلة . ورائحة الشواء فى عربة الكفتة والكباب الزجاجية البيضاء لم تتصاعد بعد .. ولم يكن أثر هناك لصينية الكبدة .. ولا لعربة على لوز .. لا شيء من المغريات أكثر من عربة الجوافة .. التى تغلبت رائحتها على كل ما عداها .

وساءلت نفسها ..

نشترى جوافة يا سيدة ؟.. وتضيعى الفلوس ؟.. وما زال أمامك الكثير مما تفعلينه ؟!

وصرفت نظر .. عن مسألة الجوافة .. رغم رائحتها النفاذة التى تخترق خياشيمها ..

ولكن لماذا لا تمر فى طريقها بشجرة الجوافة ببيت الأسيوطى ... ثم بالنخلة فى بيت الشناوى .. لقد أخذ البلح فى الاحمرار .. وتستطيع بطوبة أن تسقط بعضا منه ..

ولكن كل هذا ليس فى طريقها .. ويحتاج إلى لفة طويلة .. لا .. لا .. ليس هذا وقته ..

بنا يا سيدة إلى الورشة .. حيث الفول والعيش .. ومن يدرى .. ربما اللحمة ..

وإذا لم يكن الحاج برعى قد نوى أن يفرق لحمة هذا العام فماذا تقول لزوجة أبيها ؟

« تنفلق » . تاكل فول وعيش كفاية عليها ..

وبدا سيدى أبو الريش بقبته المخططة حيث تتزاحم عربات الخضار وتتعالى نداءات الباعة متنافرة مختلطة بصيحات الناس واتجهت يسارا مع ترام ٥ المتجه فى سكة المدبح وسمعت صوت دورانه فوق القضبان .. شيئا أشبه بالأنين الصارخ .

وبدت لها الدحديرة على اليمين بعد شارع الطيبى .. تبدو كالتل العالى ينحدر منها الماء الأسن وتتكوم على سطحها القاذورات . وبدت الأكواخ أعلاها فى غموض مثير .. كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تصعد إليها فقد سبق أن منعها أبوها من الاقتراب منها .

ولقد سمعت اليوم من على المبيض أنه كان يذهب إلى أم دلال هناك بعد أن طارده عساكر الهجانة من إحدى حفر تلال زينهم عندما كان يختبئ هو وهى .

لماذا كان يختبئ .. ولماذا بدأ يزورها هنا .. فوق تل القمامة والماء الآسن ؟

كان يفعل أشياء .. عيب ..

ولماذا عيب ؟ وأبوها يفعلها ولا شك داخل حجرته .. مع دلال .. عندما يغلقان الباب عليهما ..

لا شك أنها لا تفعل بغير زواج ..

قطعا .. لم يكن عم على زوجا لأم دلال .. وهما يختبئان فى الحفرة فوق تلال زينهم . وإلا .

لما اختبأ ..

ولكن لماذا لم يتزوجها .. كما فعل أبوها مع دلال ..

ولكن حتى أبوها ودلال يغلقان الباب ..

إنها لا شك .. مسألة عيب .. لا تمارس إلا خفية ..

ولكن لماذا يمارسونها ..

وبدت المسألة كلها غامضة ..

أسئلة بلا جواب .. لماذا ؟. لماذا ؟.

ولكن لماذا ترهق نفسها هى .. فى الأسئلة ؟

وانحدرت فى شارع السد .. وبدت على اليسار اللافتة المعلقة فى مدخل الزقاق المسدود .. « مطبعة برعى . مطبعة وورشة تجليد » .

ودخلت سيدة الزقاق .. وبدت لها واجهة المطبعة .. وقد انفرج بابها الخشبى العريض عن المصطبة التى يجلس عليها الحاج برعى ويواجهه أبوها على مصطبة مقابلة وضعت عليها القوائم الخشبية التى رصت أسفلها الملازم التى تضمها الدوبارة المشدودة .. ووراءها أبوها يضع الملزمة فوق الملزمة ويشد عليها الخيط وبجواره إناء أسود ملىء بالنشا المطبوخ .

وفى الواجهة بدت مطبعة اليد وبجوارها صندوق الحروف وعلى اليسار ماكينة القص ذات السكين الحاد المخيف الذى حذروها من الاقتراب منه وإلا لهف أصابعها .. كما لهف أصابع عتريس . وأسفل الماكينة أكوام من قصاصات الورق التى كانت تترك لها حرية العبث فيها .. وحمل ما تشاء منها .

ووقفت سيدة أمام الحج برعى بعد أن نقلت القبقاب من كفيها إلى قدميها وهتف الرجل العجوز الطيب وهو يحرك مسبحته بين أصابعه :

— صباح الخير يا سيدة .. ماذا أتى بك مبكرا ؟

— أتيت لمساعدة ست أم عباس فى تفريق الفول والعيش .

— كل سنة وانتى طيبة .

— وانت طيب .

— هى فوق .. اطلعى لها .

وكان منزل الحاج برعى يقع فوق المطبعة بباب فى الزقاق على يمين الباب الكبير . وباب آخر من داخل المطبعة .

وقبل أن تتجه سيدة إلى الباب الخارجى . هتف بها الرجل :

— تعالى يا سيدة .

ثم مد يده فى جيبه فأخرج كيس النقود .

— خذى .. هذا . اشترى لك حاجة من المولد .

وأمسكت سيدة بالقرش .. تتحسسه فى فرح .

هذا يوم مفترج .. حافل ..

معها الآن ثلاثة قروش .. يجب أن تجلس لتوضب حالها على مهل .. ستدخل أولا .. إلى السيرك .. ثم ..

ولكن ليس هذا وقته ..

بعدين .. عندما تنتهى من مهمتها مع الست أم عباس وتحمل الأمانة إلى زوجة أبيها .. وتملك حريتها بعد ذلك .. تستطيع أن تجلس وتفكر .. وتضع برنامجها كاملا .. لهذا اليوم الحافل .

والآن .. إلى فوق ..

(٣)

لماذا عدت ؟..

انطلقت سيدة تثب فوق درجات السلم بقدر ما يسمح لها القبقاب .

ووجدت أم عباس تقف على البسطة وأمامها أسبتة العيش وبجوارها عباس تصيح به :

ـــ لا فائدة منك أبدا .. طول عمرك يارده .. وانت كده .

وبدأتها سيدة بالتحية قائلة :

ـــ صباح الخير يا خالتى أم عباس .

ـــ صباح الخير يا سيدة .

ـــ أنا جاية أساعدك ..

وقبل أن تتم حديثها قاطعها عباس قائلا :

ـــ سيدة ستفعل لك ما تريدين .. هاتى الشلن ودعينى أذهب .

ـــ تذهب إلى أين ؟

ـــ قلت لك سأذهب إلى السينما الأهلى ..

ـــ نصف فرنك كفاية .

ـــ هات يا شيخة ..

ومد عباس يده فاختطف كيس النقود من صدرها وأخرج ما يريد ثم وضع الكيس مكانه وهم بالوثوب إلى السلم . ولكن أم عباس أطبقت على كم جلبابه صائحة :

ـــ والنبى ما انت نازل ولا شايف السكة بعينك .

ـــ وبعدين معاكى يام .

ـــ اقعد هنا لغاية ما نعبى الشقق وتروح معايا لسيدى الماوردى .

ـــ البت سيدة ستفعل لك ما تريدين .. وستذهب معك إلى سيدك الماوردى .

ثم نظر إلى سيدة مستنجدا ..

ـــ والا إيه يا سيدة .

ـــ على عينى وراسى يا سى عباس .

ـــ سيبينى بقى يام ..

وأطلقت الأم سراحه .. فتحرك تجاه سيدة هابطا السلم . وتوقف أمامها برهة وهو يتأملها بنظرة فاحصة وفجأة مد يمناه وقرصها فى صدرها بسبابته وإبهامه . فصرخت سيدة فزعة ..

وصاح عباس ضاحكا :

ـــ مالك يا بت اتخضيتى كده ..

ومرة ثانية عاد يجذبها من صدرها مقهقها :

ـــ بكرة ينبقوا ويبقوا لوز .

ولم تعرف بماذا تجيب سيدة .. هل تفرح لأن صدرها (حاينبق ويبقى لوز) أم تغضب أم تخجل . ونظرت إلى أمه مستنجدة .. فوفرت عليها أمه الرد بصياحها فيه ناهرة :

ـــ إلٰهى تنفضح يا عباس يا بن برعى .. ليس وراءك سوى الجرس والفضايح .

وأشارت إلى سيدة فى لهجة حازمة .. كأنما كانت سيدة شريكة فيما حدث من جرس وفضائح .

ـــ خشى يا بنت .. هاتى سبت العيش وتعالى ورايا .

وبدأت أحلام سيدة تتبدد رويدا رويدا .. بدخولها الشقة .. عندما اكتشفت أن المساعدة المطلوبة منها لم تكن مجرد نوع من تفاريح المولد التى يمكن

أن تقتصر على حشو الأرغفة بالفول واللحمة ثم الخروج لتوزيعها بجوار مقام سيدى الماوردى . بل كانت يوما شاقا من التنفيض والكنس والمسح .. بدأت بحمل الأبسطة إلى السطح وفرشها مقلوبة على وجهها ثم دعكها بغطاء الحلة لإخراج الأتربة . حتى احمرت ركبتاها من اللف والدوران بالغطاء على ظهر البساط الخشن .

وتحولت بعد ذلك إلى مسح البلاط بالفرشة وأم عباس وراءها تغرق الأرض بالمياه بصفيحة بين يديها . وهى تأمرها بأن تعيد دعك كل بلاطة حتى كاد البلاط يبوش ويتآكل .

وتلا تنظيف البلاط مسح زجاج النوافذ بالجرائد القديمة ..

ولم يكد ينتهى مسح الزجاج حتى جرتها إلى الحمام لتأخذ معها فمين غسيل ..

وأحست سيدة كأنها فى دوامة . وبدت لها دلال زوجة أبيها نعمة .. لأنها لم تلق بالا قط إلى نظافة المنزل . وكانت تتركها تمارسها كيفما شاءت . فقد كانت أكثر اهتماما بنفسها .. جسدا ووجها . كان الحمام والتمشيط والزينة هى الأهم .. ولم تكن تطلب من سيدة أية مساعدة فى هذه المسائل .. اللهم إلا إشعال وابور الجاز وملء الصفيحة وأحيانا دعك ظهرها بالليفة . أو المساعدة فى تمشيط شعرها بعد الحمام . وهى كلها أعمال تافهة إذا قيست بهذه الأشغال الشاقة التى فرضتها عليها أم عباس .

وأخيرا وبعد أن كاد ظهرها يقصم . وبعد أن انتهت من مساعدة أم عباس فى نشر آخر قطعة غسيل فوق السطح قالت أم عباس وهى تنفض عن يدها قطرات الماء وقد بدا الوشم الأخضر فى أسفل كفها عند باطن الرسغ .

— ننزل بقى نوضب الفول والعيش .. وناكل لقمة .

وكانت حقيقة فى أشد الحاجة إلى اللقمة ، إذ كان الوقت قد جاوز الظهيرة .

ولم تعرف ماذا يمكن أن تقول دلال عن غيبتها الطويلة هذه ولا كيف ستلقاها .

المهم أن تأخذ لها بعض أرغفة اللحمة .. إن كان هناك لحمة .

وهبطت الدرج فى أعقاب المرأة الطويلة القامة العريضة المنكبين القوية الذراعين كأنها رجل .

ودلفت وراءها إلى المطبخ وأخذت المرأة تكشف الحلل الكبيرة المرصوصة على منضدة خشبية قائلة :

— نضع اللحمة أولا فى الأرغفة الطرية الموجودة فى السبت .

وتنفست سيدة الصعداء .. وأحست بأنه لم يعد هناك ما تخشاه .. من تأخيرها فى العودة ..

ستحمل الأرغفة إلى دلال .. وستخفى واحدا منها .. لنفسها .. وواحدا .. لعلى المبيض . وثالثا لأم عطوة ..

ولكن ماذا سيتبقى بعد ذلك لزوجة أبيها .

سترى كم تعطيها المرأة من أرغفة بعد الأشغال الشاقة التى حكمت عليها بها طوال اليوم .

وانتهى إعداد الأرغفة .

ومدت أم عباس يدها بشقة بها فول . قائلة ببساطة :

— كلى هذه يا سيدة ..

هكذا . بعد طول التعب .. تمنحها شقة فول .. كأى شحاذ على باب الماوردى .

على أية حال ستعرف كيف تأخذ نصيبها من أرغفة اللحم التى ستحملها إلى البيت .

وأخيرا بدأ الموكب فى السير .. حملت هى سلة على رأسها وحملت المرأة سلة أخرى . وأمرتها بأن تتبعها . وكانت السلتان فول .

ولم تعرف متى ستعطيها نصيبها من اللحم .. فقد تركت سلة أرغفة اللحم كما هى .

واتجه الموكب الصغير إلى مقام الماوردى .. وكان الزحام قد بدأ .. وصوت المراجيح يتعالى مختلطا بصيحات المجاذيب ونداءات الباعة ودقات طبول السيرك .

وأخذت أم عباس تشق طريقها وسط الزحام بالذراع واللسان .

وتعالت صيحاتها الناهرة وسط الجموع :

— وسع ياللى تنشك فى لسانك ..

وتتلو الصيحة المنذرة نداء صارخ لسيدة :

— قربى يا بت .. هو انتى ماشية على قشر بيض .

وأخيرا بلغ الموكب الثانى يحمل السلتين باب المقام وأنزلت أم عباس القفة من على كتفها وجذبت الأخرى من فوق رأس سيدة ورصت القفتين أمامها . وبدأت عملية التوزيع .

واندفع زوار الماوردى من المجاذيب والمحتفلين بالمولد على القفتين ولم يبد من الموكب الصغير شىء .. اختفى كله فى الزحام .. وفى غمضة عين لم يبق فى القفتين قطعة خبز .

وتاهت سيدة وسط الزحام . ولم تعد تعرف أين أم عباس .. ولم تشعر أن لديها رغبة فى المعرفة . بعد أن فقدت الأمل فى أرغفة اللحم . وبعد أن أضاعت يومها فى الأشغال الشاقة بمنزل الحاج برعى .

على أية حال لم يضع اليوم سدى .. لقد كسبت من الحاج برعى قرشا . وهو يشكل بالإضافة إلى ما أخذته من أبيها ثروة تستطيع أن تحقق بها كل أمانى العمر .

ولكن ماذا ستقول لدلال .. عند عودتها للمنزل .

وماذا يدعوها إلى المنزل .. الآن ..

إن العلقة مضمونة .. فلماذا لا تؤجلها حتى تستمتع بيومها .. أجل .. ليس هناك ما يدعوها أبدا للعودة إلى البيت .

لتنطلق الآن فى المولد وليحدث بعد ذلك ما يحدث .

ماذا تفعلين يا سيدة ..

يجب أن تتدبر أمرها ..

ولكن الأمر لا يحتاج إلى تدبر ..

عربة على لوز تقف أمامها .. فيجب ألا تضيع أى وقت فى التفكير ..

ودفعت الصبية المحيطين بالعربة حتى وصلت إلى حافتها وصاحت بصاحبها :

— يا عم .

ولم يجبها الرجل فقد كان مشغولا فى وضع الملوق فى فم أحد الزبائن من الصبية المحيطين بالعربة . ولم تنتظر سيدة الرجل ومدت يدها إلى المؤشر الحديدى الذى يتحرك فى محور دائرى فوق الصينية المقسمة إلى عدة أقسام تكون كل منها علبة مستقلة تلتقى فى مركز الصينية الذى ثبت فوقه المؤشر وقد وضع على كل علبة رقما يبين عدد المرات التى يتناولها اللاعب إذا ما وقف المؤشر على الرقم .

وبدأ المؤشر يلف حتى وقف فوق رقم أربعة وصاحت سيدة بالرجل :

— أربعة .

ونظر إليها الرجل زاجرا :

— الفلوس يا بت .

وصاحت به سيدة ترد على زجرته بزجرة أكثر حدة .

— خذ .. ماذا تظن .. أنصب عليك .

ودفعت إليه بالقرش الذى تناولته من الحاج برعى .

وفحص الرجل القرش جيدا ووضعه فى جيبه . وعادت سيدة تصيح :

— هات الباقى .

— بكم تريدين .

— دورين .

ومد الرجل يده فى جيبه فأخرج بضعة مليمات سلمها إليها وهو يعاود وضع الملعقة فى فم الصبى قائلا له :

— آخر ملوة لك ..

— والزوادة .

— وسع .. لغيرك .. عايزين نشوف شغلنا .

ثم وضع الملعقة فى إحدى العلب وأخرج ملوة من حلوى الليمون المرشوش عليها القرفة والمرصعة باللوز .

ونظرت سيدة إلى الملعقة صائحة :

— حط عليها لوزة .. واملاها ..

— خذى يا بت أنا مش فاضى لك .

— والله ما خدها .. إلا باللوزة .

وعاد الرجل يضع الملعقة فى العلبة ويخرج بلوزة صائحا :

— يظهر إنك مناكفة .

ودفع بالملعقة فى عنف إلى فمها المفتوح استعدادا لالتهام ما بها .

وانتهت سيدة من أكل العلى لوز وانطلقت وسط الزحام وهى تقبض جيدا على النقود فى جيب جلبابها .

وبدأت سيدة تنظر إلى مجموعة المراجيح المتطايرة فى الهواء .. وبدأت تفكر وهى تنقل بصرها بين الصناديق المهتزة والمتأرجحة .

تركبى الوزة يا سيدة .. والا المركب .. والا الساقية ..

تذهبى إلى السيرك يا سيدة .. أم تدخلى لترى الشيخة زبيدة أعجوبة زمانها .. المرأة التى لا تزيد على حجم طفلة صغيرة ..

تأكلى الكبدة أم شطيطة .. أم تأكلى الكشرى بمية الدقة أم تجازفى وتأكلى كفتة وكباب . وكانت رائحة شى الكباب تتصاعد من العربة البيضاء تملأ جو المولد كله .

والسجق ولحمة الراس .. يا سيدة ؟!!

ولاحت لها عربة السجق . وتذكرت منظره على الصينية النحاسية يتوسد

فرشة من البقدونس فى شارع السد فى المحل الذى يختلط فيه بريق صوانى النحاس بالمرايا الزجاجية .. وتذكرت لهفتها على قطعة سجق .

ووقفت الصبية حائرة .. الأمانى تدور فى ذهنها .. والأصوات تتزاحم فى أذنها .. والروائح تختلط فى أنفها .

وحزمت أمرها واندفعت إلى المراجيح .

تأخد لها دورا فى مرجيحة الوزة .. ثم يحلها ربنا .

وبدأت المرجيحة تقذفها فى الهواء ، وبدا المولد حافلا حولها بالأضواء والأعلام وصياح المجاذيب . وصرخات الباعة . ودقات الطبول وأصوات المزامير . ورنين الصاجات .

دنيا حافلة .. ووسط كل هذا يقوم الضريح .. أو المقام كما يسمونه .. وأسفله يرقد .. أو لا يرقد .. سيدى الماوردى ..

كل هذا من أجله .. وهو قطعا لا يدرى .. وإذا درى .. فماذا يهمه .. حقيقة .. أن بعض المجاذيب ينادونه فى صرخات محمومة .. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل لهم .. وبعض المصابين والمحزونين ينادونه للتوسط لدى الله فى قضاء حاجاتهم .. وإزالة كروبهم .. ولكنه لا يعرف كيف يتوسط لهم .. والله يسمعهم ولا شك .. قبله .. وهو من غير شك لا ينتظر فى إقامة عدله .. وساطة .. ميت ..

المهم .. لقد بدأ .. الصراخ فوق قبره مباشرة ..

بدأ الترنح والاهتزاز .. والصياح .. المسمى بالذكر .. وهو يتم داخل المقام فوق رفاته .. إن بقى منها شىء .. أو إن وجدت أصلا .

والمترنحون الصارخون .. لا شك يعتقدون أنه موجود .. وأنه يشعر بهم .. وإلا لماذا اختصوا ضريحه بهذا الترنح الصاخب .. وهم يفترضون فيه أن يحتمل صخبهم وصياحهم طوال الليلة ويطلبون بعد هذا وساطته وشفاعته عند الله .

لعنة الله عليهم .. لو أنه يشعر بهم .. لما استحقوا منه سوى دعوة إلى الله بأن

يأخذهم إلى جواره حتى يريحه منهم . ولو كان لا يشعر .. فلماذا كل هذا الصياح .. فوق قبره .. وعلى أنقاضه .

وتوقفت المرجيحة بسيدة .. وصاح بها الرجل :

— انزلى يا بت .

ونزلت البنت ..

لماذا يصرخ فيها الجميع وكأنها لم تدفع ؟..

وأحست بقرصة الجوع فى بطنها .. وعادت تسائل نفسها :

سجق يا سيدة .. والا كباب .. والا كشرى .

يا سلام على رائحة الكفتة والكباب .. رائحتها هائلة .

ولكنها .. مخيفة .. إنها لا تضمن ماذا يمكن أن تستهلكه من قروشها .

حقيقة أنها تمتلك ثروة .. وأنها قادرة بها على فعل ما تشتهى .

ولكن .. الكباب .. يبدو أكبر من قدرة ثروتها .. وهى تخشى أن تطيح أكلة الكباب لو فكرت فيها .. بكل ما تبقى منها .. أو ربما كان ما معها لا يكفى لأكلة الكباب .

لو أن أم عباس منحتها بعض أرغفة اللحمة .. أو حتى شقة واحدة ثمنا لكل ما كلفتها به من أعمال شاقة .. لوفرت عليها ثمن الكباب .. ولكلفتها مشقة الحيرة .

ولكن لماذا لا تأكل كبابا .. وتتحدى أم عباس بفلوسها .

اعقلى يا سيدة .. لا تتهورى .

ووجدت ساقيها تقودانها إلى عربة الكشرى . ما له طبق الكشرى بمية الدقة .. والتقلية .

وفى طريقها إلى عربة الكشرى مرت بباب الضريح .. وأبصرت أباها مع الحاج برعى .. ضمن المترنحين فى حفل الذكر .

ولم يرها هو بالطبع .. فقد كانت عيناه مغمضتين .. ورأسه يهتز وجسده

يتأرجح .. بلا مرجيحة .. وصياحه يتعالى مع بقية الذاكرين .. « الله حى » .. « الله حى » .

واتجهت إلى عربة الكشرى ..

ومن جديد عاودتها الحيرة .. وقفز إلى ذهنها السؤال :

كشرى .. والا مكرونة ..

ولم تطل بها الحيرة حتى صاحت بالرجل ..

— واحد كشرى .. وواحد مكرونة ..

حد واخد منها حاجة ..

وأكلت سيدة الكشرى والمكرونة .. ودخلت السيرك وشاهدت شوّال وهو يلعب عضلاته صائحا « أنا شوّال بطل امبابة فى وزن الريشة » وشاهدت الشيخة زبيدة .. وسمعتها وهى تتحدث ..

فعلت سيدة كل شىء .. حتى آخر مليم .. وبعدها .. يا سيدة ؟

لم يبق شىء غير العلقة .. تنتظر فى البيت على يد دلال .. مجانا .

عودى من سكات إلى البيت لتتناوليها وتنامى .. وتحلمى بها وبكل ما فعلته فى المولد .

وأخذت أصوات المولد تخفت وأضواؤه تبهت من ورائها وهى تتجه إلى البيت مطأطئة الرأس ..

ولم تكد تتباعد عن المولد .. وتشعر بالسكون يخيم من حولها .. حتى اكتشفت أنها تسير حافية .. بغير قبقاب .

ضاع القبقاب يا سيدة ..

أين خلعته ؟

خلعته .. عند المراجيح ..

ولكن هل يمكن أن يظل مكانه وسط هذا الزحام ؟

وانطلقت سيدة تجرى عائدة إلى المولد .. تشق طريقها من جديد إلى

المراجيح .

وعبثا حاولت أن تجده وسط أكوام البشر .

وكان عليها أن تعود من غير قبقاب .. لتتوقع بدل العلقة علقتين .. الأولى عاجلة للغياب طيلة اليوم عن البيت والثانية آجلة عند اكتشاف زوجة أبيها لضياع القبقاب .

ووصلت سيدة إلى البيت .. وأحست بالحارة كلها مغرقة فى السكون .. كلهم قد ذهبوا إلى المولد ..

أتراها ستجد دلال فى البيت ؟..

هل يمكن أن تكون قد ظلت طول اليوم وحدها دون أن تخرج ؟

ليتها لا تجدها ..

ولكن ماذا تفعل إذا وجدت الشقة مغلقة ؟

تعود إلى المولد ؟.. إلى متى ؟..

حتى ينتهى أبوها من الذكر وتعود معه .. وتدعى أنها قد أتت من بدرى ولكنها لم تجد أمها دلال .

هذا خير حل لمشكلتها .. وبدأت ترفع يدها إلى السماء لتدعو الله ألا تكون دلال فى البيت .

وصعدت الدرج .. تسترق الخطى بغير قبقاب . حتى وصلت إلى الباب .

ووقفت أمامه برهة ..

وأخذت أنفاسها تتلاحق .. لقد بدا من أسفل الباب بصيص ضوء يدل على أن دلال موجودة .

أو ربما أوقدت اللمبة .. ثم خرجت .. من يدرى ..

إن عليها .. أن تطرق الباب .. لا داعى لأن تلح فى الطرق .. يكفى طرقة أو طرقتان ترضى بهما ضميرها .. إن كانت دلال موجودة فستفتح لتلهفها العلقة .. وتنتهى ..

وإن لم تكن موجودة .. أو كانت نائمة .. فإن عليها أن تعود إلى أبيها فى المولد .

وقبل أن ترفع يدها لتطرق الباب .. سمعت حركة .. صوت اهتزاز فراش .. لا شك أن دلال موجودة وأنها تتقلب على الفراش .

ولكن الصوت كان منتظما .. كذلك الذى تسمعه فى الليل عندما يغلق باب الحجرة دونها .

وأرهفت السمع ..

أجل .. أجل .. إنها تميزه جيدا .. تلك الاهتزازات المنتظمة .

ولكن .. أباها غير موجود .. وهذا الصوت لا تحدثه دلال وحدها ..

ورفعت سيدة يدها وطرقت الباب .

وسكن الصوت .

ومضت فترة صمت ..

ثم تلتها حركة مضطربة ..

ثم سمعت وقع أقدام تقترب من الباب .

وعلا صوت دلال يتساءل مبحوحا متحشرجا :

ـــ مين ؟

وردت سيدة وأنفاسها تتلاحق :

ـــ أنا سيدة .

وأحست سيدة كأن تنهيدة قد انطلقت من صدر دلال وسمعت صوتها يتساءل فى حدة :

ـــ عايزة إيه يا بت ..

ـــ عايزة إيه !! عجبا ..

عايزة تدخل .. لتتلقى العلقة .. لغيابها وتأخرها ..

وعادت دلال تسأل فى حدة والباب ما زال مغلقا :

— فيه إيه يا بت ؟

« يعنى حايكون فيه إيه » ؟..

ماذا يمكن أن يكون أكثر .. من أنها تعود إلى البيت بعد غيبة طول النهار لتتلقى العلقة المنتظرة .

ومع ذلك تقف زوجة أبيها وراء الباب لتسألها .. فيه إيه .. كأنها .. مخلوق غريب .. لا ينتظر عودته أو دخوله إلى البيت ..

ولم تجد سيدة ما تقوله أكثر من :

— أنا سيدة يام .

وردت عليها دلال بآخر ما يمكن أن تنتظره صارخة فى غيظ :

— لماذا عدت ؟

لماذا عدت ؟.. إذن فهى ليست متأخرة .. وليست مذنبة .. إن غيبتها عن الدار .. ليست ذنبا .. بل إن عودتها تبدو وكأنها هى الذنب .

ولم تدر بم تجيب .. لماذا عادت ؟ لقد كانت تتمنى ألا تعود ولكن خوفها من العلقة .. هو الذى دفعها إلى العودة ..

ووفرت عليها دلال مشقة الإجابة عندما صاحت بها :

— روحى يا بت اتفرجى على المولد .

هكذا . بدل العلقة على التأخير .. تسأل لماذا عادت وتأخذ أمرا بالفرجة على المولد ..

منذ متى كانت دلال .. بكل هذا الحرص على متعتها ..

ولماذا لا تريد أن تفتح .. ولماذا هذه الأصوات التى سمعتها عندما طرقت الباب .

وسمعت صوت خطى دلال تبتعد عن الباب ولم يكن أمامها إلا أن تستدير هى الأخرى لتهبط الدرج عائدة إلى المولد . وفى رأسها دوامة من الأسئلة الحائرة .

وقبل أن تخطو لتهبط الدرج سمعت صوت ضجيج فى الحارة يقترب من باب

البيت .. أصوات مختلفة . لغط وصراخ .. عجبا .. ماذا حدث .. هذه ليلة غير معقولة ..

وأحست بخوف يملأ قلبها ..

ولم تستطع أن تعود إلى الشقة والباب مغلق دونها .

وكان عليها أن تهبط لترى سبب الصراخ والضجيج .. الذى أحست به يقترب من الباب ، ثم ينفذ إلى الفناء .. وسمعت صوت خطى تتزاحم فى الفناء وتصعد الدرج .

(٤)

وحدك .. يا سيدة !

استمرت الأقدام تصعد الدرج متزاحمة . ووقفت سيدة مسمرة القدمين . وسمعت وقع أقدام دلال تقترب من جديد نحو الباب وتصرخ فى حدة :

— فيه إيه يا بت .

وأجابت سيدة فى جزع :

— لا أعرف يام .

وأخذت طلائع الزحام تبدو على الدرج . وجوه جزعة مكفهرة . وصيحات مختلفة غير مفهومة . « يا ساتر يا رب » .. « رحمتك يا رب » .. كلها دعوات تتعلق بالرب والستر والرحمة ..

ولم تستطع سيدة أن تدرك مطلقا ماذا يمكن أن تعنى هذه الصيحات وهذا الحشد المندفع فوق السلم . وأصابها خوف شديد من خطر يوشك أن يطبق عليها واستدارت نحو الباب لتصيح بدلال :

— افتحى يام .. ناس كتير طالعين .

وانفرج الباب ببطء . وبدا وجه دلال يطل مستطلعا فى خليط من الدهشة والارتياع وهى ما زالت تتساءل :

— فيه إيه يا بت ؟

ولم تكن هناك حاجة إلى إجابة البنت فقد وصلت إلى مسامعها الصرخات المختلفة المتصاعدة من بير السلم المقتربة من باب الشقة .

وقبل أن تفتح دلال الباب أو تخرج لاستطلاع الأمر .. استدارت برأسها وهمست ببضع كلمات وكان إنسان يقف خلفها ثم صاحت بسيدة :

— تحركى يا بنت .. شوفى ماذا جرى .

وهمت سيدة من جديد بأن تخطو نحو الدرج ولكن الزحام داهمها .

والتفتت وراءها لتجد على المبيض يقف على البسطة بجلبابه الطويل وشعره الأشعث المختلط بذقنه ولحيته .

لم تعرف من أين نبت فجأة ؟

قطعا لم يكن بين الوجوه الصاعدة المتزاحمة على السلم فقد جاء من الخلف .. ولكنه لم يلبث أن اختلط فيها وتاه فى زحامها . ولم يبد على أحد من المتزاحمين أى اهتمام بأن يعرف من أين جاء أى إنسان فيهم . فقد كان اهتمامهم كله موجها إلى شىء يحملونه فوق أكتافهم مغطى بعباءة سوداء .

وفجأة انطلقت صرخة مدوية من ورائها .. وبدت دلال وقد تقدمت من الباب إلى بسطة السلم وهى ترفع ذراعيها ممتدين إلى الأمام فى حركة متشنجة « يا دهوتى » .

ونسيت سيدة كل شىء عن على المبيض وتاه فى ذهنها وسط الزحام .. من أين جاء .. ومن أين ذهب .. ولا ماذا كان يفعل .. ونسيت كل شىء عن الحركات التى سمعتها وراء الباب وسؤال دلال لها لماذا عادت وأمرها بأن تعود إلى المولد .

لم يعد هناك مكان لكل هذا فى ذهنها . أمام هذه الأشياء العجيبة المروعة التى تحدث أمامها .

الزحام .. والضجيج . والشىء المحمول على الأكتاف الملتف بالملاءة وصرخات دلال الحادة .. ووجهها المتشنج بلا دمع فى عينيها .

ودلف الذين يضعون الحمل على أكتافهم إلى الداخل واتجهوا إلى حجرة أبيها ثم سمعت قرقعة الفراش تحت ثقل يوضع عليه .. لم تشك فى أنه ذلك الشىء المحمول على الأكتاف .

وضاعت وسط الزحام ..

ولم تعرف ماذا تفعل ..

شيء مخيف لا شك قد حدث ..

وهذا الحمل الذى يحملونه والذى وضعوه على فراش أبيها .. لا شك أنه أبوها ذاته ..

ووسط الزحام أحست بيد تطبق على ذراعها وتجرها جانبا .. محاولة أن تبعدها عن الزحام ..

ورفعت رأسها فأبصرت وجه الحاج برعي وقد احمرت عيناه وارتجفت شفتاه وهو يضمها إليه قائلا :

— تعالى يا سيدة .. تعالى ..

ثم صاح بمن حوله :

— يا جماعة .. حد يأخد باله من البنت الغلبانة .

وبدأت الأيادى تربت ظهرها فى عطف .. وترددت كلمة مسكينة بضع مرات . وخرج البعض من حجرة أبيها وهم يتمتمون :

— الله يرحمه ..

وصاح أحدهم .. انخطف .. كان يسير بجوارى فى أتم صحة ..

ورد ثالث :

— ربنا أكرمه .. مات فى سبيل الله .

— مات وعلى لسانه اسم الله .. الحى .. القيوم .

إذن فلقد مات أبوك يا سيدة .. مات كهؤلاء الذين تسمعين أنهم ماتوا . مات كالحج رضوان .. والولية سنية العمشة .. وغيرهم .. ممن تردد أمامها فى الحارة أنهم ماتوا . ورأتهم يحملون فى صناديق خشبية والناس يهرولون وراءهم .. والنساء يطلقن الصرخات المدوية من أجلهم .

وأحست وهى تقف بجوار الحاج برعي وقد ضمها إلى جانبه .. كأنها تقف فى فراغ موحش .. وتملكها خوف شديد .

مات أبوك يا سيدة .. والذين يموتون لا يعودون ..

يذهبون فى ضجة .: ويخلفون الفراغ والصمت .. ويذكرهم بعض الناس بعض الوقت .. ويطلبون لهم الرحمة .. ثم تضيع ذكراهم فى زحام الحياة .. ويتوهون فى ذاكرة الزمن .. وتصبح أتفه مشاغل العيش .. أشغل للناس من أعز ذكريات الموتى .

أبوك .. مات يا سيدة ..

مات كهؤلاء الذين ماتوا فى الحارة .. والذين كنت تقفين لترقبى عملية رحيلهم .. أو ترحيلهم .. مع بقية أولاد الحارة .. كنوع من التسلية .. كالحاوى .. أو السفيرة عزيزة .. وتشاهدون زحمة الناس .. ودق عواميد الشادر .. وتسلق الرجال على قمتها لربطها وتغطيتها .

ووراء الشادر توضع النصبة .. تصنع فيها القهوة .. يقدمها رجال سود حزمت قفاطينهم البيضاء بالأحزمة الحمراء .

وعندما مات الحاج رضوان . ذبح خروف أمام البيت . وبالليل طبخوا كما يفعلون فى الأفراح .

غدا سيقف أطفال الحارة .. ليتفرجوا على موت أبيها كما تفرجت هى معهم على موت الناس .

ولكنها لن تقف معهم .. لأن أباها هو الذى مات ..

وليس مفروضا أن تقف لتتفرج .. لأن أولاد الموتى كانوا يذهبون بعيدا إلى مكان ما .

مات أبوك يا سيدة ..

« مات .. يعنى إيه ؟ »

يعنى ذهب ..

إلى أين يا سيدة ؟

لو أنها تعرف إلى أين يذهب الموتى .. لهان الأمر .. لذهبت معه .. أو على الأقل لتركته يذهب .. ثم تذهب إليه عندما تريد ..

ولكن الذين يموتون .. لا يعودون .. ولا يصطحبون معهم أحدا ..

ولا يعرف أحد أين هم .. ليذهب إليهم عندما يريد ..

مسألة .. سخيفة جدا ..

أن يذهب عنك إنسان .. يكاد يكون جزءا منك .. أو تكاد تكون جزءا منه .. إلى حيث لا يدرى .. ولا تعرف كيف تلقاه .. أو على الأصح تعرف بالقطع أنك لن تلقاه .. وينزح عنك فجأة .. ويصبح عليك أن تسلم بعدم وجوده وأن تعيش بغيره .. كأن لم يكن فى حياتك يوما ...

مات أبوك يا سيدة ..

ذهب أبوك يا سيدة .. ولن يعود .

وعليك أن تواجهى زوجة أبيك وحدك ..

ومن جديد عاودها الإحساس بالفراغ الموحش الذى تقف فيه .. لم يعد يملأ ناظرها كل هذا الزحام .. ولا يملأ أذنيها كل هذا الصياح .. فقد كان الناس أشباحا .. والصراخ صدى ..

وامتدت إليها يد أخرى تتناولها من جوار الحاج برعى ..

كانت هذه المرة .. أم عطوة .

هتفت المرأة وهى تنظر إلى سيدة فى حنان من خلال دموعها المنسابة :

— تعالى يا حبيبتى .. سآخذها عندى يا حاج برعى .

وتردد الحاج برعى برهة ثم قال :

— دعيها تذهب معى .. سآخذها عندى ..

— دعها عندى الليلة .. وخذ بالك أنت من الميتم .

— سأرسلها إلى أم عباس .. فلقد أوصانى المرحوم بألا أتركها ..

وازدرد الرجل ريقه وهو يحاول أن يغالب دمعه ثم أردف بصوت يخنقه البكاء :

— كان آخر ما قاله لى عندما سقط بجوارى فى حلقة الذكر .. خذ بالك من

سيدة .. لا تتركها وحدها .

— الله يرحمه .. كان حامل همها دائما ..

وعادت أم عطوة تجر سيدة فى رفق وهى تقول :

— دعها لى الليلة .. ستبيت مع ابنتى زينب .. وخذها غدا .. بعد أن تنتهى الدفنة .

وتراخت يد الرجل الذى يضم بها سيدة وجرتها أم عطوة إليها وهى تقول :

— اذهب أنت يا حاج برعى .. واتركها لى .

وسارت سيدة مستسلمة بجوار أم عطوة .. وهبطت الدرج حتى وصلت إلى المندرة التى تقطنها مع ابنها عطوة وابنتها زينب .. ولم تكن المندرة غريبة عليها .. فقد كانت ملجأها .. عندما يهدها اللعب فى الحارة .. وتعود إلى الشقة فتجدها مغلقة .. وتعرف أن دلال لم تعد من الخارج .. وأباها فى الحضرة .. أو فى الذكر .

كانت كثيرا ما تجلس مع أم عطوة هى وزينب لتنقى الفول الذى سينقع فى القروانة حتى ينبت فى الصباح .. لكى تحمله أم عطوة مع مشنة الفجل والكرات إلى باب الحارة .. لكى تأخذ مجلسها تحت شجرة دقن الباشا . حتى تنهى بيع المشنة والقروانة ثم تعود فى آخر النهار .

وكان ابنها عطوة الذى يعمل فى دكان الأسطى أنور السباك فى تصليح بواجير الجاز والحنفيات يعود آخر اليوم ببنطلونه الكاكى المرقع وقميصه الأسود ليغتسل ويرتدى الجلباب المخطط .. حاملا لفة السمك .. أو الجوزية .. أو أى شىء ..

وتأخذها أمه رافعة كفيها إلى السماء فى دعاء حار هاتفة :

— ربنا يفتحها فى وجهك يا عطوة .. ربنا يجيب فيك خلقه .

وكان عطوة هو رجل البيت .. بعد أن لهف أبوه تأبيدة فى قضية مخدرات وشروع فى قتل وسلسلة جرائم أخرى .

ووجدت أم عطوة نفسها هى وأولادها على فيض الله .. وكان عليها إما أن تبيع الفجل والنابت أو تشحذ على باب السيدة أو تموت من الجوع . ففضلت الأولى . وخرج عطوة من المدرسة لكى يعمل مع الأسطى أنور فى محل السباكة .

وكانت سيدة تحس بالارتياح فى شقة أم عطوة .. على الرغم من ظلمتها .. ورائحة العطن التى تفوح منها . فقد كانت تحس بالأمن فيها أكثر مما تحسه فى شقتها . لا سيما فى وجود زوجة أبيها .

وكان .. أكثر ما يسليها فى شقة أم عطوة .. عندما يعود عطوة من الشغل ويرتدى الجلباب ثم يدخل أسفل الترابيزة الذى يضعها بجوار الحائط ويدلى من فوقها ملاءة الفرش ويضع لمبة الجاز وراءها ثم يريهم خيال الظل .

كانت تجلس هى وزينب وتحية ورمضان وزينهم وبكر .. وغيرهم من أولاد الحارة لمشاهدة الظلال المتحركة وراء الملاءة وتسمع مشكاح وهو يسأل فى صوته الغليظ المتحشرج .. « هى مراتى ريمة جت عندكم ؟ » .

ويصيح الأطفال ضاحكين « لا » .

ويعود يسأل « أمال راحت فين ؟ » .

ويجيب الأطفال « راحت الزار » .

ويختفى مشكاح ثم يظهر ظل ريمة تسأل فى صوت رفيع « هو جوزى مشكاح عندكم ؟ » .

ويقهقه الأطفال « راح المولد » .

وتستمر القصة بين مشكاح وريمة .. وسيدة وأصحابها يقهقهون .. حتى يسمع صوت دلال من المنور « بت يا سيدة مش كفاياكى لعب » .

كانت ساعات ممتعة .. تلك التى كانت تقضيها فى شقة أم عطوة .. وأحيانا تشاركهم الطعام .. وعندما كانت أم عطوة تسبح الزبدة .. كانت تأكل معهم المورتة .. وتحمل بعضا منها إلى زوجة أبيها ..

وهى تهبط الآن إلى المندرة .. وصدى الصرخات فى آذانها .. وأشباح الرجال المتزاحمين فى شقتهم وعلى الدرج تتراءى أمام عينيها ..

ودفعت أم عطوة الباب . وبدت ذبالة لمبة الجاز تتراقص على المنضدة الخشبية التى تعود عطوة أن يتخذ أسفلها مسرح خيالاته . وأقبلت زينب على سيدة وقد بدا عليها الوجل والخوف ونظرت إليها فى حيرة دون أن تعرف ماذا تقول .

ووقفت الصديقتان الصغيرتان تنظر كل منهما إلى الأخرى فى وجل وصمت لا تدرى كيف تبدأ الحديث .

وتحدثت أم عطوة فقالت فى صوت حاولت جهدها أن تجعله طبيعيا بلا بحة حزن أو اختناقة بكاء :

— سيدة ستبيت معنا الليلة يا زينب .

واستمرت زينب تنظر إلى سيدة فى خوف .

لقد علمت أن أباها مات .. وهى لا تعرف ماذا يفعلون بالذين يموت آباؤهم ، وقد أفزعها الضجيج وأخافها الصراخ ، ولكنها تشعر أن سيدة مسكينة .. وتود أن تضمها بين ذراعيها وتبكى معها .

وببساطة مدت زينب ذراعيها وضمت سيدة وهى تقول والدموع تخنق صوتها :

— معلهش يا سيدة .. معلهش .

ولم تبك سيدة .. فقد كانت الدموع تبدو كأنها ضلت طريقها إلى مآقيها . والأنات ضلت طريقها إلى شفتيها . كان كل شىء فيها جافا مشدودا .. عازلا . ريقها وشفتاها وعيناها .. والصمت الكئيب الذى يحيط بها ..

لا شىء كان يجد سبيله إليها .. سوى صدى الأصوات الصارخة والأشباح المتكأكئة بحملها الملفوف بالعباءة السوداء .

ودخلت الحجرة التى ينامون فيها . على اليمين يقوم الفراش ذو الأعمدة الحديدية السوداء الذى كانت تلعب هى وزينب أسفله وعلى اليسار أريكة

منخفضة ينام عليها عطوة .

وتساءلت أم عطوة :

ـــ أجيب لك لقمة تتعشى قبل ما تنامى يا سيدة .

وهزت سيدة رأسها .. فقد كانت لا تريد أن تفعل شيئا أو تقول شيئا .

وعادت أم عطوة تلح :

ـــ حاتنامى من غير عشا .

ولم تعرف سيدة ما إذا كانت ستنام بدون عشاء . أم أنها تعشت . لقد طمس من ذاكرتها كل ما فعلته خلال اليوم إلا اللحظات ذات الضجيج والصراخ والزحام على الدرج . والحمل الملتف بالعباءة السوداء فوق الأكتاف .

وصعدت الفراش فقد وجدت أن هذا خير ما تستطيع أن تفعل بل هو كل ما تستطيع أن تفعل وانزلقت على المرتبة حتى وصلت إلى الحائط وتكورت تجاه الحائط حتى كادت ركبتاها تمسان ذقنها وأغمضت عينيها ولكن بدا كل شىء مضيئا .

لم تستطع أن تسدل جفنيها المطبقين ستارا يحول بينها وبين هذه الأشباح المتزاحمة .. الصاخبة الصارخة ، ولم تجد فارقا بين ما تراه وهى مفتوحة العينين وبين ما تراه وهى مغمضتهما .

واستمر كل شىء يدور كما هو .. الزحام على الدرج .. والأصوات الصارخة .. والدعاء بالستر والرحمة .. وربنا أكرمه .. مات فى بيت الله .. و .. و .. إلخ .

حتى غلبها النعاس ..

ولم تعرف متى غلبها النعاس . ولكنها تعرف أن المناظر المحددة .. والصرخات المعروفة .. قد تحولت إلى أشياء مبهمة مشوشة .. ورأت نفسها فى أماكن غريبة .

مرة فى حفرة فى تلال زينهم .. مع على المبيض .. وعساكر سود يطاردونهما

بالسياط وهى تعدو مرتاعة فى فزع .

ومرة تصعد المنحدر المتفرع من سكة المدبح .. وأبوها يناديها .. وأعلى المنحدر .. تسمع طبولا .. وأزيز مراجيح .. كأن هناك مولدا . وتستمر فى الصعود حتى يغيب صوت أبيها .. وفوق المنحدر تجد فراغا موحشا .. لا مراجيح .. ولا طبول .. ثم تسمع فجأة أصواتا مدوية .. وترى أشباحا تعدو من وراء المنحدر .. وتجد على المبيض يحمل دلال .. والناس تصرخ وراءهما .

ومرة أخرى تجد نفسها منكبة على البساط المقلوب تدعكه بغطاء الحلة .. وتجد عباس يقرصها من صدرها فتصيح به .. ولكن وجهه ينقلب فإذا به على المبيض .

وأشياء كثيرة متداخلة . مراجيح تلف بها . وطبول تدق حولها . وفول نابت . وعلى لوز .. وماكينة قص الورق تدور بسرعة منقضة على أصابعها .

وأخيرا .. وبعد نوم .. امتلأ بأحداث اليقظة .. انتفضت من نومها .. على صرخات تدوى مع نور النهار .. لتعرف من أم عطوة أن أقارب لأبيها ـــ لم تسمع عنهم ـــ قد أتوا للعزاء . وأدركت أنهم يتبادلون الصوات مع دلال ..

ومن باب الصالة .. أخذت تبصر أقداما تصعد وأقداما تنزل .. وسمعت صوت بهنسى يقول :

ـــ يا جماعة خلصونا .. عايزين الشهادة من الصحة .

وصوت الأسطى أنور السباك يرد عليه :

ـــ قالوا ستأتى حالا .

وعاد بهنسى يقول :

ـــ إذن ادخلوا المغسل .

ورد عليه أنور ناهرا :

ـــ مستعجل على إيه .. وراك الديوان ؟

ـــ بقول نلحق الطراوة .. قبل الشمس ما تحمى .

وفجأة دخل عطوة يلهث وهو يقول :

— خلاص .. الشهادة جت .

ووجدت رجلين طويلين يحملان شيئا كالمنضدة ثنيت قوائمها الأربع المتحركة والتصقت بها حتى بدت كأنها مجرد قرص خشبى واندفعا إلى السلم وهما يتساءلان :

— ها .. نبتدى ..

وأجاب أنور السباك :

— اطلعوا ..

ثم تساءل :

— حد حضر لهم اللوف والصابون ؟

ورد عزوز المنجد :

— كله جاهز فوق .. الدرج جاهز .. وكله .. كله .. ورفع يده إلى السماء مرددا :

— الله يرحمك يا جابر .. قرفتك خفيفة . حتى فى موتك .. والله الحاجة ما استحملت منى نص ساعة . كل الأبواب كانت متفتحة فى وشى . يا رب اكرمنا ..

ومن النافذة السفلى تحت سيدة الصندوق الخشبى الفارغ . هذا هو الشىء الذى حملوا فيه كل من ماتوا ..

وضعوهم كلهم فى مثل هذا الصندوق .. ولفعوهم على أكتافهم .. وطاروا بهم .. وعادوا خفافا وكأنهم أزاحوا عبئا من فوق أكتافهم ..

وأبوك يا سيدة .. سيوضع هنا .. وسيرمحون به إلى حيث لا رجعة .. إلى أين يا ترى ؟

وسمعت صوتا يصيح وكأنه يرد عليها :

— حانمشى من السد على السيدة لغاية القلعة وبعدين على المجاورين .

ولم يبد الرد مفيدا لها ..

ماذا يهمها هى أن يسيروا من السد إلى القلعة إلى المجاورين ..

إنها تريد أن تعرف أين سيذهبون به .. سيدفنونه يا سيدة .. كما دفنوا غيره ..

هكذا قالوا :

ولماذا لا يأخذونها معه ؟..

لن يرضوا بالطبع .. لأنها لم تمت .

ولماذا لا تموت ..

ومن أين لها أن تعرف .. لماذا مات أبوها . ولماذا لم تمت هى .. ولماذا لم تمت دلال مثلا ..

لماذا يموت البعض .. ولا يموت البعض الآخر .

ومن النافذة أبصرت .. الصبية والبنات يتجمعون ليتسلوا بمشاهدة المنظر .. كما كانت تفعل هى ..

يقفون ليرقبوا كل شىء .. ولا شىء .. ناس يدخلون وناس يخرجون . ولغط وصرخات . وبجوار الجدار بدت عروق ملوخية .. ومصاصة قصب وبقايا طماطم وقطة تشم كوم القمامة — ومقاعد مرصوصة أمام البيت يجلس عليها بعض الناس رءوسهم مطأطأة وفى أيادى بعضهم مسابح تنزلق حباتها بين أصابعهم .

وسمعت الضجيج يزداد على الدرج .. وانطلقت بضع صرخات مدوية .. وأقبلت عليها أم عطوة تسحبها من يدها وتجرها إلى الداخل والدموع ملء عينيها :

— تعالى يا سيدة .. تعالى يا حبيبتى .

ولم تجد سيدة فى نفسها رغبة فى الدخول .. كانت تريد أن ترقب ..

إذا كانت قد شاهدت رحيل كل هؤلاء الذين ماتوا .. ألا تشاهد رحيل

أبيها ؟..

إنه ليس مسليا .. كرحيل الآخرين .. إنه يشد كل شيء فيها ويطبق عليها .. يجفف ريقها .. وشفتيها .. ويشد جلدها .. والهواء من حولها .. ولكنها تريد أن تراه ..

إنها لا ترقبه فى استرخاء وابتسامة قد تعلو شفتيها وكلمات قد تتبادلها مع أحد الصبية .. كما يفعل هؤلاء الذين يقفون خارج الدار بجوار البيت المقابل .. ولكنها ترقبه مشدوهة فى تحفز شديد .. وكأنها توشك أن تفعل شيئا .. تقفز مثلا لتخطف أباها من الصندوق الخشبى الذى سجنوه فيه .. وتعدو به إلى حيث لا يعرفون .. وإلى حيث تعرف هى وحدها .. بدل أن يأخذوه إلى حيث يعرفون ولا تعرف هى ..

أو .. تقفز لتستقر بجواره .. وتضمه إليها .. كما ضمته آخر مرة عندما رفعها من إبطيها بين ذراعيه وضمها إليه فغرست وجهها فى شعر لحيته البيضاء النظيفة ..

كانت تحب حضنه دائما ..

فلماذا لا تقفز لتضع نفسها بين أحضانه ..

وعادت أم عطوة تهتف بها فى إصرار :

ـــ ياالله يا ستى .. ياالله يا حبيبتى .. ادخلى مع زينب فى الحجرة .

وهزت سيدة رأسها ، وكان هذا أقصى ما تستطيعه .

ـــ ليه يا حبيبتى .. حاتشوفى إيه بس .

ثم نظرت إلى ابنتها زينب قائلة :

ـــ خديها يا زينب وادخلى إلى الحجرة .

ومدت زينب يدها وأمسكت بذراع سيدة . ولكن سيدة لم تتحرك ولم تلتفت يمنة أو يسرة بل ظل بصرها معلقا بالدرج .

ولمحت الصندوق الخشبى يحمل فارغا إلى أعلى .

ومرة أخرى انطلقت بضعة أصوات حادة ..

ثم سمعت طرقات متوالية .. كأن شاكوشا يدق مسامير .. دقتين .. ثم دقتين .. ثم ثلاثا .. ثم ساد الصمت ..

وانطلقت بضع صرخات ..

ثم بدأت همهمات وأصوات قراءة .. أخذت تتعالى رويدا رويدا .. كأنها أصوات القراءة التى تسمعها من وراء النوافذ فى مقام الماوردى .. وخفتت القراءة .. وتعالت الصرخات ..

وأخذت الأقدام تتزاحم هابطة من الدرج .. وتدافع أهل الحارة إلى الخارج .. وبدا الصندوق الخشبى ملفوفا فى قماش منقوش ينحدر من الدرج على أكتاف كتل بشرية متحركة .. تتنافس على حمله ..

وسار من الفناء إلى الطريق .. وازداد التزاحم من حوله بتدافع أهل الحارة بالمناكب كل يبغى ثواب حمل النعش .

وصاح بهنسى فى مجموعة الصبية والبنات ودفعهم بيده صارخا :

ـــ ياالله يا واد منك له .. هى فرجة ..

تماما .. كما كانوا يفعلون معها وهى تقف لمشاهدة مواكب الموتى .

كانت تراها وقتذاك فرجة .. وأى فرجة !.

وأخذ الموكب يتجه إلى الشارع .. وبدا أهل الحارة كلهم .. قد اندفعوا وراءه .. بين حامل ومشيع ..

دموع الرجال تنحدر فى صمت من عيونهم ..

وأصوات النساء تنطلق بلا دموع من حلوقهن .. وأحاديث طويلة تروى عن جابر الأمير الطيب .. الودود .. الوديع .. الذى لم يؤذ أحدا ولم يدس على طرف أحد .

ويغلب كل هذه الأصوات .. صوت دلال ..

بكل ما تملك من قدرة ـــ سيدة أدرى الناس بها ـــ على الصراخ .

ولم يفد كل هذا فى شيء ..

لقد تحرك الصندوق بحمله .. لم توقفه الدموع !. ولا الصراخ ..

ولم تفعل سيدة شيئا .. سوى الحملقة المشدوهة . لم تحمل الصندوق وتطير .. ولم تقفز إلى داخله .

وبدأ الصندوق يختفى .

وهمت سيدة بالاندفاع وراءه .. ولكن يد أم عطوة أمسكتها فى حزم :

— لا .. مافيش خروج أبدا ..

نظرت سيدة إلى الموكب .. يتسرب بحمله .. والأصوات تخفت ..

ذهب أبوك يا سيدة ..

ولن يعود .. ولن تستطيعى الذهاب إليه ..

وعليك يا سيدة أن تواجهى دلال وحدك ..

بل الدنيا كلها وحدك ..

(٥)

ألا تحبّين الموز ؟

انتقلت سيدة إلى بيت الحاج برعى . فقد أصر الرجل على تنفيذ وصية صاحبه جابر الذى هتف به قبل أن يموت بين ذراعيه « خد بالك من سيدة .. لا تتركها وحدها » .

ولم يجد برعى صعوبة فى أخذ سيدة .. إذ لم يكن هناك فى الدنيا من يتمسك بها . فقد انطلقت دلال من البيت بعد وفاة جابر لحال سبيلها . ولم يكن هناك مكان لسيدة فى هذا السبيل .. ولا حاجة لها بها .

ولم يحاول الأقارب الذين ظهروا فجأة .. وأطلق نساؤهم بضع صرخات أن يعرضوا مجرد إيوائهم لها . بعد أن اتضح لهم أن جابر لم يخلف شيئا مفيدا .. ولم يكونوا هواة عطاء بلا أخذ .

وسرعان ما انطلق كل منهم إلى حال سبيله ..

واستقرت سيدة فى بيت الحاج برعى ، أو على وجه أصح .. فى بيت أم عباس .

ومنذ ذلك اليوم فقدت سيدة حريتها .. ولم تكن تعلم من قبل أنها أثمن ما يمكن أن يمتلك إنسان .. بعد اللقمة .. والهدمة .

وليس أجمل من أن تخلو لنفسك .. لتجد نفسك حرا فى أن تفعل بعض ما تشاء لبعض الوقت .

ولم تكن سيدة تطمع فى أكثر من هذا .. كانت مع أبيها ودلال .. تجد فسحة من الوقت تفعل فيها ما تشاء .. وأبوها فى العمل أو فى الذكر .. ودلال مشغولة بزينتها .. أو منطلقة خارج الدار .. وهى تمارس سيادتها على نفسها ..

وسلطانها على وقتها .. وحريتها .. فى أن تفعل ما تريد بهذا الوقت .. تلعب .. وتجرى .. وتغنى .. وتتحدث .. وتستمع إلى حديث الغير .. أو تصمت .. وتسرح .. أو تنام .. أو تعمل أى شيء من هذه الأشياء التى لا تحتاج إلى نقود .. والتى لا تتطلب منها أى ثمن .. سوى أن تفعلها .

ولم يكن يخطر ببالها أنها ممكن أن تحرم من هذه الأعمال .. البسيطة .. التى تعتبر جزءا من الحياة .. والتى لم تكن تضر بها أحدا ..

ولم تشعر خلال الأيام الأولى من انتقالها إلى بيت الحاج برعى .. أن شيئا قد انتقص من احتياجاتها .. وأن حريتها فى ممارسة حياتها البسيطة قد ضاعت .

كانت الوفاة ما زالت ساخنة .. وعطف الناس من حولها — ومن بينهم أم عباس نفسها — ما زال حارا .. وكانت نظرة الإشفاق .. ومصمصة الشفاه .. وتمتمات الأسى .. هى نصيبها من معاملات الغير ..

وكانت بلا شك أهلا .. لهذه المعاملة .. شكلا وموضوعا .. أما الشكل .. فقد جعلتها صدمة أحداث الوفاة .. شاردة النظرات .. مطأطئة الرأس .. بمنظر الجسد المحمول على الأكتاف .. يلاحق عينيها .. والصرخات تشق صمت الليل .. تلازم أذنيها .

كانت مأخوذة بما حدث .. بكل ما فيه من مناظر مفاجئة صاخبة .. غير مألوفة .. منذ أن طرقت باب البيت وسمعت هزات الفراش ثم خطوات أمها وراء الباب وهى تهتف بها حانقة « لماذا عدت » .. حتى خرج الصندوق من باب الدار .. وتسرب فى الطريق مشيعا وسط الزحام بالصرخات .

ولم تكن تشعر أنها تريد أن تفعل شيئا سوى الصمت .

وكانت حريتها فى الصمت .. فى بضعة الأيام الأولى .. مكفولة .. بكل ما يحركه شكلها الذليل المشدوه .. من عطف .. وبكل ما يثيره يتمها وضياعها .. من رثاء وشفقة .

ولكن حرية الصمت .. والشرود .. والانزواء .. لم تلبث أن ضاعت ..

وبدأت نظرات الشفقة تمحى وتمتمات الرثاء تخفت .. ولم تعد تشغل بمصابها أحدا .. بل بات وجودها هو ما يشغلهم .

بل حتى وجودها .. بدا وكأنه لا يشغل أحدا .. سوى أم عباس .. كمسئولة عنها .. ومستفيدة بوجودها .. أو على وجه أدق .. كمستفيدة بوجودها أولا .. فقد كان ذلك هو أساس تعامل أم عباس معها .. فقد كانت مسئوليتها عنها .. نابعة من استفادتها منها .. أولا .. وقبل كل شيء ..

انتهت حريتك يا سيدة .. وبات عليك أن تعملى لكى تعيشى ..

لقد أخذك .. الحاج برعى .. فى رعايته .. كما أوصاه أبوك .. ولكن أم عباس .. لا تعترف بعملية الرعاية .. وبات عليك يا سيدة أن تعملى — على حد قول أم عباس .. لما تتقور عينك .. لكى تأكلى لقمتك .

ولم تكن سيدة تظن أن اللقمة يمكن أن تكلف مثل هذا الجهد .. لقد باتت تتمنى لو أضحت فى غنى عن هذه اللقمة .. فهى بغير جدال .. لا تستحق كل هذه المشقة .. وهى ليست لقمة حقيقية .. وإنما بقايا لقمة .. ومع ذلك فلم يكن لها بديل .. فهى لا تعرف .. من دنياها الآن .. سوى هذا المكان .

مرت الأيام .. وانتهى انفعال المصاب — ومصاب الآخرين لا يوجعنا أكثر من لحظات ثم تجرفه من نفوسنا أبسط متاعبنا .. ذات صباح استيقظت سيدة برفسة فى ظهرها .. وهى ترقد مفترشة حصيرا صغيرا فوق بلاط المطبخ . وسمعت صرخة تأتى من فوقها من شفتى أم عباس .. وهى تطل عليها بجسدها الطويل العريض المنكبين كأنها خفير الدرك لتصيح بها ناهرة :

— ألم يكفك نوم .. كل يوم تحتاجين إلى من يوقظك ..

وفى لهجة حاسمة أردفت صائحة :

— انهضى .. خدى الطبق وهاتى بقرش فول من عم منصور .

وجلست سيدة فوق الحصير تدعك عينيها وفردت ذراعيها لتتمطى ولكن قبل أن يصل تمطيها إلى نهايته شعرت بيد أم عباس تمتد لتقبض عليها من شعر رأسها

وتجذبها إلى أعلى .

وتطايرت بقايا النوم وكسل الاستيقاظ من عينى سيدة وأطرافها . ووجدت نفسها تقف على قدميها أمام أم عباس التى أخذت تستحثها :

— يالله يا بت .. آخر مرة اصحيكى .. خدى الطبق وانزلى بسرعة ..

وتناولت سيدة الطبق .. وكان الوقت ما زال مبكرا .. لم يستيقظ أحد من أهل البيت سواها وأم عباس . أما عباس والحاج برعى فكان كل منهما ما زال فى غرفته . وحاولت أن تدس قدميها فى القبقاب الذى وضعته وراء باب المطبخ ولكن أم عباس جذبتها من ذراعها لتدفعها إلى الخارج فى عجلة :

— فوتى من غير قبقاب ..

ثم تساءلت فى لهجة ساخرة :

— والا على رجليكى نقش الحنة .

ولم يكن على رجليها نقش الحنة .. ولا كانت فى نفسها لهفة على لبس القبقاب وإنما كانت تلبسه بحكم العادة عندما كانت فى بيت أبيها ..

وانطلقت سيدة تهبط الدرج خائفة .. بالطبق فى يدها .. والقرش فى اليد الأخرى .. وبدا الزقاق خاليا .. إلا من عبده عامل المطبعة وقد انتهى من كنس المطبعة وبدأ عملية الرش بالخرطوم أمامها . وبدأها عبده بالتحية هاتفا فى بشاشة ومرح :

— صباح الخير يا سيدة ..

— صباح الخير يا عم عبده .

— إيه صحاكى بدرى .

— حاشترى الفول .

— ولماذا لا يشتريه عباس .. والا عامل بيه .

ولم تكن سيدة تعرف أن عباس عامل بيه .. وإنما كانت تعرف ببساطة أنه نايم . فردت وهى تتجه إلى الشارع :

— لسة نايم .

وسمعت صوت عبده يصيح من ورائها :

— لا شغلة ولا مشغلة .. لا مدرسة ولا شغل فى الورشة .. أمه مدلعاه .. وأبوه زهق من ضربه .. الله يرحمك يا جابر . كنت شايل المطبعة على كتفك .. لن يجد الحاج برعى صنايعى مثلك أبدا .

ووصلت سيدة إلى شارع السد ، وبدت معظم الحوانيت ما زالت مغلقة والبعض ما زال أصحابها يمارسون عملية الكنس والرش .

عم حزين الجزار يعلق بقايا خراف يخرجها من الثلاجة ليشبكها فى الخطاطيف ورجل بذقن وطرطور ومبخرة يديرها فى يده والدخان يتصاعد منها يلف من حوله ويطلق صيحات غير مفهومة . ولا ينصرف حتى يضع حزين المليم أو النكلة فى يده . صائحا به :

— كفاية يا شيخ متولى .

وحانوت المانيفاتورة ما زال مغلقا .. ومحمود المزين لم يفتح بعد .. ولا عبد ربه الفكهانى . الذى بدت الصناديق الخشبية والأقفاص خاوية أمام حانوته ..

على الفطاطرى هو الوحيد الذى بدأ نشاطه .. أوقد الفرن .. وأخذ يقسم كتلة العجين قطعا فى حجم قبضة اليد يقلبها فى الزيت ويرصها متجاورة قبل أن يبدأ فى فردها ونشرها بين يديه رقاقة كالورق .

وتوقفت سيدة أمام الرجل الربعة المتأرجح بجذعه الأعلى يمنة ويسرة .. وتمنت أن يبدأ عملية الفرد والنشر .. فقد كان صنع الفطير إحدى العمليات الجذابة لديها . وكانت دائما تتلهف على إحداها بوجهها اللامع الذى لفحه الفرن . ولكنها كانت تقنع من اللهفة بمجرد المشاهدة . كانت الفطيرة بقرش كامل . ولم يكن من السهل أن يتجمد لديها هذا المبلغ ولم يكن لديها الصبر لكى تحوش ثمن الفطيرة فقد كانت الأشياء الصغرى .. كبراغيت الست ونبوت الغفير واللب والسودانى وغيرها مما يمكن شراؤها بالملاليم .. أشد جاذبية من أن

تتركها توفر ثمنها حتى يتجمع لشراء فطيرة .

ثم .. هذا كان فى زمن مضى .. عندما كانت .. تأخذ الملاليم من أبيها وهو يهبط الدرج قبل ذهابه إلى الورشة دون أن تراها دلال .. ولكن الآن من الذى سيعطيها هذه الملاليم . ربما لو طلبت من الحاج برعى يعطيها . ولكنها تخجل من أن تطلب . وأم عباس لا يبدو عليها أبدا .. أنها ستعطيها شيئا مفيدا أو ممتعا بهذا الموقف السيادى العدائى الذى تقفه منها والذى بدأ اليوم .. بالرفسة والنهر والسباب .

وعباس لا يبدو قاسيا .. ولكنه أيضا لا يبدو مفيدا .. إلا لنفسه .. فهو دائما .. يريد .. لم تسمعه إلا طالبا شيئا .. لم تره أبدا يعطى ..

ما عليك يا سيدة .. المهم أن يتركوك فى حالك .. ولو لبعض الوقت .. تذهبين إلى الحارة لتلعبى مع زينب وبقية الأولاد . فمنذ أن تركت الحارة وأنت مخزونة فى البيت .. تكنسين وتمسحين أو تغسلين .. أو تجلسين فى صمت لترقبى أهل البيت أو ضيوفهم .. يتحدثون عن أشياء لا تعرفينها ولا يهمك أن تعرفيها .

لم تنطى الحبل منذ مدة .. ولا لعبت الحجلة .. وزقاق المطبعة يبدو خاويا .. ليس فيه أولاد يلعبون . لا يدخله سوى ناس يحملون كتبا أو عربات تحمل ورقا .. أشياء لا تهمك أبدا ..

وبدأ على الفطاطرى يفرد الرقاقة .

متى ستأكلين الفطير يا سيدة .. لقد كانت لديك فرصة وأبوك موجود .. أما الآن .. فقد أضحى الأمر مستحيلا .. اللهم إلا إذا اشترى الحاج برعى فطيرا .. وأعطوك منه .

ولكنها لا تتوقع من أم عباس خيرا .. أبدا .

لم تكن أم عباس تمنحها فرصة الخيار فى الأكل . كان كل أكلها طبيخ .. فى الظهر تغرف لها الطبيخ فى طبق صاج غويط زالت عنه معظم قشرته البيضاء .. ولم تبق إلا أرضيته السوداء .. ولقد خصص لها هذا الطبق بحيث أصبح طبقها ..

تضع لها أم عباس مغرفة الطبيخ فى قاعه وتغطيه بأحد الأرغفة الرجوع التى أرسلتها لشرائها من سوق العصر . وتضع لها مع الطبيخ أحد العروق أو قطعة من الشغت التى كانت تصر على إحضارها من المعلم حزين فوق اللحمة والتى يلملمها الرجل من بقايا الشغت فوق الأرمة .. ويقطع لها بعض العروق البيضاء من اللحم المعلق ثم يلفها فى ورقة باعتبار أنها « أكل القطة » .

لم يعد هناك أمل فى الفطير .. أو فى غيره من أنواع الطعام الذى كانت تلتقطه من دلال .. والذى تعود أبوها أن يحضره معه عند عودته فى المساء كالسمك .. أو لحمة الرأس .. والسجق . فلقد اقتصر أكلها منذ أن حلت بمقرها الجديد على الطبيخ ظهرا ومساء وصبحا .. ولم يعد لها مفر من أكل السمن المجرمز والرز البايت فى الحلة المجنزرة .

وأحست سيدة أن الوقت يمر بها وهى تقف أمام حانوت الفطير فانطلقت تعدو إلى عم منصور .. فقد كانت تعلم أن التأخير على أم عباس لن يغتفر بسهولة .. وهى فى ضربها لا تضرب كامرأة ولكن كرجل قوى قاس .

كانت دلال تضربها وتقرصها .. وتزغدها .. ولكن رفسة أم عباس وشدة شعرها كانت شيئا آخر ..

ووقفت أمام حانوت عم منصور . القدرة النحاسية مائلة على الحامل المستدير المحيط بوابور الجاز .. والبخار يتصاعد منها والكبشة فى يد عم منصور متحركة .. يدخلها فى جوف القدرة ليملأ بها الصحون والسلاطين التى تتدافع بها الأيدى الممتدة أمامه . يتناول الصحن الفارغ ويسلمه مليئا ويتناول القرش ليضعه فى طبق أمامه .

والصينية النحاسية المعرجة الحرف تتوسد الطعمية المرصوصة فوقها فراش من أعواد البقدونس الخضراء والطاسة بجوارها يغلى فيها الزيت وتطشطش فيها الطعمية وهى تهبط على سطحها ورائحتها المغرية تملأ الخياشيم .

وصاحت سيدة وهى تملأ خياشيمها برائحة الطعمية :

بقرش فول يا عم منصور .

ودفعت بالطبق محاولة أن تدس نفسها وسط بقية المتراصين أمام القدرة .

وصاح بها منصور :

— انتظرى يا بت .. بلاش صريخ .

وعادت سيدة تنظر إلى الصينية الملأى بالطعمية .

لو أن معك مليما يا سيدة لاستطعت أن تشترى طعميتين وتأكليهما وحدك .

مليم يا سيدة ..

لو كان أبوك موجودا .. لكانت الطعمية الآن ملء فمك .

ولكن لماذا لا تمد يدها وتأخذ واحدة . إن أحدا لن يحس بها .. فالكل مشغول بأمره .. منصور مشغول بغرف الفول فى الأطباق وصبيه مشغول بقلى الطعمية .. والأولاد الذين حولها لا يكادون يأخذون الطبق من يد منصور ويعطونه القرش حتى ينطلقوا إلى حال سبيلهم ..

مدى يدك يا سيدة إلى الصينية ولا تخافى .

ولو رآك أحد .. فماذا يفعلون بك ..

يضربونك ؟.. يا ريت .. إنهم سيسلمونك إلى العسكرى .. والعسكرى يذهب بك إلى القسم .. ولا تعرفين ماذا سيكون مصيرك بعد ذلك .

لا يا سيدة .. لا داعى للمغامرة .

ومدت يدها مرة ثانية بالطبق صائحة :

— أعطنى بقى يا عم منصور .

— انتظرى يا بت شوية .. عندما يأتى دورك .

وعادت رائحة الطعمية تنفذ إلى خياشيمها .. نفاذة رائعة .

مدى يدك يا سيدة وخذى واحدة ..

أجل هكذا .. ارفعى يدك حتى تصل إلى حافة الصينية .

لن يقول لك أحد شيئا فأنت تسندين يدك على الصينية ..

انتظرى قليلا .. حتى ترى كيف أحس بك من حولك .. حسنا .. لا أحد يشعر بك مطلقا .

مدى أصابعك المسنودة على حافة الصينية .

أجل .. هكذا .. لقد مست أصابعك الطعمية .. ولا أحد يحس بك أو يشك فى أمرك .

أنت تسندين يدك على الصينية وأصابعك مفرودة .. ومست الطعمية .. ماذا فى ذلك ؟

بالكتير .. سيقول لك منصور أو صبيه :

« ابعدى أصابعك يا بت عن الطعمية » .

وتبعدين أصابعك .. وانتهينا .

ولكن أحدا .. لم يقل شيئا .. الكل مشغول عنها .. وأصابعها ما زالت تمس أقراص الطعمية ..

الآن تستطيع أن تحرك أصابعها وتسحب بها ما تصل إليه من أقراص الطعمية الثمينة .. تمسك بها فى قبضتها .. وتستطيع بعد ذلك أن تخفيها فى يدها بسهولة .. دون أن تأتى بأية حركة مثيرة للظنون والشبهات .

وانزلقت أقراص الطعمية من أصابعها إلى كفها . واستمرت كفها مغلقة بما فيها على حافة الصينية الصفراء .

وصمتت برهة ونظرت حولها .. والطعمية فى قبضتها الصغيرة .

لا أحد يراك يا سيدة ..

اسحبى يدك إلى أسفل .. بحملها الثمين بين أصابعك ..

وإذا ضبطك أحد .. والطعمية فى يدك .. بعيدا عن الصينية ؟

اتركيها تفلت من يدك .. وكأنها سقطت عفوا من حركة يدك .. أجل .. أجل .

هيا يا سيدة .. اسحبى يدك ..

رويدا .. رويدا ..

أجل .. هكذا ..

أقراص الطعمية قد أضحت فى يدك يا سيدة .. ملكك وحدك .. لا شريك لك فيها .. تستطيعين أن تلتهميها كلها .. حاف .. بغير عيش .

وأطبقت سيدة بأصابعها على الطعمية .. وعادت تصيح :

— يالله يا عم منصور .

وتناول منصور الطبق من يدها . وملأه بالفول ثم أعاده إليها بعد أن أخذ القرش .

ولم تطلب زوادة .. فقد كانت تريد أن تنطلق بسرعة .

وسارت سيدة بالطبق فى يدها .. واليد الأخرى تطبق على الطعمية .

وعبرت شارع السد إلى الجانب الآخر الذى به الزقاق .. وعلى الرصيف الآخر .. أحست بالأمان ..

تستطيع الآن أن ترفع أحد الأقراص .. إلى فمها .. دون أن تخشى شيئا .

ولكن .. لماذا لا تبقيها حتى تتناولها بالرغيف بدلا من الطبيخ البايت ذى السمن المجرمز .

ولكن ماذا تقول إذا أبصرتها أم عباس فى يدها ..

ولماذا تريها لها .. إنها ستخفيها حتى تجلس لتأكل وحدها فى المطبخ .

ووصلت إلى البيت وصعدت السلم ..

وعلى باب الشقة وجدت أم عباس وقد اكفهر وجهها وبدا عليها الغضب وصاحت بها :

— أين كنت .. كل هذا الوقت ؟

— عند عم منصور .

— سنة .. عند عم منصور ؟

— كان عنده زحام .

وتناولت أم عباس طبق الفول ونظرت إليها فى مزيد من الغضب :

— بكم هذا ؟

— بقرش .

— هذا أقل مما تعودنا أن نحضره .. لا يمكن أن يكون بقرش .

— والله العظيم بقرش .

ووضعت أم عباس طبق الفول على المنضدة ثم جذبتها من يدها .. وجرتها إلى الداخل .

— كل هذا الغياب .. ثم تعودين بهذا القدر من الفول ..

وصرخت فيها وهى تلكمها فى ظهرها لكمة جعلتها تنكفئ على وجهها وجعلت الطعمية تفلت من يدها .

ولم تكد أم عباس تبصر أقراص الطعمية تتدحرج على الأرض حتى انقضت عليها صارخة .. كأنها اكتشفت جريمة كبرى :

— إذن فقد اشتريت طعمية لنفسك وسرقت ثمنها من قرش الفول .

وصاحت سيدة باكية :

— أبدا والله العظيم .

— أبدا يا حرامية .. إذن من أين أحضرت الطعمية ؟

ولم تعرف سيدة كيف تجيب فقد كان الأمر كله مفاجأة لم تستعد لها ولم تجد أمامها سوى الإجابة الساذجة :

— عم منصور أعطاها لى فوق الفول .

وازداد هياج أم عباس وهى تجد نفسها تكتشف سلسلة جرائم .. من السرقة والكذب . وصاحت وهى تمسك سيدة من شعرها :

— منذ متى عم منصور بيفرق طعمية .. يمكن عاشقك .

وهوت عليها بصفعة من يدها الثقيلة كالمطرقة .

وصرخت سيدة .. واندفع عباس من حجرته متسائلا :

— ماذا حدث يام .

وأتى صوت الحاج برعى محتدا من الحمام :

— مالك يا أم عباس .

وصاحت أم عباس :

— اللى تنغدر سرقت ثمن الفول .. وجابت به لنفسها طعمية .. أصلنا ناقصينها .. مش كفاية أويناها .. ولميناها .

وتدخل عباس متسائلا :

— أنت سرقت ثمن الفول يا سيدة ؟

وردت سيدة باكية :

— أبدا والنبى .

وصرخت أم عباس محتدة :

— والطعمية .. من أين أتيت بها ؟

وتلجلجت سيدة .. بعد أن أدركت أن حجة منحها إياها بواسطة عم منصور لن تكون مجدية .

وأجابت محاولة أن تقول شيئا :

— أصل .. أصلى ..

وتساءل عباس ناهرا :

— أصلك .. إيه ؟

وأعياها التفكير ولم تجد ما يسعفه بها ذهنها سوى العذر الأول فعادت تردده فى إصرار قائلة :

— أصل عم منصور .. أعطاها لى .

— عم منصور أعطاك الطعمية .. فوق الفول ؟

وهزت رأسها بالإجابة والدموع تنزلق على خديها .. وبدأ الغيظ ينتقل من

أم عباس إلى ابنها .. وهتف بسيدة وهو يمد عنقه من فتحة الجلباب ويرفع يده مهددا :

— يا بنت الكذابة .. قولى الحق .

— والله العظيم .. والنبى يا سى عباس .

وهوت صفعة ثانية من كف أم عباس وهى ترى إصرار سيدة على الكذب وصاحت بها :

— نبى ما يتشفع لك .. يا نورية .

وعادت سيدة تقسم .. وهى تشعر أن مصيرها قد بات معلقا بقدرتها على القسم .

— والقرآن الشريف .

وبدت المسألة لعباس كأنها معركة عناد فاندفع إلى سيدة يجرها من يدها إلى الباب قائلا :

— تعالى ..

وصاحت أمه متسائلة :

— إلى أين ..؟

— سأذهب بنفسى إلى عم منصور .. وأسأله .

وقعت يا سيدة !!

نهارك اسود ومطين على دماغك يا سيدة ؟..

هذا الأحمق المندفع .. لو سار بها حقا إلى عم منصور .. ليسأله هل أعطى لها الطعمية فسيودى بها فى داهية . لن تعود المسألة مسألة كذب .. أو انتقاص من ثمن الفول لتحضر لنفسها طعمية بمليم أو مليمين . ولكنها ستصبح سرقة .. وسيذهبون بها إلى القسم والسجن ..

ولن تقتصر الفضيحة على بيت الحاج برعى وأهله .. بل ستتعداهما إلى الشارع كله.واستمر الأحمق يدفعها أمامه فى تحد وإصرار وهو يهتف فى غيظ ..

— سأرى كيف يفرق عم منصور الطعمية .. يا كدابة يا بنت الكدابة ..

وصاحت أمه به تحاول أن ترجعه عن اندفاعه .

— تعال يا عباس .. ليس لدينا وقت لكل هذا .. سأعرف كيف أربيها .. سأعرف كيف أقور عينها ..

ولكن عباس لم ينصت إلى أمه .. بل ظل يدفع سيدة أمامه على الدرج حتى وصل إلى الزقاق . وعلى باب البيت وقفت سيدة والدمع ينهمر من عينيها .. وهتف مستعطفة :

— حرمت يا سى عباس ..

— حرمت ماذا .. ألم تقولى إن عم منصور أعطاك الطعمية ..

— لا .. كنت أكذب .

— إذا لقد سرقت ثمن الفول .

— لا .. سرقت الطعمية .

— سرقت الطعمية ؟ .. كيف .

— مددت يدى وأخذتها من فوق الصينية وعم منصور يغرف لى الفول ..

وانجلى الغضب من وجه عباس وارتسمت على شفتيه ابتسامة ما لبث أن تحولت إلى قهقهة عالية أردفها بقوله فى إعجاب :

— يا بنت الأبالسة .. لطشت الطعمية .. أمام عين الرجل ..

ثم جرها من يدها محاولا أن يعود بها إلى أعلى قائلا :

— تعالى .. لماذا لم تقولى هكذا من أول الأمر .

وتسمرت سيدة فى مكانها وهتفت متسائلة ؟

— أقول ماذا ؟

— تقولى إنك سرقت الطعمية من عم منصور .

— ولكنها كانت ستضربنى ..

— تضربك لماذا ؟.. ما دمت لم تسرق منها .

— ولكنى سرقت .

— أمى لا يهمها أن يسرق الناس الغير .. بل قد يريحها بنوع من الشماتة .. ولكن المهم ألا تُسرق هى ..

— هل تظن أنها لن تضربنى إذا عرفت إنى سرقت من عم منصور ..

— طبعا لا ..

— ولكنها ستعرف أنى سارقة .

— وماذا يهمك ..

— ستتهمنى بأنى سرقت .. أى شىء يضيع .

وهز عباس رأسه فى إعجاب قائلا :

— لا .. ناصحة ..

ثم صمت برهة وهو ينظر إليها متأملا :

— إذن أنت لا تريدين أن تعرف أمى أنك سرقت الطعمية ..

— أجل ..

— تعالى ..

وسحبها من ذراعها مرة أخرى متجها إلى الشارع قائلا ..

— نتمشى قليلا .. كأننا ذهبنا إلى عم منصور ثم نعود لنخبرها أنه أعطاك الطعمية ..

ونظرت سيدة إلى عباس فى دهشة وشك متسائلة :

— هل ستقول لها هذا حقيقة ؟

— لم لا .. ما دمت أخذت الطعمية بلا ثمن .

وسارت سيدة بجوار عباس حتى بلغا شارع السد .. ووقف عباس مترددا .. لا يعرف إلى أين يذهب بها ليقضى الفترة المفروض أن يستلزمها الذهاب إلى عم منصور .. وبدت عربة محملة بالموز تقف بجوار الرصيف قرب الناصية وقد انهمك صاحبها فى إعداد القراطيس الفارغة .. وهو يصيح بين آونة

وأخرى .. بقرشين الأقة يا بلاش .. نبيع بلاش يا عالم .. يا ما رخصت يا أكل الذوات يا موز ..

وكانت صيحات الرجل قد بدأت تجذب الناس حوله .. ونظر عباس إلى كفوف الموز السوداء الداكنة مرصوصة فوق العربة ، ثم جذب سيدة بيديه قائلا :

— تعالى يا بت .. وريني شطارتك ..

ولم تعرف سيدة أية شطارة تلك التى يريد أن تريها له . ولكنها لم تجد بدا من السير معه تجاه عربة الموز ..

وأردف عباس يقول :

— جربى بدل الوقفة .. أن تلطشى كف موز .

وبدأ الجزع على وجه سيدة وقالت فى خوف :

— كيف ؟..

— كما لطشت الطعمية .

— ولكن .. الطعمية .. كانت ..

— كانت ماذا .. إن كف الموز أسهل من الطعمية .. ألا تحبين الموز ..

— أجل أحبه .. ولكن ..

— تعالى .. وخليها على الله ..

— ولكن عند عم منصور .. كان الناس متزاحمين .

— لا عليك .. سأساعدك أنا ..

(٦)

نظرات تخترق الثياب

وقفت سيدة أمام عربة الموز ..

وقفت لترتكب جريمتها الصغيرة الثانية .. هذه المرة عن عمد وتدبير .

ولم تكن تعرف كيف تبدأ ..

المرة السابقة ، كان معها نقود .. وطبق .. وكانت تريد أن تشترى فولا ..

ولكن هذه المرة ما عذرها فى وقفتها أمام عربة الموز وهى لا تريد أن تشترى موزا ، ولا تملك ثمن إصبع منه .

ولكن مالها هى .. إذا كان عباس سيدبر الأمر ؟!

وإن أمسكوا بها ؟ هل ستقول إنه هو الذى قال لها ؟.. هل سيذهب معها إلى قسم البوليس وسينقذها من العسكرى ؟

وصاح عباس بالرجل الذى كان قد أمسك ميزانا فى يده يزن شروة لامرأتين تقفان بجواره تقول إحداهما للأخرى :

— نطلع به القرافة ..

— تطلعى القرافة بموز يا زنوبة ؟

— أرخص م البرتقال والبلح الأبريمى .. رحمة ونور على المرحومة ..

— المرحومة كانت تحب الجزر والملانة .

— لأنها لم تكن تقدر على شراء الموز .

وخلال هذه المناقشة ، والرجل منهمك فى وزن الموز .. وعباس يسأله :

— بكام يا عم الأقة ؟

وأجابه الرجل فى نداء منغم :

— بقرشين يا موز .. بنبيع بلاش يا عالم .. أرخص م الجوافة والبلح يا موز ..

خلال كل هذا الضجيج .. مد عباس يده وسحب أحد كفوف الموز .. وسلمه لسيدة أسفل العربة .

وأجاب عباس :

— بتلاتة ايض يا عم .

وصاح الرجل فى غضب :

— روح لحالك يا واد ..

فيصرخ : ليه ؟

— روح يا بنى ماحدش فاضيلك .. روح الله يسهلك .

وتحرك عباس وهو يضع يده على كتف سيدة ويدفعها أمامه محاولا سترها بجسده .

وسارت سيدة وقد وضعت كف الموز فى حجرها .. وأمسكت بذيل الجلباب بين أسنانها ، ولم يكادا يدخلان الزقاق ، حتى هتف عباس فرحا :

— هاتى يا بت .

وأمسك بكف الموز فى يده ونزع أصبعين أعطاها واحدا ثم قشر الآخر ودسه فى فمه مرة واحدة وهو يصيح :

— يا سلام يا سيدة .. دانت لقطة .. ولا كلاب الصيد .

وأمسكت سيدة بأصبع الموز فى يدها .. وصاح بها عباس وفمه ممتلئ بأصبع الموز :

— كلى يا بت .

وقشرت سيدة أصبع الموز وأخذت تلتهمه فى استمتاع ..

ربك كريم يا سيدة .. حرمتك أم عباس من الطعمية .. فمنحك بدلها موزا ..

موز مرة واحدة يا سيدة !..

أحد المحرمات عليك يا سيدة .. التى ترينها من بعيد ولا تقربينها .. الموز والمنجة .. والكباب والكفتة .. والفطير والقشطة .. والبيض .. والسردين فى العلب .. والبسطة . أشياء كثيرة جدا موجودة فى هذه الحياة .. ولكن لا وجود لها بالنسبة لك .. أكلت أصبع موز يا سيدة .. أصبع كامل مرة واحدة ..

ومد عباس يده بأصبع آخر بعد أن ازدرد فى فمه أصبعين وهو يقول بفمه الممتلئ :

— كلى .. حد واخد منها حاجة ..

وأكلت سيدة الأصبع الثانى .. لذيذ .. لذيذ ..

وجرها عباس تجاه البيت قائلا :

— بينا .. نعطى بقية الكف للست الوالدة .

وسألت سيدة فى فزع :

— وماذا سنقول لها ؟

— أى شيء .. إنها لا تهتم كثيرا بالسؤال عما تأخذ .. لأن مايخيفها هو ما تعطى ..

— ولكن ماذا ستقول لها إذا ما سألتك ؟

— اشتريته ..

— بم ؟..

— بفلوسى .. حد له عندى حاجة .. أروح السيما .. آكل موز .. أروح وش البركة .. أنا حر .

واستطاعت أن تفهم سيدة .. أن يكون سيدا حرا فى الذهاب إلى السينما .. أو فى أكل الموز . أما أن يكون حرا فى أن يذهب إلى وش البركة .. فلم تعرف لها معنى .

ما هو وش البركة هذا .. الذى يؤكد عباس حريته فى الذهاب إليه ؟

وسألت سيدة مرددة :

— تذهب إلى وش البركة ؟

— أجل .

— لماذا ؟

— لأفعل ما يفعل الناس فى وش البركة .

— وماذا يفعلون ؟

— ألا تعرفين ؟

— لا .

— الظاهر عليكى .. هبلة .

وتوقف يتأملها فى نظرة فاحصة وهو يتمتم قائلا :

— سأريك فى يوم .. ماذا يفعلون هناك .. عندما يصبح فيك الرمق .

وفجأة مد يده ، كما فعل فى مرة سابقة .. وقرصها فى صدرها قائلا وهو يقهقه :

— لما ينبقوا دول ..

وأدركت من قوله أن ما يتحدث عنه .. له صلة بالأشياء الخفية التى كانت تجرى فى حجرة أبيها .. والتى كان يفعلها على المبيض مع أم دلال فى تلال زينهم .. أو .. مع دلال نفسها .. فى آخر مرة .. عندما أبصرته يبرز فجأة على بسطة السلم ويندمج فى الزحام .

ووجدت أن عليها أن تنهر عباس لكيلا يكرر هذا الشىء معها مرة ثانية .. فصاحت :

— عيب يا سى عباس .

— عيب إيه يا بت .. إيش عرفك انت .. هو فيه ألذ من العيب ..

هل حقيقة العيب لذيذ ؟.. هكذا قال عباس .. ولكنها لا تحب أن تصدق ما يقول .

أجل يا سيدة .. خدى بالك من هذا الولد الكبير .. الذى يقول عنه أبوه : إنه مفسود ، ولا فائدة منه .

ولكنه مع ذلك يستطيع أن يفعل أى شىء ..

أخرجها بسرقة .. وأعادها بسرقتين ..

ذهب ليؤكد كذبها ويثبت جريمتها .. وعاد بها مبرأة من كل جرم .. وسيدخلها إلى أمه بريئة من سرقة الطعمية التى لم تأكلها .. بريئة من سرقة الموز الذى أكلته .

وأحست كأن عباس منحها بعض وقاحته وجرأته .. وتبدد من نفسها الذعر الذى كان يملأ نفسها وهى تخرج من البيت متهمة بالكذب والسرقة .

ودخلت الشقة وكانت أم عباس قد هدأ غضبها والحاج برعى على وشك النزول إلى المطبعة . ولهف ابنه شتمتين لأنه غير نافع .. لا فى المدرسة ولا فى المطبعة ثم تركه وهبط .

ولم يعلق عباس على كلام أبيه .. وصاح يعلن براءة سيدة قائلا :

— حرام عليك يام .. الراجل منصور قال لى انه وجدها بنت غلبانة صعبت عليه .. أعطاها كم طعمياية .. أصله كان يعرف أبوها الله يرحمه ..

ولم يكن حديثه قابلا للمناقشة .. لقد أنهى به الموضوع .. ولا سيما عندما دس مسألة أبيها الله يرحمه .. محاولا أن يذكر أمه بأن البنت يتيمة .. وأن الناس يعطفون عليها .. وأنها يجب أن تكف عن قسوتها معها ..

ولم تجد التذكرة مع أم عباس بأكثر من تجاوزها عن التهمة المعلقة .. وصاحت بها فى تهديد :

— انقضى النهار ونحن لم نفعل شيئا .. ادخلى الحمام خدى الغسيل فمين وانشريه .

وهكذا تبدأ دوامة كل يوم .. الغسيل والنشر .. والكنس والمسح .. وتوليع وابور الجاز وتقشير الخضار .. وتلميع أشياء لا تلبث فى اليوم أن تنطفئ لكى

تلمع ثانية .. غطيان القلل ، والصينية النحاس .. وإبريق الماء والطشت ..

أشياء عديدة .. كانت وظيفتها فى الحياة أن تمنحها المزيد من العمل حتى يقبل الليل .. وتحس بجسدها مجهدا وقدميها لا تقويان على حمله .. ولا تعود لديها من أمنية أكثر من أن ترتمى على الحصيرة وتغمض عينيها .

ويسير الزمن بسيدة .. حرية مفقودة ، وعمل شاق ، وكلمات ناهرة ، ولطمات زاجرة ، وإحساس بأن الخصومة تحيطها من كل جانب .. وأنها عدوة كل إنسان .. الباعة يبيعونها أشياء لا تقبلها أم عباس ، وترجعها بها .. فلا يرجعونها .. وبين أم عباس والباعة . ينتهى الأمر بعلقة لها واتهام بأنها زفت وقطران .. وأن وشها يقطع الخميرة من البيت .

وعباس يسألها بين آونة وأخرى عن أخبار سرقاتها ، وكأنها قد احترفت السرقة .. وفى غفلة من أهل البيت يتحسس جسدها .. ويقرصها هنا وهناك .. قائلا فى سخرية :

— بدأ صدرك ينبت واستدار قوامك .. عما قريب ستصبحين امرأة .. وتعرفين العيب .

وتجيبه ناهرة :

— عيب يا سى عباس .

ويرد عليها فى استخفاف :

— جاتك نيلة .. هو انت فى ديك الساعة .

ولم يطل ما توقع عباس .. ذات ليلة أضناها مغص موجع .. وعرفت أم عباس بما فيها فقالت لها فى حنق وكأنها مسئولة عما أصابها :

— هو يعنى كنا ناقصينك .

وأقبل شتاء ، وصيف ، وشتاء ، وصيف .. وشقق قشف البرد أقدامها وأدمى يديها فى طوبة ، ولسعت أرض الطريق وبلاط السطح باطن قدميها العاريتين فى قيظ بؤونة ، وعرفت الكثير من المسغبة والألم .. التى لا تهون

مرارتها .. كلمة طيبة ، أو بسمة حنون .. وعرفت فوق هذا نظرات عجيبة .. من الباعة والمارة .. تكاد تخرق ثيابها .. عند الصدر والردفين .

وفى يوم من أيام الصيف التى تبدأ بالصبح والشمس تكاد تتوسط كبد السماء .. مكتوم الأنفاس محرق الصهد . انتهت سيدة من الغسيل والكنس والمسح .. ولم تكن أم عباس تنوى أن تطبخ فقد عزم الحاج برعى على أن يطلب من حزين الجزار أن يصنع له ورقة لحم فى الفرن .

وفى الضحى بدا كأنما ليس هناك ما تفعله سيدة فى البيت . وكما تعودت أم عباس أن تجد لها عملا .. صاحت بها :

— خدى الصفيحة ولمى قشر بطيخ للوز .

وكان جمع قشر البطيخ من وسط القمامة التى تتوسط تقاطع الطرقات فى البغالة أحد الواجبات الهامة التى تقوم بها سيدة عندما يفتقد الوز والفراخ الطعام .. ولا يكون هناك ما يتوافر من قشر البطيخ فى البيت أو فى الزقاق ..

وخرجت سيدة بالصفيحة تنتقى لسيرها قذع الظل التى ترميها جدران البيوت أو الشرفات أو الأشجار على أسفلت الطريق وأرصفته ..

وخطر لسيدة خاطر جرىء وهى تخرج إلى الشارع :

لماذا لا تذهب إلى الماوردى .. فتستمتع باللعب ؟..

منذ أن تركت حى الماوردى .. وهى محرومة من وقت طيب تعدو فيه مع البنات والأولاد ، وتلعب ما تعودت أن تلعبه من حجلة وسيجة واستغماية .. أو تزور أم عطوة وتشاهد خيال الظل .. إذا كان ابنها عطوة ما زال يمارس إعداده لصبية الحارة .

كل ما استطاعت سيدة أن تفعله .. هو هنيهات مسترقة من سجنها فى بيت أم عباس .. عندما كانت ترسلها لشراء فول نابت أو فجل أو كرات . وكانت تعدو لشرائها من أم عطوة لتجلس معها برهة .. لتعطيها بعض الملبن .. أو تطعمها لحسة المفتقة . وكانت تسلك فى عودتها سبيلا تتعمد أن تريها أكبر

قدر من الحوارى التى ضمتها مع صاحباتها خلال اللعب والعدو . وذهبت بضع مرات إلى بيتهم القديم .. جلست خلالها مع زينب .. ولم تر عطوة سوى مرة واحدة ، وعلمت أن الأسطى أنور قد فتح محلا كبيرا فى شارع الخليج ، وأن عطوه قد أضحى شريكه فى المحل الصغير . وعلمت أن بهنسى قد سكن فى شقتهم ..

كانت كل زياراتها خاطفة .. لا تستغرق أكثر من دقائق .. فى طريقها لشراء أى شىء .. كان يمكن أن تشتريه من الحى . وقد أحست اليوم .. وهى تخرج لجمع قشر البطيخ .. أنها تستطيع أن تتأخر دون أن تتهم بالغياب .. ودون أن تضربها أم عباس .. لأن قشر البطيخ قد لا يكون جاهزا فى أى وقت أو فى أى مكان . بل يحتاج إلى بحث فى كل منطقة البغالة ، وقد يمتد إلى زينهم والمدبح أو يمتد إلى حوارى جنينة ناميش والماوردى . وأم عباس لن تحتاج إليها من الآن حتى مشوار سوق العصر لكى تذهب لشراء العيش الرجوع .. ولن تجد فرصة خيرا من هذه للذهاب إلى الماوردى .. والجلوس برهة مع أم عطوة وزيارة زينب واللعب معها ومع بقية الأولاد .

المهم أن تجد أولا قشر البطيخ وتطمئن على جمعه ثم تنطلق للعب .. وبدأت تفكر .. هل تتجه إلى شارع النواوى ، وشارع ممتاز .. لكى تضمن جمع القشر من بعض قمامات النواصى .. أم تذهب مباشرة إلى الماوردى . وقد تجد فى طريقها عند أبو الريش أو فى شارع الخليج أو فى الماوردى نفسه .. ما تريده من قشر .

ولم تكد تصل إلى آخر الحارة .. حتى وجدت على ناصيته كوما حديثا من القمامة .. يبدو كأنه وضع لها .

وسط الأوراق الممزقة والعلب الصفيح وبذور المانجو وقشر الكوسة وعروق الملوخية والبطيخ الحامض .. استقر كوم من قشر البطيخ .. قطع كبيرة ممتلئة .. بها بقايا احمرار من آثار البطيخة نفسها .

وخاضت سيدة وسط كوم القمامة .. وفزعت القطط والكلاب من المخلوقة التى هبطت عليهم فى جرأة تشاركهم مائدتهم .. وأخذت تجمع القشر وتضعه فى الصفيحة ..

ووضعت الصفيحة على كتفها ثم اتجهت إلى الشارع العريض .

ماذا تفعلين الآن يا سيدة ؟

غير معقول أن تذهبى بحملك إلى الماوردى .

وغير معقول أن تعودى به إلى البيت وإلا أمسكت بك أم عباس وضاع عليك المشوار.. وحرمت من اللعب .

خير ما تفعلينه يا سيدة .. أن تتسللى إلى الزقاق . ثم تخبئى الصفيحة فى بير السلم وتنطلقى خفيفة إلى حى الماوردى .. وتلعبى كما تشائين .

واتجهت سيدة إلى شارع السد وعبرته إلى الزقاق .. وهى تدعو الله أن يسترها .. وتوقفت أمام ناصية الزقاق .

ماذا تفعلين يا سيدة .. إذا رآك الحاج برعى .. أو واحد من عمال المطبعة .

التصقى بالحائط .. وتمهلى فى سيرك .. أجل .. هكذا ..

من حسن الحظ .. ليس هناك من يقف فى مدخل المطبعة .. الكل منهمكون داخلها .. والرجل الذى يجلس مكان أبيها يعطى ظهره للباب .

ووصلت سيدة إلى باب البيت .. ودخلت على أطراف أصابعها ، واتجهت إلى أسفل السلم . وأنزلت الصفيحة من فوق كتفها ثم دفعتها تحت البسطة .. ثم أخذت تسترق الخطا من الفناء إلى الزقاق .. ومن الزقاق إلى الشارع .

وأخيرا .. يا سيدة .. ملكت حريتك .. ولو لبعض الوقت .

اجرى .. يا سيدة .. اجرى ..

اجرى قبل أن يلحق بك أحد .

ووصلت إلى أم عطوة وافترشت الأرض بجوارها وهى تلهث .

وسألتها أم عطوة فى دهشة :

— مالك يا سيدة ؟

— حاقعد معاكى يا خالتى أم عطوة .. حالعب عندكو شوية .

— قلتى لخالتك ام عباس ؟

— لا ..

— ولما تدور عليكى .

— هى قالت لى روحى لمى قشر بطيخ للوز .

— ولميتى ؟

— أيوه .. وخبيته تحت السلم لغاية ما رجع .

وجلست سيدة برهة بجوار أم عطوة .. تستمع إلى أخبار أهل الحارة .. وناولتها أم عطوة نبوت الغفير من كوم الحلوى المرصوص فى الصينية على القفص بجوارها .. بعد أن اتسعت تجارتها لتشمل الحلوى والفاكهة إلى جانب الفول النابت والفجل .

وأقبل بهنسى يحييها فى فرحة قائلا :

— سلامات يا سيدة .. ازيك .

— الحمد لله .

— مضت مدة .. لم يرك أحد .

وأجابت سيدة مقلدة السيدات :

— الدنيا تلاهى يا عم بهنسى .

وأجاب بهنسى ضاحكا :

— والله كبرتى يا سيدة !

ونهضت واقفة وهى تقول :

— عن إذنكم .

— إلى أين ؟

— سأذهب إلى زينب .

— زينب عند خالتها .

— سأذهب لألعب مع الأولاد .

وانطلقت سيدة تعدو .. ولم تشعر أنها خفيفة كعادتها .. لا شك أن هذه البروزات فى صدرها وردفيها .. لم تعد تمنحها حرية الحركة والقفز .. فهى تتحرك وتهتز فى كل وثبة وحركة .

ومع ذلك .. اندفعت إلى اللعب بكل ما تبقى لها من جهد لم تستنفده أشغال أم عباس الشاقة .. وبقدر ما تسمح لها هذه البروزات الجديدة على جسدها .. والتى أضيفت إليها منذ تلك الليلة التى أصابها فيها المغص والتى نهرتها فيها أم عباس فى حنق وغيظ .. كأنما ارتكبت ذنبا !

اندفعت إلى اللعب وسط مجموعات البنات أسفل شجرة دقن الباشا .. وفى حوش المنزل قفزت الحبل .. ولعبت الحجلة .. وعدت مع الصبية وراء عربة الرش .. يبللون سيقانهم وأجسادهم .. مطفئين بها حرقة القيظ .

وأخيرا عادت إلى البيت وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر والشمس تلهب الكائنات بسياط من لهب .. وأشعتها تنفذ من كل شىء .. من أسقف الشرفات ومن ورق الشجر .. لم يكن هناك ظل بمعنى الظل .. ولكن كان هناك رقع سوداء على الطريق .. كأنها رسوم ظل .

ودخلت الزقاق .. وبدأت تهدىء من خطاها .

ترى ماذا ينتظرها . بعد كل هذا الغياب .

إنها ستقول إنها غابت لأنها لم تجد قشر بطيخ .. ولم تستطع أن تعود بدونه .

هل يمكن أن تترك الوز بدون أكل ؟

ولكن ماذا تفعل إذا كانت أم عباس قد عثرت على صفيحة قشر البطيخ أسفل السلم ؟

مصيبة !!

ووصلت إلى باب البيت . وبدت المطبعة والورشة من خلال الباب المتسع فى

حركة دائبة . وتعالى صوت الماكينة الجديدة التى اشتراها الحاج برعى فى دقات منتظمة متواصلة . ومرقت من الباب إلى بئر السلم . ومدت يدها أسفله فلمست الصفيحة المليئة بقشر البطيخ .

الحمد لله .. ربنا سترها يا سيدة .. الصفيحة موجودة وكل شىء على ما يرام ..

لم يبق سوى أن تلفعها على كتفك وتدخلى لتواجهى أم عباس . لتتلقى شتائمها ودعواتها التى لا يستمع إليها الله .. وإلا لما بقى حولها إنسان على قيد الحياة ..

وصعدت سيدة السلم تحمل الصفيحة فوق كتفها .. ووصلت إليها أصوات تتناقش فى حدة وهى تقترب من باب الشقة استطاعت أن تميز منها صوت الحاج برعى وصوت عباس .

ودفعت باب الشقة الموارب لتجد برعى يجلس على الأريكة وبجواره أم عباس .. وأمامهما عباس .. ولم يعرها أحدهم التفاتا . وكأن أحدا لم يرها .

وتعالى صوت الحاج برعى يقول فى حدة :

— ست سنوات وانت تسقط فى الابتدائية .. رفدوك من مدرسة محمد على .. نقلتك إلى رق المعارف .. كان المفروض الآن أن تكون فى البكالوريا ..

— وماذا أفعل إذا كان حظى سيئا فى الامتحانات ؟

— حقا سيئ ست سنوات .. ولكن ليس الذنب ذنبك .. ذنبى لأنى استمعت إلى كلام أمك .. التى تريد أن تجعلك أفندى محترم .. من الغد ستنزل إلى الورشة .

وتدخلت أم عباس متسائلة فى يأس وضيق :

— ماذا سيفعل بها ؟

— يتعلم أى شىء .. لقد بدأت حياتى بكنس المطبعة ومسحها كما يفعل عم عبده .. وعلمنى الأسطى رزق صف الحروف . ثم ظللت بجواره حتى حللت

محله وأصبحت رئيس الجمع فى مطبعة الاستقلال فى مراسينا فى السيدة .. وحاولت أن أتعلم الطباعة . وحاولت أن أتعلم التجليد .. لم أترك شيئا لم أحاول تعلمه فى المطبعة .. وكل شىء تعلمته منحنى قدرا بين الناس وبين عمال المطبعة . لا بد أن تعلم لكى تعمل .. المسألة ليست فهلوة .. ليس هناك من يعملون بغير علم سوى الشحاذين .. وحتى هؤلاء .. إذا لم يتعلموا فن الشحاذة .. ماتوا جوعا ..

ولم يعجب الأم هذا الكلام ورددت فى عناد :

— أنت تريد أن تقضى على مستقبله ..

— مستقبله فى أى شىء ؟.. فى الصياعة .

ورد عباس محتجا :

— أنا لست صائعا .

— اخرس .. انت صايع .. وستبقى صائعا .. إذا لم تنزل المطبعة لتتعلم شيئا .. لقد اشتريت المطبعة والورشة بعرق جبينى .. ولا بد لك أن تحافظ عليها بعرق جبينك .. لا بد أن تعمل فيها .. وتعلم ما بها .. لا بد أن تكون صنايعيا .. حتى يحترمك من حولك .. و ..

وقاطعته أم عباس قائلة فى إصرار :

— لن يحترمك أحد .. حتى تكون أفنديا موظفا ..

وصاح بها الحاج برعى ناهرا :

اختشى يا ولية .. أنا محترم أكثر من أى أفندى .. وأنا أحترم كل الذين يعملون حولى .. الأسطى جابر الله يرحمه .. كنت أحترمه .. أكثر من أى أفندى .. أكثر من المدير والوزير .. لأنه كان يحب عمله .. كان يحب الورق الذى يجلده .. والنشا الذى يلصق به .. كان يمسك الكتاب بعد أن يجلده .. وكأنه يمسك قطعة منه ..

وأحست سيدة النشوة وهى تسمع الحديث عن أبيها .. وانتظرت أن تسمع

بقية إطراء الرجل له .. ولكن أم عباس التفتت إليها .. كأنها لم تشعر بها سوى تلك اللحظة .. وصاحت بها :

— لماذا تقفين هكذا .. كالخايلة الكذابة .

— لقد أحضرت قشر البطيخ .

وبدا كأن أم عباس تذكرت غيابها فصاحت بها :

— الآن فقط .. أين كنت طوال هذه المدة .

وبدأت سيدة تسرد العذر الذى كانت تعده فى ذهنها واندفعت تقول :

— دخت حتى وجدت هذا الكوم فى آخر شارع سلامة .. ذهبت فى الأول ..

وهتفت بها أم عباس فى استنكار :

— شارع سلامة ..

— أجل .. ذهبت فى الأول إلى البغالة .. دخلت من شارع ممتاز على شارع النواوى . وبعدين على شارع سليم .. وبعدين حودت على شارع ..

وصرخت فيها أم عباس مقاطعة :

— انتهينا .. ليس هذا وقته .. سأريك بعدين .. اطلعى فوق خرطى القشر .. واملى المسقى ..

وقبل أن تتحرك تدخل الحاج برعى قائلا :

— دعيها تتغدى أولا ..

— الوز ليس عند أكل من الصباحية .. لازم ساخ ..

هى أيضا لم تأكل منذ الصباح ..

فى لهجة قاطعة قال الحاج برعى :

— كلى يا سيدة .

وكان عليها أن تأكل أولا بناء على أوامر الحاج برعى .. لقد كان الرجل ينصفها عندما يحس ما يقع عليها من ظلم .. ولكن إنصافه لها كان نادرا .. لأنه

كان لديه الكثير مما يشغله ..

كان يحب المطبعة والورشة أكثر من أى شيء .. وكان ينصف كل من بها .. ولو أن سيدة كانت تعمل فى المطبعة .. لكان حالها أفضل كثيرا .. ولكنها كانت تدخل فى نطاق نفوذ أم عباس . وكانت هى وحدها المسئولة عنها .. أو بتعبير أدق المسئولة عن عذابها . وتعاستها .. فقد كانت تكره أن تراها جالسة .. أو لاهية .. كأنما قد اشترت جهدها فهى لا بد أن تستهلكه إلى آخر رمق .. من اليقظة .. حتى النوم ..

(٧)

في الطريق إلى امرأة ..

أتمت سيدة غداءها في عجلة فقد كانت تعرف أن أم عباس لا بد ستلاحقها بعد أن أعلنت أن الوز لم يأكل منذ الصباح . وتناولت صفيحة قشر البطيخ وصعدت بها إلى السطح بعد أن أخذت في يدها سكين المطبخ الكبير لخرط القشر .

وفي طريقها إلى السطح كان الحديث بين الثلاثة قد أوشك أن ينتهي دون أن يتخذ قرار هل ينزل عباس إلى المطبعة أم يستمر في الدراسة أو كما يسميها الحاج برعي الصياعة .. ووقف الحاج برعي وهو يهم بالنزول إلى المطبعة وقالت له أم عباس :

— أيل لك شوية .
— والشغل .
— ينتظر .. حتى تستريح .. الدنيا أيّالة .
— لن أستريح حتى ينتهي الشغل .
— الشغل لا ينتهي .
— سينتهي عندما نعجز .. أو نموت .
— فال الله .. ولا فالك .
— مصيرنا لها .. لن يبقى سوى عملنا .

وعبرت سيدة الباب وأم عباس تصيح فيها :

— ضعي القشر فوق . وانزلي لتأخذي المياه .. المسقاة زمانها جفت .

وصعدت سيدة الدرج ، ودفعت باب السطح .. لتجد اللهب يتصاعد من

البلاط .. واتجهت إلى حجرة الفراخ وهي تتواثب على أطراف أصابعها . وبدا لها كل شيء محرقا .. وأنزلت صفيحة القشر ، بجوار الحجرة وقذفت بقشرة كبيرة إلى داخل الحجرة فاندفع إليها الوز والفراخ تتزاحم حولها .

وبعد برهة عادت بصفيحة المياه . ودفعت باب العشة وأخذت تخوض بين الوز والفراخ تملأ المسقاة وسط الطيور المتواثبة حولها . ثم جلست بباب الغرفة الخشبية وأسندت ظهرها إلى الباب ومدت ساقيها تفترش قطعة الظل الملقاة من الجدار على الأرض .

واختلطت في أنفها رائحة الوز والفراخ وقشر البطيخ وأبخرة المياه المسكوبة على البلاط الساخن . وأمسكت بقشرة تدفع السكين في حافتها لتغرسه فيها حتى منتصفها .. ثم تدفع السكين المرة بعد المرة حتى مزقتها مربعة تقذف بها وسط الغرفة إلى الطيور المتلهفة عليها ، وأحست سيدة بشيء من الارتياح .

كان تخريط قشر البطيخ من المهام الممتعة لها . كانت تمارسها منذ الطفولة مع أم عطوة كنوع من أنواع التسلية . وهي تمارسها الآن في هدوء وبعيدا عن صراخ أم عباس . وهي تحس والطيور تتكأكأ حولها لتتناول قطع القشر أنها تفعل شيئا مفيدا .. عملا من هذه الأعمال التي كان يتحدث عنها برعي .. إنه لا يحتاج إلى علم ولكنه يسعد بعض المخلوقات . ويشعرها أنها راضية ممتنة تقفز وتتواثب في فرحة وتقترب منها في ألفة واستئناس . ولا تفرغ منها أو تخشى من إمساكها إياها .

المخلوقات الوحيدة التي تبدو أنها تحبك يا سيدة .. هي الفراخ والوز .. تحبك أكثر من بقية المخلوقات التي تحيط بك .. والتي تحيط بك .. والتي تناصبك العداء بلا مبرر .

وأنت يا سيدة قد أصبحت أيضا تكرهينهم .. إذا كانوا لا يحبونك . فلماذا تحبينهم ..

واستمرت سيدة تدفع بالسكين في باطن القشر اللين الغليظ لتحوله إلى قطع

صغيرة تقذف بها إلى الوز .

وسمعت وقع خطوات تصعد الدرج .. وما لبثت أن أبصرت عباس يقترب منها ..

ولم ترتح إلى اقترابه .. فهو لا يمكن أن يفعل شيئا نافعا .. وهى مستريحة فى وحدتها مع الوز والفراخ ..

وتوقف عباس أمامها وهى تفرد ساقيها وتتكئ بظهرها على الباب .. وأخذ ينظر إلى ساقيها العاريتين إلى ما فوق الركبة .

ولم تعجبها نظراته .. فقد كان بها شيء غريب .. شيء كهذا الذى تحمله نظرات المكوجى والخضرى .. بعد بروز صدرها وامتلاء ردفيها واستمرت سيدة تخرط القشر دون أن تلتفت إليه .

وقال لها عباس :

— إزيك يا سيدة .

مجرد كلام .. يريد أن يقطع به الصمت .. ليجرها إلى ما يريد .

ورفعت إليه سيدة عينيها وهى ما زالت منهمكة فى عملية التخريط .. وأجابت بلهجة تحمل التحدى :

— زى ما انت شايف يا سى عباس .

وأجاب عباس وكأنه يحاول أن يلتقط خيطا يقوده إلى ما يريد :

— شايفك كويسة .. عال العال .. مش بطالة أبدا ..

وأحست أنه يسدد بصره إلى ساقيها وكأنه يحاول أن يعريها وينفذ ببصره إلى ما وراء ثوبها .

ولم تعرف ماذا تفعل ولا ماذا تقول .. ولم تجد سوى قشرة البطيخ تخفى فيها اضطرابها فازدادت سرعة السكين فى يدها .

وعاد عباس يقول وهو يزدرد ريقه :

— كبرت يا سيدة .. وبقالك صدر .. وظهر .

وصمت برهة وهو يتأملها ثم أردف يقول :

— فاكرة لما كان صدرك ممسوح .. وكنت .. أقرصه ..

وأحست سيدة أن عليها أن تقول شيئا تردعه به .. فهتفت مقاطعة :

— عيب يا سى عباس ..

ولم يكن ردها به أى تأثير رادع .. على النقيض .. لقد اندفع عباس يمد يده إلى صدرها قائلا :

— وريني يا بت ..

وأطبقت كفه على إحدى الكتلتين الصغيرتين الممتلئتين فى صدرها والتى كانت تضيق بهما سيدة عندما تعدو أو تنط الحبل أو تلعب الحجلة .

وعاد عباس يصيح فى إعجاب وقد تلاحقت أنفاسه :

— يا بنت الدايخة .. كل هذا عندك .. وتخفينه على ..

ولم تعرف سيدة ماذا كان مفروضا عليها ..

أن تذهب وتريه صدرها وتقول له « اتفرج يا سى عباس » .

إنها تعرف أن هذه مناطق يجب سترها .. ولا سيما عن أعين الرجال .. لأنها تجر إلى العيب .. والعيب يفضى إلى الفضايح .. والفضايح تجلب المصايب .

حقيقة يفعل الأزواج العيب .. ولكن عباس لم يتزوجها .. ولا تظنه سيفعل .. على الأقل الآن ..

ودلال كانت تفعل العيب .. هى وعلى المبيض .. ولكن لا شك أنها كانت تريده .. لسبب ما .. لا تعلمه هى .. فهى تعلم أن دلال لا تفعل إلا ما تريد .. وليس على المبيض الذى يغصبها على ما لا تريد .

مختصر القول يا سيدة ..

أنت لا تستطيعين فعل العيب إلا عندما تتزوجين أو عندما تريدين .

وأنت الآن .. لا متزوجة .. ولا .. تريدين.فخير لك إذن أن تردى ذلك الولد الفاسد — كما يسميه أبوه — عن الاستمرار فى غيه .. الذى قد يقوده إلى

فعل العيب .

ولكن كيف ..؟

إن الأحمق .. قد هبط بجوارها على ركبتيه .. وبدل أن يمسك صدرها من فوق الجلباب مد يده فى فتحته وهبط بها إلى صدرها يمسك به فوق اللحم ..

وهتف بها وقد تلاحقت أنفاسه :

— إيه ده يا بت .. دول حلوين قوى ..

وجرت سيدة جسدها بعيدا عن يده .. وتمزقت فتحة الجلباب وهى تهتف فى جزع :

— يا مصيبتى .

— اخفضى صوتك يا بت .

— ابعد يا سى عباس .. ابعد أحسن لك .

— قلت لك .. اخفضى صوتك .

— ابعد انت .

ولكن بدل أن يبعد مد يده فى جيب جلبابه وأخرج شيئا أعطاه لها .

وسددت بصرها إلى يده فوجدت بها قرشا .

قرش !!

لماذا !؟

وهتف عباس .. فى انفعال وهو يزدرد ريقه :

— خذى يا سيدة .

— آخذ ماذا ؟

— قرش .

— لمن ؟

— لك .. اشترى به ما تريدين .

جميل . أن تأخذ قرشا تشترى به ما تريد .. هذا شىء لم يحدث منذ سنين ..

منذ أن مات أبوها فى ليلة المولد .

ولكن ماذا يريد هو ..

العيب طبعا ..

ولكن .. لماذا يدفع الرجال نقودا من أجل العيب ..

أيكون هذا هو ما دفع دلال .. إلى فعل العيب ..

هذا العيب لا بد أنه شىء ممتع للرجال .. يستحق أن يدفع من أجله النقود ..

أجل .. إما أن يتزوجوا يا سيدة .. أو يدفعوا النقود ..

وأنت .. لم تدخلى بعد فى النطاق الأول ..

عباس لم يتزوجك .. ولكنه يدفع لك النقود من أجل أن يمارس معك العيب .

أتستحقين هذا يا سيدة ..

ما خطر ببالك قط يا سيدة .. أنك بت تستحقين أن يدفع من أجلك النقود ... ويلهث من أجلك الرجال .. وتتلاحق أنفاسهم .

حقيقة أن المكوجى والخضرى .. وبائع العيش .. منحوك نظرات فاحصة معجبة .. منذ أن برزت فيك النتوءات .. ولكن لم يخطر ببالك أن يركع أمامك عباس .. أو عبس .. كما تناديه أمه ... وكما يحق لك منذ الآن أن تناديه — بدل سى عباس — متلاحق الأنفاس .. يمد يده لك بالقرش فى رجاء متعجل .. يرجوك أن تأخذيه ..

لم يحدث فى حياتك يا سيدة مرة واحدة .. أن رجاك أحد أن تأخذى قرشا ..

لقد كان عهدك بالقرش حتى مع أبيك .. أنه يطلب بالرجاء .. ولكنه لا يمنح بالرجاء ..

ولكن عباس .. يجلس الآن بجوارك .. وهو ما زال يهتف مادا يده .. بالشىء الساحر .. الذى يهيىء لك أن تحصلى على ما تريدين .. بغير سرقة .. أو توسل ..

— خذى يا سيدة ..

وهتفت سيدة وكأنها لا تعرف :

— لماذا ؟

— ألا تريدين القرش ؟

— أجل أريده .

— إذن خذيه .

ومدت يدها فأطبقت على القرش ..

هذه فرصة لا تعوض .. يا سيدة خذيه قبل أن يرجع عبس فى كلامه ..

وقبل أن تسأله عما يريد هو . من أجل هذا القرش .. مد يده فأطبق على ذراعها ونهض بها وهو يجذبها إلى داخل الحجرة .. قائلا :

— تعالى .

— إلى أين ؟

ولم يجبها .. بل استمر يجرها إلى داخل الحجرة .. والفراخ تتواثب فى فزع .. أمام هذا الاقتحام المفاجئ ..

وبدأت هى تشعر بالخوف والاضطراب ..

إنها توشك أن تمارس ذلك الشيء الذى يفعله الناس خفية ..

توشك أن تفعل هذا العيب الذى يفعلونه من وراء الأبواب ..

لو أن أحدا رآك الآن ..

مصيبة ؟!!

ولكن من ؟!! من يفكر فى الصعود هذه الساعة القائظة واللهب يتصاعد من كل شيء .. حتى من صفيحة المياه ..

أم عباس ؟!!.. لا تظنها تفكر فى الصعود الآن ..

قد تصعد عندما تطرّى الدنيا .. وتهبط الشمس .. ولكن الآن .. فى هذا القيظ المحرق .. إنها وحدها .. التى يدفع بها إلى السطح .. إلى جهنم الحمراء .

ليس هناك أحد يحتمل صعوده إذن ..

إن احتمال حدوث الفضيحة بعيد ..

ولم يبد أن عباس .. يفكر فى أى شيء .. سوى العيب نفسه .. لم يفكر قط فى الفضيحة وما تجره من مصائب .. فقد كان منهمكا فى جرها إلى داخل الحجرة ..

أسندها إلى الجدار . ومد يده ليرفع ثوبها .

حاولت .. بمقاومة لا إرادية أن تثبته فى مكانه .. ولكنه جذبها بعنف .. وهو يميل عليها بجسده .. ضاغطا إياها بينه وبين الجدار حتى أضحى رأسها مدفونا فى صدره .. ونفذت إلى خياشيمها رائحته مختلطة برجع أنفاسها .

ولم يطل الأمر .. حتى أحست بجسده يسترخى .. وابتعد عنها .. وقد هدأت أنفاسه المتلاحقة ..

أهذا هو العيب يا سيدة ؟!!

أجل .. لا بد أن يكون .. هو ..

لا شك أنه هو نفسه ما كان يحدث وراء الباب فى الغرفة المغلقة .. وهو ما يحدث .. بين الديك .. والدجاج .. بغير أبواب مغلقة .. وبغير حياء .. ودون أن يكون عيبا .

عجيبة !!

ونظرت .. إلى عباس وهو يتجه خارج الغرفة .. والفراخ تتواثب من حوله .. وقد بدا كأن أمره انتهى معها .. ولم يعد هناك ما يعنيه منها ..

حسن !! أهذا كل ما فى العيب ؟!

المهم .. هو هذا القرش فى يدها ..

هذه الثروة التى تستطيع أن تنطلق .. لتشترى بها ما تشاء وبسرعة .. قبل أن تكتشف أم عباس وجوده معها ..

وإلا .. حلت الكارثة .

من أين تقول إنها أحضرته ..

إما أن تعترف أنه ثمن العيب .. أو تتهم بالسرقة .. أو تدعى أنها وجدته فى الطريق ..

وقد تصدق أم عباس .. أو لا تصدقها .. ولكنها على أى الحالين .. ستستولى على القرش .. ويضيع ثمن العيب ..

وفجأة تصاعدت من أسفل .. الصيحة المخيفة .

— سيدة .. بت يا سيدة ..

وتوقف عباس أمام باب غرفة الفراخ وبدا عليه الاضطراب للحظة قصيرة ولكنه سرعان ما نظر إليها هامسا :

— ردى ..

وانطلق صوت سيدة يجيب وهى تندفع إلى باب السطح :

نعم يا ام ..

وانطلق الرد من أسفل كأنه طلقات المدافع .

— مَوّ لما يشحتك .. انتى حاتباتى عندك ..

— خلاص يا ام .. فاضل كام قشرة ..

— اعملى لك همة .. وانزلى .. وكفاياك غياب طول النهار .

— حاضر يا ام ..

ولم تكن تعرف ما تنادى به أم عباس .. سوى أم .. كما كانت تنادى دلال .. كان الكل عندها أم .. إلا .. الأم الحقيقية .. التى لم تر لها وجها .. والتى دفعت بها إلى الشقاء .. وفرت هاربة ..

ومضت لحظة صمت .. وكانت الشمس قد أضحت تميل إلى الأفق .. واللهب قد خفت حدته ..

ونظر إليها عباس .. نظرة شاردة .. خلت من اللهفة .. والتوتر .. وبدا عليه كأنه أنهى مهمة كان لا بد من إنهائها .. وقال باقتضاب :

— سأنزل أنا الأول ..

ثم اتجه إلى باب السطح وسمعت صوت أقدامه تهبط الدرج .. ولم تكد تستقر على الأرض فى مكانها وتمسك بالسكين وقشرة البطيخ الباقية حتى سمعت صوت أم عباس يعلو من أسفل متسائلا فى حدة :

— كنت فين يا عباس ؟

— كنت فوق .

— بتعمل إيه ؟

— باشم الهوا .

— فى عز النقرة ؟

— كيفى كده .

ومضت لحظة صمت ثم سمعت صوت أم عباس تصيح منذرة :

— والله ما انت جايبها البر ..

أترى أدركت أم عباس ما يمكن أن يكون قد حدث ؟

أمعقول أن تتصور هذا ؟

ولم لا .. إنها أدرى بابنها ..

أو يكون هذا .. هو رد الفعل عندها ؟

وماذا تملك أن تفعل غير هذا .. إنه مجرد شك !!

وإذا كان أكثر من شك .. فماذا يمكن أن تفعل ؟!!

إذا حدث أن رأتهما خلال العيب نفسه ؟!!

فماذا ستفعل !؟

من غير شك .. ستلهفها علقة ساخنة .. تجذبها من شعرها .. وتلقى بها على الأرض .. وترفسها بقدميها .. حتى تكسر عظامها ..

وهو ماذا ستفعل به .. ستشتمه .. وتدعو عليه .. كما تعودت أن تفعل . وينتهى الأمر عند هذا الحد ..

وانتهت من القشرة فى يدها .. وقذفت بآخر قطع منها إلى الأوز .. الذى بدا أقل لهفة .. وأكثر رغبة فى الاسترخاء .. وأخذت ترقب إحداها .. وهى تمد منقارها فى المسقاة ثم ترفع رأسها برقبتها الطويلة إلى أعلى .. تاركة الماء ينزلق خلالها .. إلى جوفها ..

هذه الوزة .. بلا شك فى أسعد حالاتها .. ليس لديها من المخاوف مثل ماتتوجسه هى دائما فى كل ساعة .. لقد أكلت وشربت .. وستمشى وتصفق بجناحيها .. ثم ترقد فى استرخاء .. ليس هناك ما تخشى حدوثه .. حتى عملية الذبح التى تصيب إحداها بين آونة وأخرى .. قد خلا ذهنها منها ..

والعيب قد يحدث أو لا يحدث .. دون أن يسبب مشكلة .. وقتما تريد وحيثما تريد .. وبلا جواز ولا استتار .. ولا حياء ولا خوف من عقاب ..

لو أنك كنت وزة يا سيدة ..

لكنت أسعد حالا ..

كنت تأكلين قشر البطيخ .. جاهزا دون أن تحفى فى لمه .. وتخريطه .. ودون أن يلسعك بلاط السطوح ..

كنت تجدين كل شىء تحتاجينه .. دون أن تسعى إليه .. وبغير حاجة .. إلى قرش ما .. لا تنالين بغيتك إلا به .. ولا تستطيعين الحصول عليه .. إلا بفعل العيب .. الذى قد يودى بك فى داهية ..

وأطبقت على القرش فى كفها .. لتتأكد من وجوده .. ولتؤمن ببقائه !.

كيف تخفينه يا سيدة عن أم عباس .. حتى تشترى به ما تشائين ؟.

تشترى به سجق من شارع السد البرانى . من المحل المزين بالمرايا والحلى النحاسية الكائن بعد الحبيبى .. وقبل السيدة ..

أو تشترى به شمامة صغيرة .. عند سيدى الطيبى .. وتأكلينها بحالها ..

أو تشترى بيضا .. تقليه ..

أجل .. نفسها فى البيض المقلى .. الذى تقليه أم عباس لزوجها .. وابنها ..

ولم تفكر مرة فى أن تقليه لها .. بدل الطبيخ المجرمز والرز البايت وبقايا الفول .. إن تبقى منه شىء .

من أين لك السمن .. والوابور ..

من المطبخ ؟! وأم عباس .. لو ضبطتك فماذا تقولين ؟!

يحتاج الأمر لغيبة أم عباس ..

لو أنها تخرج يوما لسوق الفراخ الذى تذهب إليه كل يوم اثنين لوحدها .. لكانت فرصة لا تعوض ..

ولكنها تأخذها معها دائما .. لتحمل لها ما تبتاعه من فراخ .. بعد أن تدوخها معها وسط أقفاص الفراخ المتزاحمة فى الشارع الموازى لزين العابدين .. وبعد أن تساوم .. وتتاكف .. وتسب وتلعن ..

إن غدا .. الاثنين .. لو أنها تركت فى الدار وذهبت وحدها ..

ولكن كيف ..

تتمارض ؟!.. ولكن هل ينطلى التمارض على أم عباس .. لقد حاولته مرة .. فمدت يدها إلى جبينها ولم تجده ساخنا .. فجذبتها من شعرها صائحة فى غيظ :

ـــ قومى يا بت بلا كهن .. انتى زى الجن ..

وهى لا تستطيع أن تدّعى المغص .. لأنها تعرف موعده .. وتعرف ما يصاحبه .

مشكلة ..

بناقص البيض .. إن أمامها أشياء كثيرة حلوة .. تستطيع أن تشتريها فى أى مشوار تذهب إليه ..

أشياء مما تتلهف عليه وتحلم به .. السجق .. والزبادى .. والبطيخ .. البطيخ نفسه .. وليس قشر البطيخ الذى تنحت منه ما تبقى من بقع حمراء متخلفة عما التهم من فوقها ..

المهم الآن كيف تحتفظ بالقرش دون أن تعثر عليه أم عباس ..

أفضل طريق .. هو أن تخفيه فوق السطح فى مكان ما بحجرة الفراخ .. ولكن أين ؟..

لا بد لها من مكان آمن لا تصل إليه الأيدى أو الأبصار هناك .. فى هذا الركن داخل البلاص .. إنه لم يتحرك من موضعه منذ أن حلت بهذه الدار .. ومارست مهمتها فى إطعام الوز والفراخ .. إنها تستطيع أن تخفى القرش داخله فى أمان .

إنها تستطيع أن تخفى به هذا القرش .. وغيره من القروش ..

غيره من القروش ؟!!

أتظن أنها ستحصل على غيره ..

هل سيحاول عباس أن يمارس العيب معها مرة أخرى ..

وهل سيمنحها كل مرة قرشا ..

لم يبد عليه عندما انصرف .. أنه يريد أن يفعله ثانية .. لقد تركها فى غير لهفة .. كما نترك بقايا الطعام .. نقبل عليه فى لهفة .. ونعاف بقاياه .. عندما نتملئ به ..

ولكننا نعود فنجوع .. وتتجدد حاجتنا إليه ..

أترى العيب .. كالطعام .. حاجتنا إليه متجددة .. نشبع فنعافه .. ونجوع فنحتاج إليه ؟!

لا شك أنه كذلك ..

وإلا لما استمر .. فعل العيب ..

ولكن هل نعود إلى بقايا الطعام ؟!

الطعام الصابح .. بلا شك أفضل .. ولكن إذا لم نجده .. فلا مفر من بقاياه ..

ولكن أتراها .. الآن .. تمثل بالنسبة لعباس .. بقايا طعام ..

جائز ..

وإذا لم يجد الطعام الجديد .. فسيعود إلى البقايا .. حتما ..

وسيكون لها أمل فى قرش جديد ..

قرش جديد .. من أجل عملية عيب جديدة .

ولكن أيسهل عليها .. ممارسة العملية مرة أخرى ؟.

لم لا .. إذا تمت بمثل ما تمت به هذه .. فلن يكون الأمر مستعصيا .. ليس عليها إلا أن تستند إلى الجدار وتستسلم .. وتحتمل عبء عباس برهة .. ثم ينتهى الأمر ..

وأطلقت سيدة تنهيدة .

كل شىء بثمن يا سيدة ..

اللقمة والمأوى .. قد دفعت فيهما حريتك المفقودة .. وجهدك الضائع وعرقك المتساقط .. ساعات النهار وبعض ساعات الليل ..

من أجل طبق طبيخ بايت .. ورقدة بضع ساعات — هى أفضل ما فى حياتك — فوق الحصير فى المطبخ .. تدفعين كل هذا الجهد والعرق .

ومن أجل هذا القرش الذى تستطيعين أن تشترى به ما تشائين . وتحصلى على كل ما أنت محرومة منه .. وقفت مسنودة إلى الجدار .. ورفع ثوبك برهة واحتملت عبء عباس لحظات ..

عجيبة !! أن تضعنا الحياة .. بحيث نجعل المقارنة بين .. الطبيعى .. والعيب .. غير معقولة ..

لحظات عيب يا سيدة قد أتاحت لك ما لم تتحه سنوات المشقة فى الكنس والمسح والغسيل ..

ولكن هل سيعود عباس إليها ثانية ..

لم لا ..

قد تكون بقايا طعام .. ولكنه طعام لذ له ..

ألم يتحسس صدرها قائلا « إيه ده يا بت دول حلوين قوى » .

وهما باقيين لإعادة جذبه ثانية .. إلى نفس الطعام .. عندما يجوع ..

لم يخطر لها ببال .. أن تكون هاتين الكتلتين اللتين طالما عاقتاها عن العدو والقفز .. مثل هذا الجذب ..

لم تظن .. وهى تتلقى نظرات المكوجى والخضرى .. إلى صدرها وردفيها أنه يمكن أن يكون لهما ثمن ..

قرش بحاله .. يمكن أن يتجدد .. مرة بعد أخرى ..

ووقفت سيدة مستندة على حافة سور السطوح .. ورنت ببصرها إلى سطوح المنازل المجاورة .. وإلى كوبرى المنيرة الحديدى الذى يصل بين الماوردى وحى المنيرة .. وإلى أشرطة السكة الحديد تمتد أسفله .. وإلى الفناء المتسع الذى يتقاطع فيه القضبان وتقف عليها بضعة قطارات .. وتبدو فى جانبه أكوام الفحم .. وبجوارها ماسورة غليظة أسفلها برميل .

ووراء كل ذلك تبدو بيوت حى المنيرة نظيفة تحيط بها الأشجار والشمس تنزلق رويدا .. رويدا .. فى صفحة السماء نحو الأفق الغربى .. مخففة من سطوة لهيبها وهى فى طريقها إلى رحلة الليل ..

وأطلقت سيدة من صدرها تنهيدة .. وقد تملكها إحساس بأن شيئا ما قد حدث فى أعماقها .

لم تعودى طفلة يا سيدة ..

لم يعد يليق بك نط الحبل .. والوثب على قدم واحدة فى الحجلة .. بل لم يعد يليق بك أن تسيرى بجلبابك هكذا .. لقد استحق جسدك منذ الآن .. ملاية لف .. كتلك التى ترتديها النساء .. أم عباس ودلال وغيرهما .. من ذوات الصدور .. والأرداف .

لم تعودى بعد صغيرة يا سيدة ..

أنت فى الطريق إلى امرأة .

ومرة أخرى أطلقت التنهيدة من صدرها .. وشردت ببصرها فى الأفق البعيد .. إلى حيث أشياء غامضة تلوح غير مرئية ... ولكنها تشد البصر ..

أمامك يا سيدة أشياء بعيدة مجهولة ..

وفجأة انطلقت صرخة من أسفل تشدها من شرودها فى الأفق البعيد :

— سيدة .. بت يا سيدة .. ياللى تنخبطى فى نافوخك .

وأفزعت الصرخة سيدة .. واندفعت إلى أسفل مجيبة :

— نازلة يا ام ..

(٨)

طارت الحَلة !

لم تكن سيدة تعرف سببا لإصرار جسدها على النمو فى اتجاهات بعينها . وكانت تضيق بهذا النمو فى أول الأمر . فقد بدا عائقا لها عن ممارسة متعة اللعب . العدو والقفز .. ونط الحبل وغيرها من أعمال الصبايا التى تحتاج إلى جسد لا يتبعثر فى كل قفزة ويتأرجح ويهتز فى كل حركة .

ولا كانت أم عباس راضية عن هذا الامتلاء .. فقد كانت تعرف أنه يثقل حركتها . ويجذب الأبصار إليها .. ويجعل منها شيئا آخر .. غير ذلك الجسد الأعجف الذى تعودت منه أن يعمل ويعدو ككلاب الصيد .

كانت أم عباس . تخاصمها فى أول الأمر .. خصومة « السيادة » .. تتجهم فى وجهها .. وتصرخ فيها .. كصاحب عمل .. يمارس السلطة .. على عماله .. ولكن التطور الذى بدأ يتخذ طريقه إلى جسد سيدة .. أخذ يدفع فى نفسها .. إحساسا جديدا بالخصومة ..

أم عباس .. بجسدها الطويل .. العريض المنكبين .. الذى يبدو فى وقفته كرجل قاس .. رغم ثدييها المدليين كأنهما خرج فارغ على ظهر دابة . وذراعيها الطويلتين وكفيها الثقيلتين المدموغتين بالوشم الأخضر فى ظهريهما .

أم عباس .. الأنثى الوحيدة فى بيت الحاج برعى .. كانت تكره أن تنبت إلى جوارها أنثى حقيقية .. من هذا الجسد الأعجف . الذى يبدو وكأن الأيام قد فرغت له لتجعل منه .. شيئا مثيرا .

ولم تكن أم عباس لتعرف بالضبط ما أصبحت عليه سيدة حتى أبصرتها ذات يوم مجردة من هذه الهلاهيل التى تسترها .. ووقفت أمامها .. امرأة .. لامرأة فى

الحمام .

كانت مساء يوم جمعة .. وأم عباس تعودت أن تنهى عملية النظافة الشاملة للبيت .. بالاستحمام .

وكانت قد صنعت حلاوة الليمون . وكشطت جلد ساقيها وذراعيها التى تدلى منها الشحم المترهل . وأخذت تلصق قطعة الحلاوة على وجهها وتفردها ثم تجذبها فجأة .. حتى أضحى وجهها كالجزرة .

وصاحت بسيدة :

ـــ شوفى المية سخنت .. واعطى الوابور نفس .

وذهبت سيدة إلى الحمام . وجرت كرسى الحمام المنخفض تجاه الصفيحة الملأى بالمياه المحملة على حمالة الوابور . ودفعت يدها فى الصفيحة تجس المياه . ثم انحنت على الوابور تسنده بيسراها وتدفع بالكباس مرة بعد أخرى فى حركة سريعة إلى باطنه . ولم يزد الاشتعال ولا علا صوت الوابور فخرجت تحضر الإبرة لتسليكه من المطبخ .

وصاحت بها أم عباس متسائلة :

ـــ سخنت ؟

ـــ ما زالت فاترة .

ـــ ادى الوابور نفس .

ـــ عايز تسليك .

ـــ لماذا لم تسلكيه من بدرى ؟

ـــ سلكته وانسد .

وبرطمت أم عباس ببضع كلمات تدل على عدم الرضا وهى مستمرة فى لصق قطعة الحلاوة ونزعها من جلدها .

وعادت سيدة بالإبرة إلى الحمام ومعها علبة الكبريت . وأم عباس ما زالت مستمرة فى عملية البرطمة والنتف .

ولم تكن سيدة تفزع منها .. كما كانت تفزع فيما مضى .. فلقد منحها ذلك الشىء الذى أضيف إلى جسدها .. بكل ما يعكسه من نظرات الناس .. بعض الثقة . فى أنها قد أضحت شيئا .. وأنه لا داعى لهذا الرعب الذى يصيبها .. من أم عباس .. ومن أى مخلوق غيرها ..

وانحنت سيدة على الوابور تدفع بالإبرة الرفيعة فى ثقب الفونية . وأدخلت الإبرة وأخرجتها فى الثقب بضع مرات . وانطفأت شعلة النار واندفع الدخان متكاثفا أسفل الصفيحة . وأسرعت سيدة توقد الكبريت ولم يشتعل العود . فأخرجت عودا آخر وقد أصابها القلق خوفا من أن يخرج الجاز من فتحة الفونية وتضطر إلى إنزال الصفيحة لإشعال الوابور من جديد ..

أسرعى يا سيدة .. فلن تغفر لك أم عباس هذه العطلة .. وهى تريد أن تزيل آثار الحلاوة من فوق جسدها .

واشتعل عود الكبريت .. وأسرعت سيدة تدفعه فى الوابور . واندفعت النيران تئز بقوة ..

وغادرت سيدة الحمام ..

وسمعت صوت أم عباس يتساءل :

— سلك ؟

وأجابت سيدة بصوت يبدو أن أم عباس لم تسمعه خلال عملية لصق الحلاوة ونزعها التى وصلت إلى أسفل أذنها . فصاحت بها المرأة :

— لم لا تردين .. انخرست ؟

— قلت نعم .

— نعامة ترفسك .

ثم أعقبت الدعوة بسؤال استفسارى :

— حضرت الليفة والصابونة ؟

وصاحت سيدة حتى تسمعها أم عباس :

— نعم .

— بتصرخى كده لى يا بت . أجننت ؟

وتمتمت سيدة معتذرة :

— لكى تسمعينى يا ام .

— قالوالك على انطرشت . قومى حضرى غيار .. هاتى الجلابية الكستور البمبة .

— حاضر .

وأخيرا أقبلت أم عباس على الحمام .. بعد أن سخنت المياه .. وأعدت لها الغيار .. ووراءها .. سيدة .. لتدعك لها ظهرها ..

وكان دعك ظهر أم عباس .. أحد الأعمال الشاقة التى تؤديها سيدة .. كانت أم عباس تخلع ملابسها وتستقر على الكرسى الواطئ ، فلا تنهض حتى ينتهى الحمام ..

وأمامها تستقر القروانة والكوز بداخلها . وكان على سيدة أن تحول المياه الساخنة من الصفيحة إلى القروانة .. والباردة من الحنفية إلى القروانة .. وتظل تجرى عملية الخلطة حتى تمتلئ القروانة بالمياه المناسبة . ثم تعود لتكمل الصفيحة من مياه الحنفية .

وتبدأ أم عباس بغسل رأسها . وكانت مهمة سيدة فى هذه العملية هى تحويل المياه بالكوز من القروانة وسكبها على رأس أم عباس التى تختلط فيها الحنة البغدادى بالصبغة . ولم تكن عملية سكب المياه على رأس أم عباس سهلة .. لم يكن هناك شىء أبدا يرتبط بأم عباس سهلا .. كان على سيدة أن تسكب المياه بقدر .. وبأوامر .

— أدلقى يا بت .

وتنزل المياه على رأس أم عباس ..

وفجأة تصيح :

— بس .. كفاية .

وبعد برهة :

— حطى .

— بس .. قلت بس ..

حتى ينتهى غسل رأس أم عباس .

وتمسك بعد ذلك بالليفة والصابونة .. وتقوم هى بعملية ترغية الليفة حتى تعلو فوقها طبقة سميكة من الرغاوى .. ثم تمد يدها إلى سيدة آمرة :

— خدى .. ادعكى .

ولم يكن جسد أم عباس عاديا ..

إن سيدة ليست حديثة عهد بأجساد النساء .. ولا حديثة عهد بدعك ظهورهن .. فقد سبق أن رأت زوجة أبيها دلال فى الحمام .. وسبق أن دعكت لها ظهرها ..

ولكن أم عباس .. كانت — كما كانت فى كل حاجاتها — شيئا آخر .

كان جلد أم عباس مبقعا .. لم يكن أبيض كجلد دلال .. ولا أسمر كأم عطوة .. ولكنه كان ملطشا بتلك البقع الغامقة المتناثرة عليه .. والتى ظنتها سيدة فى أول الأمر .. وساخة وظلت تدعكها بالليفة .. حتى كلت يداها وصاحت بها أم عباس .

— كفاياك يا بنت سلختى جتتى .. اتنقلى لحتة تانية .

وكان الجسد .. تتدلى طياته .. طية فوق أخرى .. عند الصدر والبطن .. والأجناب والساقين .. مما يحتاج إلى أن تزج بالليفة أسفل كل طية لكى تنظف تحتها ..

ولم تكن أم عباس تبدو سمينة .. لأن عظمها عريض .. ولكن طيات الشحم المترهل .. كانت تبدو جيدا عندما تخلع .. وتجلس .

المهم .. بدأت سيدة عملية الدعك المعتادة .. وأم عباس ترشدها بين آونة وأخرى .

— اطلعى لفوق شوية ..

— يمينك .

— أيوه كده .. بس هنا .. ادعكى أوى ..

وهكذا حتى يحمر جلدها .. المبقع .. وتلهث سيدة ويتصبب العرق من وجهها ..

وهنا تعلو ابتسامة الرضا .. على شفتى أم عباس . وتهتف بسيدة :

— كفاية يا بت .

ووضعت سيدة الليفة فوق الحنفية . ووقفت لتريح ظهرها .. وأمسكت أم عباس بالكوز تسكب منه على جسدها وهى تقول لسيدة :

— اقلعى لكى تغسلى غيارك الوسخ بالمرة مع الغسيل .

وترددت سيدة برهة .. لقد سبق لها أن خلعت أمام أم عباس .. ولكن كان هذا فيما مضى .. قبل أن تنبت لها هذه الأشياء الخطيرة .. التى يجب إخفاؤها عن عيون الناس ..

ونظرت إليها أم عباس .. وهتفت بها آمرة وهى تلحظ ترددها :

— اقلعى يا بت .. ليس هناك وقت للكاعة .. لازم تشطبى الغسيل .. وتتركيه على الزهرة ..

ولم يكن هناك مفر من الخلع .

وخلعت سيدة ثيابها قطعة قطعة وألقتها بجوارها .

ونظرت إليها أم عباس .. فى ذهول .. وتمتمت فى صوت خافت :

— أصبحت امرأة .. يا بت .. مصيبة .

لقد كانت أم عباس تعرف أنه تحت ثياب سيدة .. قد نبت لها صدر .. وانتفخ درفاها . ولكنها لم تكن تتصور أنها أضحت بمثل هذا الامتلاء والتدوير .

ولقد شعرت — كما عبرت ببساطة — أنها مصيبة ..

مصيبة أن توجد فى البيت .. امرأة .. وعباس موجود .. إنها لا تعرف ماذا

يمكن أن يفعله عباس .. إن لم يكن قد فعله .. قد تصبح يوما لتجد البنت حاملا .. وفوق الفضيحة .. يصبح على عباس ابنها .. التى تحاول أن تجعل منه أفنديا .. وتزوجه .. لابنة أحد الموظفين .. الذى يمكن أن ينفعه فى عمله ويشرفه بنسبه .. يصبح عباس .. زوجا لسيدة ..

يا خيبة أملك يا أم عباس .. لو وقع المحظور ؟

ونظرت أم عباس إلى سيدة فى غيظ .. وقد برز صدرها المنتفخ فى غير ترهل .. وصاحت بها :

— لماذا تقفين هكذا اجلسى واغسلى راسك .

وجلست سيدة بجوارها وأمسكت الكوز تملأه .

وعادت أم عباس تنظر إليها نظرة حانقة .

لماذا .. كل هذا ؟.. ماذا ستفعل به .. كان يكفى لها .. هذا الجسد الأعجف . ذو الأضلاع المرسومة .. وعظام الكتف البارزة .. ماذا ستفعل بكل هذا ؟..

وفجأة اندفع إلى ذهنها خاطر أزعجها ..

هل يمكن أن تروق للحاج برعى ؟..

إنه رجل جاد .. ومصلى .. وتقى .. ولكنها .. تعرف أنه له .. اختفاءات معينة .. لا تدرى أين يذهب خلالها ..

يقول تارة .. إنها حضرة .. وتارة .. إنها ذكر ..

ولكن من يدريها ؟..

كل الرجال عيونهم فارغة .. وهى تعرف أن زوجها يستملح .. إنه يكون أكثر مرحا .. عندما تزورهم جارتهم تحية .. يبدو لسانه أكثر ذلاقة .. ونكته أكثر حضورا ..

ولكن ترى .. هل يمكن أن ينظر إلى سيدة ؟ غير معقول ..

عباس جائز .. ولكن برعى لا ..

ثم إنه لا يراها إلا وراء ثيابها .. وهى خلف الثياب لا تبدو شيئا ما .. إن ما بها لا يظهر إلا بدون ثياب .. ومن يريها له بدون ثياب ؟

من يدرى ..

مصيبة ..

وأمسكت أم عباس بالليفة وجذبت سيدة من شعرها .. وأخذت تدعك ظهر الفتاة بعنف .. تخرج كل ما ملأها من غيظ وانتهى الحمام وخرجت أم عباس ترتدى الجلابية الكتسور البمبة وخلفت وراءها سيدة على طشت الغسيل ..

نضج جسد سيدة الأعجف .. وامتلأ .

وإذا كان التطور قد انعكس فى نفس أم عباس كمصيبة .

فهو لم يكن كذلك فى نفوس الآخرين .

فبالنسبة لعباس . كان شيئا ممتعا مريحا .. أن يجدها .. تحت أمره فى أى وقت يريد .. مرة بقرش .. ومرة بدونه .. مرة فوق السطح فى عشة الفراخ .. ومرة فى المطبعة بالليل عندما يتسلل وإياها بعد أن ينام الجميع .. وأخرى خاطفة .. فى المطبخ أو الحمام .. فى غفلة من أهل البيت .

وبالنسبة لبقية الرجال الذين تعودت التعامل معهم .. أزال التطور .. الخصومة التقليدية القديمة معها ..

أصبحت ترجع الخضار للخضرى فيأخذه ببساطة .. وعندما تطلب الزوادة فى الفول من عم منصور يعطيها بدل الكبشة كبشتين .

وبدأت سيدة تستغل موهبتها الجديدة التى منحتها لها الأيام — دون توقع ولا رغبة — فى معاملة الرجال .. ونحن نمارس سلطاننا عندما نجد من يخضع له .. فنفوذنا لدى الغير ينبع أولا من تأثر الغير به .. فهو شىء لا وجود له إلا بما ينعكس عليه .. وإذا كانت سيدة قد اكتشفت أن هذه الكتل الشحمية التى وضعها الزمن على جسدها الأعجف قد أثارت اهتمام الرجال .. وحولت

خصومتهم إلى استرضاء .. وترحيب .. فلماذا لا تستغلها ؟..

لا تجرى يا سيدة .. فى الشارع كالهبلة .. ولا تتركى جسدك الذى أصبح شيئا هاما فى نظر الناس .. يتبعثر فى وثبك الصبيانى العبيط .. فهذه الأشياء الثمينة التى وضعتها الأيام على صدرك وأضافتها إلى ردفيك .. لا تترك للهزات الحمقاء .. بل يسيطر أصحابها على حركاتها .. ولا تتأرجح إلا فى هزات منتظمة متئدة مع خطوات سير أشبه بالرقص .

أجل يا سيدة .. يا عبيطة ..

هكذا تؤرجحين ردفيك .. مرة ذات اليمين ومرة ذات اليسار وأنت تسيرين وكأنك لا تقصدين ..

هكذا كانت تفعل دلال ..

ولكن دلال كانت « ملعب » .. فهل تريد أن تكون هى ملعب .. كدلال .. ماذا يقول الناس عنها ..؟

ملعون أبوهم .. يقولون ما يقولون ..

إنهم يشتمون الملعب .. ولكن لا يخضعون إلا لها .. ولا يتأثرون إلا بها .

طالما .. لعن الخضرى سنسفيل أجدادك يا سيدة .. ولهفك الجزار قلما جعل الدنيا تلف بك .. عندما كنت .. برغم أنفك .. غير ملعب ..

والآن .. يهشون لك .. ويتركون ما فى أيديهم — أحيانا — من أجلك .. لأن بك .. بعض ما يسيل لعابهم ..

لأنك يا سيدة .. مشروع امرأة ملعب ..

لمجرد أنك .. بت مشروعا .. قد مهدت لك السبل الشاقة .. وفتحت أمامك الطرق المغلقة .

فماذا لو أصبحت .. فعلا .. امرأة ملعب .

ولديك الإمكانيات يا سيدة .

يشهد بذلك .. عبس ..

ولماذا عبس ..؟

تشهد بذلك .. ممتلكاتك الفعلية .. فى الصدر والظهر . تحكمى فيها يا سيدة .. واهتزى فى سيرك الهوينا .. يمنة ويسرة ..

ودعى الأكف تصفق وراءك .. والحناجر تصيح « هز يا وز » .

أخيرا يا سيدة .. أصبحت وزا يهز .. بعد أن كنت برصا .. وسحلية .. وعصاعيص النقارية .. إلى آخر هذه الأوصاف التى طالما نعت بها ..

استمتعى بنظرات النهم التى تتطلع إليك .. وألفاظ الإعجاب التى تلاحقك .. وادعى أنك تضيقين بها ..

أجل هكذا الوى عنقك .. وردى « يا سم » .. ويا « دم » ويا « كبة » .. وكأنك تصدينهم عنك ..

وضعى لبانة بين شدقيك .. وتشدق بها .. وطرقعى .. افعلى كل هذا بمجرد أن تغادرى الزقاق .. حتى لا يقع نظر أم عباس عليك فتكون وقعتك سودة يا سيدة ..

وهكذا .. خطت سيدة أولى خطواتها .. فى طريق الإغراء .. بمهارة وثقة .. منحتها إياها الهبة التى وضعتها الأيام فى الأماكن الملائمة من جسدها .. فبدا ملفوفا مكتنزا . واستمر خصرها ضيقا كما كان .

وكان تأثيرها فى الرجال .. تأثيرا واضحا حاسما .. يزداد على مر الأيام . كلما ازداد الصدر امتلاء والردفان اكتنازا .

ولم يكن وجهها بخلقته الأولى .. قبيحا ..

كان فمها متسعا .. ولكن أنفها كان دقيقا وبقية تقاطيعها مقبولة . وعندما كانت تضحك .. كان وجهها يصبح أجمل — وإذا كان هذا ينطبق على كل الخلق — فقد كان ينطبق عليها أكثر ..

بتلك النغزة الواحدة فى جانب فمها الأيسر .. تلوح واضحة عندما تنفرج شفتاها عن بسمة أو ضحكة .

واستمرت سيدة تمارس تأثيرها العابر فى الرجال حتى وقعت حادثة السمن .

بعد الظهر .. والشمس تميل نحو الأفق . وظلال البيوت قد افترشت أرض الزقاق .. وظلال أشجار ذقن الباشا فى شارع السد قد ترامت واستطالت لتغطى أرض الشارع .

ونسمة صيف رقيقة تداعب أوراق الشجر .. وسيدة قد تحررت من الصديرى الصوف الذى تحاول أم عباس أن تخفى به صدرها بحجة أن الدنيا برد .. وأنها لا تريد أن تأخذ هواء يقعدها « وما فيش حد فاضى يقعد بيكى » ..

وأمسكت سيدة بحلة صغيرة فى يمناها متجهة إلى عبد المعطى البقال لشراء رطل سمن . وفى يسراها أطبقت على القروش .

وتسكعت سيدة متبخترة بين عربات الباعة بجوار الرصيف . فوقفت أمام عربة الخيار .. وعربة الجميز .. وتساءلت بكم .. ثم انصرفت تهتز فى دلال .

ووصلت إلى عبد المعطى البقال ووقفت أمام البنك الرخامى الذى يفصل بين الزبائن وبين صاحب الدكان .

وانتهى عبد المعطى من تعبئة قدح عدس لأحد الزبائن . وبقرش جبنة لآخر ثم التفت إليها قائلا :

— ماذا تريدين يا سيدة ؟

— رطل سمن .

ومد يده فأخذ الحلة من يدها .. ووضع عيار الحلة فى الميزان ووضع رطلا ثم أخذ ينقل السمن بالكبشة من الصفيحة إلى الحلة .. حتى أخذت كفة الميزان تتأرجح .

وأمسكت سيدة بالحلة فى يد .. وناولته القروش باليد الأخرى .. وصاحت به :

— هات ملبسة .

ورد عبد المعطى مازحا :

— يا بت كبرتى ..

وضحكت سيدة وقالت :

— طب هات ملبستين ..

ومد عبد المعطى يده إلى برطمان الملبس وأعطاها بضع ملبسات قائلا :

— خدى .. إياك يطمر فيكى .

وسارت سيدة تتقصع فى مشيتها وقد وضعت الحلة على كفها وثنت ذراعها بحيث أصبحت الحلة بجوار كتفها .

وعبرت شارع السد وسارت على الرصيف متجهة إلى الزقاق .. وقبل أن تصل إلى الزقاق .. أبصرت زحاما يقترب من ناحية سيدى الطيبى .. ووجدت الشيخ أحمد بسيفه الخشبى الأبيض يتقدم موكب الصبية وهو يهتف « الله حى عباس جى .. اضرب بمبة وهو جاى » . ولم تدخل الزقاق .. ووقفت ترقب الموكب .

كانت فيما مضى تهوى السير فى موكب الشيخ أحمد .. وفى غيره من مواكب المجاذيب .. أما الآن فقد كبرت .. وكل ما تملكه هو أن تقف لمشاهدة مواكب الصبية .. كأى امرأة .

واقترب الموكب .. وأمامه الشيخ أحمد بعمامته الحمراء .. وقفطانه الأخضر يسير متئدا وهو يلوح بسيفه يمنة ويسرة ..

وفجأة انطلق الرجل يعدو .. والموكب وراءه . وتدافع الصبية من حولها . وهى تحاول أن تعبر الموكب إلى الزقاق . وقبل أن تصل إلى الزقاق .. دفعها أحد الصبية فى كوعها التى تحمل به حلة السمن .

وطارت الحلة ..

وعندما انتهى الموكب .. وجدت الحلة مقلوبة على ظهرها وبجوارها الغطاء .. والسمن مسكوب على الأرض .. لا أثر له إلا بقايا مخلوطة بالتراب وطئتها أقدام الصبية .

يا نهار اسود ..

رطل السمن ضاع ..

كيف تعودين إلى أم عباس يا سيدة ؟

هذه المرة .. « لن تعتقك » .. ستنشب مخالبها فى عنقك .. ولن تتركك حتى تشرب من دمك ..

أجل .. لن يفتدى السمن المسكوب سوى دمك المراق يا سيدة ..

رطل سمن بحاله ..

ماذا تقولين .. وكيف تعتذرين ؟..

ستقولين .. إن موكب الشيخ أحمد .. داهمك ..

وماذا أوقفك وسط الموكب ؟

هو الذى هجم عليك ؟.. ولماذا لم تتنحى جانبا بالسمن فى يدك .. ولماذا لاتمسكين حلة السمن جيدا .. بدل أن تضعيها فوق كتفك ؟

ما من عذر مقبول لك يا سيدة ..

حياتك أو رطل السمن .

ولن يستطيع أحد أن يدافع عنك أو ينجيك من براثنها .. لا عباس ولا برعى ولا أكبر منهما ..

إنها لم تغفر لك بالأمس .. أن دلقت حلة الطبيخ البايت للفراخ .. رغم أنه حمض ورغم أن أحدا فى البيت لا يمكن أن يأكله .. ورغم أن الفراغ ستأكله ..

فما بالك بحلة سمن .. تدلقينها على الأرض !

ليس من حل أمامك .. سوى أن تشترى رطل سمن آخر .

ولكن كيف تقترضين ثمنه ؟!.. ممن ؟.. من عباس ؟!.

أجل ستسأل عباسً أن يعطيها ثمنه .. على سبيل المقدم لبضع مرات .. ليحاسبها بعد ذلك كما يشاء .. عشر مرات .. عشرين مرة .. فقط يعطيها ثمن رطل السمن ..

ولكن كيف ستعود إلى البيت لتتصل به . دون أن تراها أم عباس وتسألها .. أين السمن وتكتشف الجناية كلها .

هل يمكن أن تطلب من أحد الصبية الذين تعرفهم أن يناديه .. دقدق صبى المكوجى مثلا .. يذهب إلى البيت ويسأل عنه ثم يطلب منه خفية ودون أن تعلم أم عباس أن يحضر للقائها على باب الزقاق ؟

أجل هذا حل .

ولكن لا بد أن تسرع به .. فليس هناك وقت ..

لتذهب فورا إلى دكان المكوجى . وتسأل الأسطى خليل أن يسمح لها بإرسال دقدق إلى البيت ليحضر عباس .

سيندهش خليل طبعا .. وأبسط ما يمكن أن يتصوره هو أن هناك شيئا بينها وبين عباس لا تستطيع أن تمارسه داخل البيت .

ليظن ما يشاء .. إنها تستطيع أن ترضيه بضحكة .. أو تسمح له بقرصة أو بتحسيسة .. وهى تعرف أن يده طويلة ..

أجل .. لن يكون خليل مشكلة .

المشكلة هى أن تجد عباس فعلا .. وتجد معه نقودا ..

واتجهت إلى دكان المكوجى .. ووجدت خليل .. يبخ قميصا فى يده بالمياه التى تخرج رشاشا من فمه ..

ووضع خليل القميص على ترابيزة المكواة وهو يصفق بيديه مرحبا :

— يا ميت نجف .

ولم تكن سيدة فى حال يجعلها تقبّل الغزل أو ترد عليه فقالت له فى عجلة :

— أين دقدق ؟

— ذهب يسلم المكوة إلى بيت السمالوطى .

— ومتى سيعود ؟

— حالا .. لماذا تريدينه ؟

ــ أريده أن يذهب إلى البيت .

ــ بيت من ؟

ــ بيتنا .

ــ ليه !

ــ لينادى عباس ؟

ــ ينادى عباس ؟

ــ أجل .

ــ ولماذا ؟

ــ لأنى أريده فى شىء ضرورى .

ــ ولماذا لا تذهبين إليه ؟..

ــ لأنى .. لأنى لا أريد أم عباس أن تعرف .

وعاد خليل يصفق بيديه طربا .. وهو يصيح :

ــ حلو .. يا حلو ..

وهز رأسه وتساءل متخابثا :

ــ وما هذا الشىء الذى تريدينه منه ولا تريدين أن تعرف أمه ؟.

ووجدت سيدة أن المناقشة مع خليل ستطول عبثا فاستدارت فى غيظ وهمت أن تنصرف عنه .

فصاح بها :

ــ ونحن لا ننفع .. والا يعنى عباس .. على راسه ريشة ؟!

واستدارت سيدة إليه فجأة ثم سألته قائلة :

ــ أمعك خمسة صاغ سلف ؟

ــ خمسة صاغ .. لماذا ؟

وصاحت به فى غيظ :

ــ معك .. والا لأ .

ــ أعرف أولا .. لماذا تريدينها ؟

وأطلقت سيدة تنهيدة يأس وقالت :

ــ سأشترى بها .. رطل سمن .. بدل الذى انسكب ..

ــ السمن انسكب ؟

ــ أجل .

ــ رطل بحاله ؟

ــ أجل .

ــ خسارة .

ونظرت إليه سيدة فى غيظ وعادت تتساءل :

ــ معك خمسة صاغ ؟

وأمال خليل عنقه ثم تساءل فى خبث :

ــ أجل معى خمسة صاغ .. ولكن ..

ــ لكن ماذا ؟

ــ كيف سترجعينها ؟

ــ عندما يحلها الحلال .

ــ وإذا لم يحلها الحلال ؟. نحلها نحن ؟.

ــ معاك خمسة صاغ .. والا لأ ؟

ــ أعرف أولا .

ــ تعرف ماذا ؟

ــ كيف ستردينها .

ــ قلت لك يحلها الحلال .

ــ وقلت لك أحلها أنا .

ــ حاضر .

ــ تضحكين على ؟.

— لأ .
— كيف أصدقك ؟..
— كما تشاء .
— الآن .
ونظرت إليه سيدة فى غيظ وهى تحس أن الوقت يمر .. وأم عباس .. تنتظر عودتها بالسمن .
وقالت له فى غيظ :
— هل هذا وقته ؟
— لم لا ؟..
— أين ؟
— فى الحانوت .. فى الداخل وراء صندوق المكوة .
ولم تصدق سيدة أن خليل يمكن أن يغامر بما يقول .. وقالت له :
— طب هات الخمسة صاغ .
ونظر إليها خليل وهو يبتسم فى خبث ثم قال وهو يميل بعنقه :
— خمسة صاغ مرة واحدة ؟
— أجل ..
— كثير عليكى يا سيدة .
وصرخت فى حدة :
— حاتجيب الخمسة صاغ والا لأ ..
وهز خليل رأسه وعاد يضحك قائلا :
— خمسة صاغ مرة واحدة .. ليه .. بمبة كشر ؟
وتركته سيدة وهى تلعن أباه .. وأمه وكل من يمت له بصلة .. ووقفت على باب الزقاق تفكر ..
ماذا تفعلين يا سيدة ؟

لا فائدة من الاستعانة بعباس .. وحتى ولو وجدت من يقبل الذهاب إليه .. فقد لا يجده .. وإذا وجده فقد لا يكون معه نقود .
هل تعودين إلى البيت وتعترفين بما حدث ؟
وأم عباس ؟! لا .. لا .. لو أدى الأمر إلى هروبها من البيت فستفعل .. فهذا أفضل من مواجهة أم عباس فى هذا الموقف الخطير .. وفجأة خطر ببالها خاطر .. أحست أن فيه ما ينقذها ولو إلى حين ..
لماذا لا تذهب إلى عبد المعطى وتشترى رطلا آخر من السمن وتطلب منه أن يشكك ثمنه .
ولكن عبد المعطى لا يشكك ..
وهو يضع لافتة كبيرة يشير إليها لكل من يطلب منه الشكك « الشكك ممنوع .. والزعل مرفوع .. والرزق على الله » .
على أية حال .. لم يعد أمامها مجال سوى عبد المعطى البقال .. والرجل قد نظر إليها وهو يعطيها الملبس نظرة .. من النظرات إياها .. التى تعبر الثياب إلى ما بداخلها والتى تطل من فتحة الجلباب عند العنق .. لتتحسس الصدر .
لتذهب إلى عبد المعطى .. وتطلب منه رطل سمن آخر .. وليحلها الحلال .

(٩)

لماذا نكذب ؟

عادت سيدة إلى دكان عبد المعطى .. وكان الزحام قد ازداد حوله وكان عليها أن تبذل جهدا لتشق طريقها إلى البنك الرخامى ، وعندما وصلت إليـه ، صاحت بأعلى صوتها وهى تحاول أن تغلب صيحات الصبية والبنات التى تتعالى من حولها :

ــ رطل سمن يا عم عبد المعطى .

وضاع صوتها وسط الصياح .. وعادت تصيح ثانية :

ــ يا عم عبد المعطى .. رطل سمن وحياة أبوك يا عم عبد المعطى .

والتفت إليها عبد المعطى متسائلا :

ــ ألم تأخذى السمن منذ برهة ؟

ــ أجل .. أريد رطلا آخر .

ــ حاضر .. ضعى الحلة على البنك وانتظرى .

ــ أنا مستعجلة .

ــ قلت لك انتظرى .. سأعطيك السمن حالا ..

ومرت برهة . والرجل منهمك فى قضاء حاجات الزبائن ثم تناول الحلة من وسط الأوانى الموضوعة على البنك .. وبدأ يزن السمن ..

ــ خذى يا بت ..

وتناولت سيدة الحلة .. ووقفت برهة مترددة لا تدرى ماذا تقول عن النقود وأخذت الأصوات تتعالى من حولها تستحث عبد المعطى فى الانتهاء من طلباتها .

ــ تلاتة تعريفة بيض يا عم عبد المعطى .

ــ بنص فرنك جبنة حلوم يا عم عبد المعطى .

ــ قلت لك أربع حتت صابون ميزان واتنين زفر .

وشرد ذهن الرجل وهو يحدق فى وجه سيدة التى تنظر إليه فى حيرة وصاح فيها :

ــ الفلوس يا بت .

وتملكها الاضطراب وازدردت ريقها وهى تقول :

ــ فلوس إيه ؟.. ما نا اديتهالك .

ــ امتى ؟

ــ من شوية .

وبدت الحيرة على وجه الرجل .. وهو يذكر أن سيدة أعطته ثمن السمن مرة .. دون أن يدرى بالضبـط .. متى .. وتعالت الأصوات من حولـه تستحثه ... ولم يجد هناك وقتا للمناقشة .. لا شك أن البت قد أعطته النقود .. ولكن زحمة الناس من حوله .. قد أنسته .. إن ذاكرته لم تعد تسعفه هذه الأيام .. لقد كثر سهوه .. وكاد يظلم البنت .

وعاد ينهمك فى تعبئة الزيتون والجبنة والبيض والعدس للزبائن . ووجدت سيدة نفسها تمسك بالحلة مليئة بالسمن مرة أخرى . دون حاجة إلى إعادة دفع النقود .

وتنفست الصعداء . وسحبت جسدها من زحمة الزبائن المتكاتفين على الحانوت . وعبرت الطريق وهى تمسك بالحلة بكلتا يديها محاولة تجنب أى عابر فى طريقها خشية أن تتكرر المأساة ويسكب السمن ثانية .

ربك كريم يا سيدة ...

أخيرا عدت بالسمن .. بعد أن كاد يستعصى عليك .. وبعد أن أوشكت على الذهاب إلى البيت لتلقى أم عباس بالحلة خالية .. وتخبريها أن رطل السمن قد انسكب على الأرض .

ماذا كان يمكن أن تفعل بك أم عباس ؟

تنشب أظافرها فى وجهك .. وتطبق على زمارة رقبتك .. وتصليك من شفتيها .. نيران السباب ..

لم يعد هناك من حاجة إلى الاستنجاد بعباس .. الذى لا ينجد أحدا غير نفسه ..

ولا حاجة بك إلى استنجاد خليل .. الضلالى .. ابن الضلالى .. الذى يريد المقابل فورا .. وداخل الحانوت .. وعندما كادت تسلم استكثر عليها القروش التى طلبتها .. وقال فى سخرية « ليه بمبة كشر » ؟

ترى من تكون بمبة كشر هذه ؟..

ولماذا لا تكونين مثلها .. يا سيدة .. انك تجذبين أنظار الشارع كله إذا ما تبخترت فى مشيتك .. وهززت ردفيك ..

وبغير وعى .. بدأت المشية إياها .. مشية الأنثى شبه الراقصة .

واهتزت حلة السمن فى يدها ..

يا نهار أبوكى اسود يا سيدة .. اعقلى يا بت .. ودعى النهار يمر على خير ..

لو انسكب السمن ثانية .. فلن ينجدك أحد .. ولن تنطلى الخدعة على عبد المعطى الأهبل . لقد صدق الرجل ببساطة أنك أعطيته النقود . ولكن الزحام هو الذى نفعك .. كان الرجل ملخوما .. ولم يذكر ما إذا كنت أعطيته النقود أم لا .. وصدقك بسهولة .. وكسبت بذلك قروش السمن المفقود .

أجل يا سيدة .. كان ممكن أن تكون القروش فى يدك .. ملكك .. تشترين بها فطيرة .. أو بطيخة .. أو منديل بأوية .. أو زجاجة مية قسيس .. تتعطرين بها كما كانت تتعطر دلال ..

يا سلام .. يا سيدة .. لو لم ينسكب السمن !!

عبيطة !! لو لم ينسكب .. لما عدت إلى البقال .. ولما طلبت السمن .. ولما أقدمت على الخدعة ..

ولكنها على أية حال تجربة .. يمكن أن تتكرر .. ثانية .. وثالثة .

ولكن ليس بالسمن .

أجل يا سيدة .. فى المرة القادمة .. عندما تذهبين لتشترى شيئا .. من عبد المعطى .. ممكن أن تجربيها ثانية .

ولكن عليك أن تكونى حذرة ..

لا بد قبل كل شىء .. من توافر الزحام .. واللخمة .. وكثرة الصياح من حوله .. ولكن الرجل قد ينتبه إليها .. ويذكر محاولتها السابقة ..

إذن يجب ألا تتكرر التجربة فى بائع واحد .. إن شارع السد ملىء بدكاكين البقالة .. والخضرية .. والجزارين .

وعندما تحاول أن تعيد التجربة . يجب أن تذهب فى كل مرة إلى دكان جديد .. لا يذكر صاحبها تجربتها السابقة .

ودخلت سيدة الزقاق .. واقتربت من باب البيت .. ووجدت أم عباس تطل من النافذة .. تحدث جارتها أم رشوان .. ولم تكد تلمحها حتى صاحت بها :

— لسة بدرى .. كنت فين يا بت المدة دى كلها ؟.

— كنت .. كنت .. كان عند البقال زحمة .

كان يجب أن تذكر أنها غابت .. وكان يجب أن تضع العذر على طرف لسانها فأم عباس لا تقبل التردد .. ولا تنتظر حتى يخرج العذر من شفتيها إذا ما تلجلجت بل تناولها الكف .. فى لمح البرق ..

ونفعها .. أن أم عباس فى النافذة وهى على الباب .. وأنها منهمكة فى الحديث مع أم رشوان .. وأن المرأتين تتبادلان الشكوى .. واغتياب الغير .

سمعت أم عباس تردد :

— الولية القرشانة زهرة .. قلت لها تأخذنى معها .. وهى ذاهبة إلى محل عبد الرازق بتاع المانيفاتورة .. أشترى حتتين كريشة .. استخسرت تفوت ..

وأجابتها أم رشوان ببساطة :

ــ أصلها غيارة قوى .. ما تحبش الخير لحد أبدا .

ــ يا ختى هو أنا كنت حاخذ منها حاجة .. غيرش الراجل اللى على البنك يعرفها .. ويعملها خاطر .. ويحوشلها الفضلات .. ويديهالها بسعر التراب ..

ــ لازم بتشوفه من وراء صاحب المحل .

ــ يمكن يا ختى .. ما تستبعديش عليها حاجة أبدا .

وهكذا أنقذت سيدة .. من استجواب الغياب .. كانت أم عباس أكثر انجذابا إلى شتيمة زهرة .. من أن تتفرغ لشتيمتها هى . وعندما أحست بدخولها إلى الشقة صاحت بها وهى مستمرة فى الحديث مع أم رشوان :

ــ حطى السمن عندك وخشى اشطفى الصحون .

وهكذا نجت تماما من أذى أم عباس .. والبركة فى زهرة والكريشة وأم رشوان .

ومنذ ذلك اليوم وتجربة السمن المفقود .. تلح على رأس سيدة .

لم تعد حاجتها إلى القرش .. لمجرد .. لهفة إلى طعام مشتهى .. ولا سيما بعد أن اعتادت أن تختطف بين آونة وأخرى .. قضمة من المحرمات المشتهاة .. مما قد يكتشف أو لا يكتشف . وإذا ما اكتشفت السرقة تضيع التهمة بينها وبين عباس .. الذى تعود أن يأكل أى شىء فى طريقه .. دون أن يسأل لمن ..

لم يعد الطعام .. رغم حرمانها منه ولهفتها عليه .. هو خير ما يأتى به القرش .. فقد باتت لها احتياجات أنبتتها أحاسيسها الجديدة .. النابعة من تغير فى داخلها .. والمثارة من نظرات الرجال لها .

لو أن لك مرآة يا سيدة .. تنظرين فيها إلى وجهك .. على رواقة .. عندما تخلين إلى نفسك فى المطبخ قبل النوم ..

ولو أن لك مشطا .. تمشطين به هذا .. الكدش .. ــ كما تعودت أن تسميه أم عباس ــ المشوش فى إهمال وخشونة على قمة رأسك ..

ولو أن لك منديلا بالترتر أو بالأوية ..

ولو أن لك .. ثوبا غير هذا الثوب الحائل الممزق .. الذى لا يكاد يجف من مياه الطشت والحوض .

أشياء كثيرة يا سيدة لو أنها لك .. لكنت شيئا آخرا ..

إنك لا تملكين سوى هذا البروز فى صدرك .. والامتلاء فى ردفيك .. ومع ذلك .. تجذبين أنظار الرجال فى الدكاكين وفى الطريق ..

فما بالك يا سيدة لو أن لك بقية هذه الأشياء ..

مشط ومرآة .. ومنديل .. وثوب .. وعطر .. و .. و .. إلى آخر هذه الأشياء التى تشترى بالنقود ..

كل شىء بالنقود يا سيدة .. الطعام بالنقود .. والثياب بالنقود .. والزينة بالنقود ..

ولكنك لا تملكين النقود ..

حتى هذه القروش التى كان يمنحك إياها عبس .. عندما يصعد بك إلى السطح أو يهبط بك فى الليل إلى المطبعة الخالية والتى كنت تخفينها فى عشة الفراخ لكى تبتاعى بها ما تريدين قد أصبح يبخل بها عليك أو لعله هو نفسه قد أضحى أشد حاجة إليها وبت تمنحينه ما يريد .. بلا ثمن .. بحكم العادة .. بمجرد أنك لا تجدين ما يدعو إلى الامتناع .. ولماذا يكون هذا العمل وحده الذى تأبين أداءه .. إنك تغسلين وتمسحين وتكنسين .. وتتلقين السباب والصفعات .. ببساطة واستسلام .. فلماذا « العصلجة » فى هذه المهمة .. وهى أقل من غيرها مشقة . وأسهل أداء .

لقد بات عباس إحدى مهامها .. وباتت هى أحد احتياجات عباس .. وعباس بطبعه وبتربيته يحتاج .. ولا يحتاج إليه .. يريد دائما .. دون أن يشعر أن الغير يمكن أن يريد منه ..

يريد الأكل .. الأكل الكامل .. يسأل عن المخلل واللحمة والخضار والرز ..

وعن الحلو .. ويشكو إذا ما نقص أحدها .. ويصيح بأم عباس فى الأيام .. القرديحى .

— هو كل يوم عدس يام ..

وأم عباس لا تضعف أمام أحد .. سوى عباس .. تضعف أمامه أكثر مما تضعف أمام الحاج برعى .

مات لها ثلاثة قبله .. فهى تطبق عليه فى خوف وكأن أحدا سينتزعه منها .

وتجيبه أم عباس :

— ماذا تريد أن تأكل ؟

— عندك بيض ؟

— أيوه .

ثم تصيح بسيدة :

— اقلى ثلاث بيضات ..

وعندما يشبع تنبت له حاجات أخرى ..

يريد أن يخرج .. يتفسح .. يذهب إلى السينما .. أو يذهب إلى أماكن خفية .. كما قال ذات مرة لسيدة .. مثل وش البركة .

وعندما يراد منه شىء .. يتبرم .. ويتأفف .

وتنطلق منه الصيحة المتأففة قائلا :

— هو أنا فاضى .

— ليه وراك الوظيفة .. والا المدرسة ..؟

ثم ترق أم عباس وهى تزجره قائلة :

— امتى ربنا يهديك .. ويتوب عليك ..؟

ويصيح عباس بها متسائلا :

— يتوب على من إيه يام ؟

— من الدوارة .. وتنجح وتبقى أفندى مستوظف .

— حاضر . بس هاتى الشلن ..

ولقد أصبح عباس يحتاج إلى مزيد من النقود يوما بعد يوم .. ويبدو أن أمه لم تعد تستطيع سد حاجته .. التى تمنحه إياها خفية عن أبيه .. فأخذ يستعين ببعض حاجات المنزل يبيعها ويأخذ ثمنها وضبطته أمه يربط وابور الجاز فى تكة سرواله أسفل الجلباب ويتجه إلى باب الشقة والوابور معلق بين قدميه فصاحت به :

— إيه ده يا عباس ؟

— فيه إيه ؟

— إيه اللى أنت حطه تحت الجلابية ؟

— مفيش .

— مفيش ازاى .. تعال ورينى .

— أوريكى إيه ؟

واتجه مسرعا نحو السلم .

ولكن أمه أسرعت فأمسكت به ورفعت طرف الجلباب لتجد وابور الجاز مدلى أسفله ..

وصاحت به وهى تضرب صدرها :

— هى حصلت يا عباس .. يا ميلة بختى فيك .. يا خيبة أملى .

وصاح بها عباس مغتاظا :

— إيه مالك .. بتصرخى كده ليه ؟

— بصرخ كده ليه .. ده لو أبوك شافك كده .. يجزرك .

— طيب صرخى بقى .. عشان تفضحينا ..

وخفضت أم عباس صوتها قائلة :

— طب خش .. هى حصلت يا بنى تسرق وابور الجاز .

— قلت لك هاتى فلوس مارضتيش ..

وكان على أم عباس أن تمنحه الشلن حتى توفر على نفسها سرقة وابور الجاز .

وهكذا كان عباس يريد دائما ...

وكانت سيدة .. ضمن ما يريد .. فى بعض الأحيان ..

وكان عليها أن تمنحه ما يريد .. دون أن تنتظر أن يمنحها ما تحتاج إليه .. لأنه إما لا يملك .. أو لأنها أصبحت أحد ممتلكاته .. أو لأنها لا تستحق ..

وكان على سيدة أن تجد طريقها .. للنقود ..

وأن تحاول إعادة تجربة السمن المسكوب ..

إنها تجربة خطيرة .. فعملية الخداع لن تكون من السهولة كما وقعت أول مرة مع عبد المعطى .. فالرجل كان ملخوما .. والزحام شديدا .. ثم .. شراؤها السمن مرتين متتاليتين .. خلال بضع دقائق .. قد جعلت الرجل لا يستطيع أن يجزم هل أخذ الثمن مرتين أم أخذه مرة واحدة .. فهو لا شك يذكر أنه قد أخذ النقود .. ولكن متى .. وكم مرة .. هذا هو ما حيره .

ومع ذلك — ورغم هذه الملابسات التى أحاطت بالتجربة والتى سببت نجاحها بمثل هذه السهولة — فهى شىء ليس متعذرا .. بل من المحتمل جدا .. أن تنجح مرة بعد مرة .. المهم أن تختار الظروف الملائمة لها .. وتقدم عليها فى ثبات وجرأة .

وسنحت الفرصة الأولى بعد بضعة أيام ..

كانت المشتريات متعددة .. والمبلغ محترما .. يستحق المغامرة .

لقد أعطتها أم عباس بريزة بأكملها .. وطلبت منها أن تشترى قدح فول مدشوش . ورطل جبنة حلوم ونص أقة زيتون وقطعتين صابون نابلسى .. و .. ومجموعة أصناف .. لو أنها استطاعت أن تخدع الرجل فى ثمنها .. لحصلت على ثروة طائلة .

وسارت سيدة بالسبت فى يدها .. تهتز هزات الإغراء بغير إرادة منها .. فقد كان ذهنها منهمكا فى تدبير خطة الاحتيال .

لا ضرورة هذه المرة للذهاب إلى عبد المعطى .. إن عليها أن تتجه يمينا فى سكة المدبح .. فهناك بضعة بقالين على اليمين واليسار فى الطريق إلى الميدان الذى يشرب فيه الحمير من الحوض الكبير ..

إن عليها أن تنتقى بقالا مليئا .. تتزاحم عليه الزبائن .

وسارت سيدة على الرصيف .. فى الشارع الذى يخترقه الترام المتجه إلى المدبح .. ولم يطل بها السير حتى لاح لها زحام على الجانب الآخر حول حانوت بدا من العلب المرصوصة فى أرففه أنه لا يمكن أن يكون سوى بقال .

ووقفت سيدة على حافة الزحام الذى كاد أن يشغل الرصيف ويصل إلى الشارع وأحست بشىء من الطمأنينة وهى تدفع نفسها بين الأكتاف المتراصة .

هذه أولى بوادر نجاح التجربة . فهذا البائع الذى يتحرك وراء الرخامة العريضة .. لا يمكن أن يميز فى هذا الزحام من الذى أعطاه ومن الذى لم يعطه .. فى حركته الدائبة العصبية . ويده تعبىء وتزن وتلف وتسلم وتستلم والصيحات المستحثة تتوالى على أذنيه كالطارق ..

— يا عم عبد الصبور خلصنى .

— الكسبرة يا عم عبد الصبور .

— بنص فرنك جبنة فلمنك يا عبد الصبور .

— وحياة والدك يا عبد الصبور .

— الله يخرب بيتك يا عبد الصبور .

وسط كل هذا السيل من النداءات .. لا يمكن لعبد الصبور .. أن يعرف من قال ماذا .. ولا من أعطاه كم ..

إن يده تمتد لتعطى وتأخذ بغير وعى .

المهم أن اسمه عبد الصبور .

وانطلق صوت سيدة يتعالى وسط الصيحات :

— يالله يا عبد الصبور .. الله يعمر بيتك ..

والتفتت إليها عينا عبد الصبور . لم تدر ما الذى جذبه .. هل هى الصيحة الداعية له بأن يعمر الله بيته .. أم هو هذا الشيء المنتفخ فى صدرها ..؟

الاثنان .. الدعوة الطيبة بالصوت الناعم . أولا .. ثم هذا الشيء المكدس أسفل الثوب عند الصدر .

وإلا لم ثبتت عليه عينا عبد الصبور . وكأنه لا يرى غيره .. المهم أنه استجاب إليها دون بقية الزحام . وهتف بها مجيبا على صيحتها :

— ماذا تريدين ؟

— قلت لك من الصبح .

— لم أسمع وسط الصياح .. قولى ثانى .

— قلت لك بقرشين بيض وقدح فول مدشوش وحتتين نابلسى ..

وراحت سيدة تعدد مطالبها .. وصاح الرجل وهو مندفع فى حركته الدائبة :

— حاضر .. اصبرى على .

— صابرة من بدرى .

وانتهى عبد الصبور من تعبئة ما كان يمسك به فى يده .. ثم بدأ فى قضاء حاجاتها .. وهو يسلمها قرطاسا بعد قرطاس لتضعه فى السبت وهى تستحثه قائلة :

— شهلنى يا عم عبد الصبور .. النهار ضاع .

— حاضر .. صبرك على .

وأخيرا انتهى من تسليمها كل ما طلبت .. ثم توقف برهة ينتظر النقود .. وبمنتهى الثبات هتفت سيدة :

— يالله بقى .. أعطنى الباقى .

وتساءل عبد الصبور فى حيرة :

— باقى ؟!!!

— نعم .. باقى البريزة ؟

— أعطيتينى بريزة ؟

وضربت سيدة على صدرها فى جزع :

— يوه .

وراجع عبد الصبور نفسه وهو يرى جزع سيدة وقال لها :

— انتى فاكرة إنك أعطيتها لى ؟

— من يدرى .. من أول ما طلبت البيض والفول .. مددت يدى بها .. فأخذتها .. ولم تسأل عنى .

وهز عبد الصبور رأسه قائلا :

— جايز .

وتعالت الصيحات حول الرجل تستحثه :

— يالله يا عبد الصبور .

وتبعتها صيحة الداعى الذى بلغ به الضيق أقصاه :

— خلصنا يا عبد الصبور .. الله يخرب بيتك .

وصاح عبد الصبور مستجيبا فى استسلام :

— حاضر .. حاضر ..

واستمر ينظر فى وجه سيدة وهو يعتصر ذهنه . وهى تنظر إليه فى ضيق وتبرم قائلة :

— خلصنى بقى .. وهات القرشين بقية البريزة .

ولم يجد عبد الصبور بدا من أن يمد يده إلى الدرج ويخرج قرشين يسلمها لسيدة صائحا :

— خدى .. إنتى وذمتك .

وردت سيدة وهى تطبق يدها على القرشين :

— عيب يا سى عبد الصبور .. ما يصحش .. أعدم نظرى .. مديـاك

البريزة .. وإن شالله يطسني ترماي .. والا ..

وقاطعها عبد الصبور صائحا :

— انتهينا ..

وانسحبت سيدة من وسط الزحام .. وهى تحمل السلة ملأى ويدها مطبقة على القرشين والبريزة .

وتنفست سيدة الصعداء وهى تعبر الطريق متجهة نحو الزقاق .

أخيرا يا سيدة ..

فى يدك بريزة .. ملكك وحدك ..

انتصار رائع يا سيدة ..

على من ؟.. على الدنيا كلها ..

ولكنك ظلمت عبد الصبور ..

وانت ؟.. ألم تظلمك الدنيا كلها ؟

ألم تسلبك حريتك وجهدك .. ألم تحرمك .. من كل ما تشتهين .. وتمنحك كل ما تعانين ..

كل هذا الضرب .. والسب .. والامتهان .. أليس ظلما ؟..

والبريزة التى أخذتها من عبد الصبور .. ظلما ..

ولكن عبد الصبور .. لم يظلمك !!.

وأنت أيضا لم تظلمى من ظلموك .. ولكنهم وجدوا فائدتهم فى ظلمك فظلموك وأنت قد وجدت فى ظلم عبد الصبور فائدتك .. فأقدمت على ظلمه ..

نحن لا نمارس الظلم كهواية .. ولا نرده لأصحابه .. وإنما نرده لمن نجد أنفسنا فى حاجة إلى ظلمهم .. دون أن نميز حتى أننا نظلمهم .. إن حاجتنا فقط هى التى تبرز واضحة لأعيننا .. ويتضاءل بجوارها كل شىء .. حتى ظلم الغير ..

نحن لا ندرك من الظلم إلا ما وقع علينا .. أما ما نوقعه بالغير فشىء لا وجود له

وأنت يا سيدة واحدة من البشر .. ظلمك بعض الناس .. فرددت الظلم للبعض الآخر .

ولقد كذبت يا سيدة .. حلفت بنظرك وبأشياء أخرى .. كذبا .

وماذا فى ذلك .. لقد كذبت كثيرا .. والكذب نوع من الوقاية .. لا يستغنى عنه سوى المجانين .

وأفعالنا .. لا تتحول إلى ذنوب تستحق العقاب .. إلا عندما يفشل الكذب فى سترها ..

الذنوب هى ما يمارسه الناس خفية عن الآخرين عندما يعجزون عن ستره بالكذب والنفاق ..

وقد بات حقا عليك يا سيدة أن تظلمى .. لتردى الظلم عنك .. وأن تكذبى لتسترى الذنب .. ليصبح مجرد عمل طبيعى .. لا تستحقين عليه العقاب .

المهم يا سيدة .. أن السلة فى يدك ملأى بالبضاعة .. والبريزة تطبق عليها اليد الأخرى .. مع القرشين .. باقى الحساب .

أنت يا سيدة مخلوقة أقوى مما كنت .. بهذه البريزة فى يدك ..

أنت صاحبة ثروة تجعلك فى غنى عن أم عباس .. وبيت أم عباس ..

تستطيعين أن تأكلى ما تشتهين .. وتشترى ما تشائين من حلى وأدوات زينة .

وبعد ذلك .. ماذا تفعلين يا سيدة .. إن البريزة ستنتهى .. وتعود حاجتك إلى من يطعمك ومن يؤويك ..

لا عليك يا سيدة ..

المشكلة الآن هى الاحتفاظ بالبريزة .. ثم شراء ما تحتاجينه وإخفاؤه أيضا بعيدا عن أعين أم عباس .

المشط والمرآة .. والمنديل ..

هذه أشياء .. من الصعب إخفاؤها ..

ماذا تفعل ..؟

دعك الآن من كل هذا يا سيدة .. المهم أن تخفى البريزة .

ووصلت سيدة إلى البيت .

استقبلتها أم عباس .. بوجهها العكر .. وتكشيرتها المعتادة وأخذت تقلب ما فى السبت بنظرات نافذة .. وتعليقات برمة .

— البيض صغير .. ويبدو غير صابح والجبنة حادقة .. و .. و ..

ولم تستطع سيدة أن تركز فى تعليقات أم عباس .

كان ذهنها شاردا فى البريزة التى تطبق عليها كفها اليسرى بعد أن نقلت القرشين إلى الكف اليمنى .

لو أن أم عباس عرفت ما تحوى فى يسراها .. لحلت الكارثة . لن تستولى فقط على البريزة .. بل لرقعتها علقة لأنها لصة .. وأنها سرقت كذا .. وكذا .

وجاءها الفرج عندما سألت أم عباس :

— هل ملأت المسقى للفراخ ؟

— لا ..

— لماذا .. ألم أقل لك أول شىء تفعلينه هو ملء المسقى .

— نسيت .

— امشى انجرى .. املأيها .

وبسرعة انطلقت سيدة إلى المطبخ تملأ الصفيحة .. ثم حملتها على كتفها واتجهت إلى الباب صاعدة الدرج إلى السطح .

وتواثبت الفراخ حولها وهى تدخل الحجرة تملأ المسقى ..

وسكبت الصفيحة فى الإناء الفخار .. ثم انحنت فوق البلاص الموضوع فى ركن الغرفة محاولة إخفاء البريزة .

وفجأة أحست بيد توضع على مؤخرتها .

وصرخت سيدة فى فزع واستدارت لتواجه عباس وهو يقف وراءها يهتف بها مهدئا :

— مالك .. اتخضيتى ليه ؟

وحاولت سيدة أن تتمالك .. وكانت أنفاسها تتلاحق وصدرها يعلو ويهبط .

وأجابت سيدة متسائلة فى غيظ :

— عايز إيه ..

— عايز إيه ؟!!.. عايزك ..

— عايز منى إيه ؟

— يعنى حاعوز منك إيه .. تعالى .

ولكن سيدة بدا عليها الارتباك وهى تقف بجوار البلاص بعد أن وضعت فيه عشرة القروش .

وسألها عباس :

— ماذا بك ؟

— أبدا .

— ماذا كنت تضعين فى البلاص ؟

— لا شىء .

— أرينى .

— أريك ماذا ؟

— أرينى البلاص .

— لماذا ؟

— لأرى ماذا تضعين به .

— ومالك أنت .

وزاد حب الاستطلاع فى نفس عباس وهو يرى سيدة تحاول أن تتستر بجسدها على البلاص . وحاول أن يجذبها من يدها بعيدا عن البلاص ولكن سيدة صاحت به :

— دعنى أحسن لك .
— لن أدعك حتى أرى ما تفعلين .
— قلت لك لا أفعل شيئا .
— بل تخفين شيئا فى البلاص لا بد أن أراه .
وجذبها بشدة بعيدا عن مكانها ولكنها استدارت وانحنت فوق البلاص ومدت يدها تستعيد القطعة الفضية .
وانحنى عباس فوقها محاولا أن يمسك بيدها صائحا :
— أرينى .. ماذا بها ؟
— دعنى .
— لن أتركك حتى أعرف .
ووقفت سيدة تواجهه فى تحد وهى تطبق بشدة على قطعة القروش العشرة وصاحت به :
— معى بريزة .
واتسعت عينا عباس وهتف فى دهشة :
— بريزة مرة واحدة .
— أجل .
— من أين ؟
— ليس هذا شأنك .
— سرقتها من تحت ؟
— لا .
— إذن من أين ؟
— لن أقول لك .
— إذا لم تقولى فسأخبر أمى .
وترددت سيدة برهة .. ولكنها لم تجد هناك مفرا من أن تبوح بالحقيقة .

فعباس أهون كثير من أم عباس .
قالت سيدة فى اختصار :
— من البقال .
— كيف ؟
— لم أعطه ثمن البقالة التى أخذتها منه .
— وماذا قلت له ؟
— قلت إنى أعطيتها له .
— وصدقك ؟
— أجل .
— كيف ؟
— حلفت له .
— مغفل .
وصمت عباس برهة مفكرا ثم قال :
— هو مغفل . وانت ناصحة .. ولكن لماذا تضعينها فى البلاص ؟
— حتى لا تأخذها أنت ..
— هاتيها وأنا أخفيها لك .
— أخشى ألا تردها .
— هذا أحسن من أن تأخذها أمى وتضربك .
وصمت برهة ثم عاد عباس يقول ملحا :
— هاتى .
مدت سيدة يدها بالقطعة الفضية وهى تزفر زفرة حارة .
— خذ .. ولكن أقسم أن تردها لى .
— سأردها لك .
— أقسم .

— وحياة النبى .

يا سيدة يا غبية .. تطلبين التأكيد بالقسم .. وأنت تعرفين أنك منذ لحظات أقسمت بأغلظ الأيمان .. كذبا .

وتناول عباس القطعة الفضية . ثم جذب سيدة إليه ..

مسكينة يا سيدة ..

هذه المرة .. منحت عباس ما يريد .

وبدل أن يعطيك قرشا ..

لطش البريزة ..

ظلم ... والله ظلم ..

(١٠)

وقعت .. ولم يسم عليك أحد

شجع نجاح تجربة النصب التى قامت بها سيدة .. على استمراء العملية . وأخذت سيدة تمارسها كنوع من المغامرة المسلية المريحة ..

وبدت العملية بالنسبة إليها أشبه بحركات الشطرنج المحفوظة المضمونة النجاح إذا اصطيد بها لاعب مستجد .. لا بد أن تؤدى إلى سقوط الملك بعد بضع حركات .

كانت سيدة تختار دائما صيدا جديدا .. أى بائعا مستجدا لا يعرف وجهها ولا يذكر لها أية سابقة من سوابق التحايل أو الخديعة .. وتختار فرصة زحام فتندس فى وسطه .. ثم يتعالى صوتها شاكية متبرمة :

— ما تخلصنى بقى .. هو انا حاقضى طول النهار واقفة قدامك ؟

ويجيبها البائع فى لخمته معتذرا :

— حاضر .. حالا ..

— بقى لك ساعة بتقول كده ..

ثم تلقى أول طعم صائحة فى غضب منذر :

— ما هو يا تدينى الفلوس .. يا تمشينى .

ويجيبها الرجل بلا وعى :

— قلت لك حالا .. دقيقة واحدة .

ولا يلبث أن يقبل عليها متسائلا فى اعتذار :

— أيوه يا ستى .. عايزة إيه ؟

وترد عليه غاضبة :

— ما قلت لك ..

— قولى كان مرة .. معلهش .. الصبر طيب .

— آخر مرة .. أشترى من هنا .

— حقك علينا ..

وهنا فقط تندفع سيدة فى سرد ما تريد ..

قائمة طويلة من الطلبات ..

وعندما يسلمها لها الرجل .. ويسأل : (الفلوس) .. تضرب صدرها فى جزع صائحة :

— يوه .. مانا مدياك البريزة ..

— امتى ؟

— م الصبح .. اديتهالك .. وقلت لك اللى أنا عايزاه .. حتى بالأمارة بريزة جديدة .. مستعدة أجيبها لك م الدرج اللى حاطتها فيه .

ثم تلوى رأسها غاضبة وهى تردف قائلة :

— حقا مصايب .

وأمام هذا الهجوم العنيف لا يملك الرجل إلا أن يلوم ذاكرته .. ويعتذر لها :

— معلهش .. حقك على ..

— ولا حق ولا باطل .

— قلنا نسينا .. جل من لا ينسى .

وتقبل سيدة الاعتذار وهى تلوى عنقها وتشيح بوجهها حاملة السلة مخترقة الزحام عائدة من الغنيمة بالبضاعة .. والبريزة .

وشجع عباس سيدة على مواصلة المغامرة .. بعد أن نجح فى إقناعها بأنه خير من يستطيع الاحتفاظ لها بالنقود .. وبأنه سيبتاع لها ما تريد حتى لا يضحك عليها أحد .

وكان على سيدة أن تقتنع بما يقول .. فقد كان البديل لعدم الاقتناع .. هو

إبلاغ أم عباس بالأمر كله .. وكانت سيدة تستطيع أن تواجه كل شىء إلا هذه الكارثة .

وأضاف عباس إلى مصروفه ما تحصل عليه سيدة من عمليات النصب الناتجة من مشتريات أمه من السوق .. عندما يتجمع للبيت شروة محترمة يمكن لسيدة أن تغامر من أجل ثمنها . وهكذا أصبحت نقود الاحتيال التى تحصل عليها سيدة .. أحد موارده الهامة .. التى بات يعتمد عليها فى ممارسة خطاياه .. وتحويل الصياعة المجانى إلى صياعة بثمن .. جعلت له مركزا وسط شلته .. ومنحته مهابة فى ميدان البرم والخبص .. وفى يوم احتاج عباس إلى نقود .. ولم تسلفه أمه .. ولم يجد أمامه سوى سيدة يسألها أن تحصل له على ما يريد .. دون أن يكون هناك ما تشتريه من السوق ..

وبدت المسألة معضلة فى ذهن سيدة أول الأمر عندما لحق بها عباس فى حجرة الفراخ .. وأقبل عليها متسائلا :

— أمعك نقود ؟

— من أين ؟

— ألن تذهبى إلى السوق اليوم ؟

ورفعت كتفها وقلبت شفتها السفلى كناية عن أنها لا تدرى .

وعاد عباس يسأل فى غيظ :

— ألن تشترى شيئا اليوم ؟

— اسأل أمك .

— ألا تعرفين أنت ؟

— لقد اشترينا أول أمس .. الصابون والرز .. ولهفت نصف البريزة .. بعد أن كاد صبى البقال يكشف أمرى .

— ألن يلزمك اليوم شىء ؟

— يلزمنا بنكلة بقدونس وبمليم كرات من أجل البصارة .. هل تكفيك ؟

ونظر إليها عباس فى غيظ وقال ساخرا :

— تمزحين يا سيدة .. عينيك فتحت .

— البركة فيك .

وصمت عباس برهة مفكرا ثم قال فجأة :

— اسمعى يا سيدة .. عندى فكرة هائلة ..

وردت سيدة بابتسامة ساخرة وهى تقول :

— وحياة أبوك .. وفرها .. نحن لا تنقصنا المصائب .

— اسمعى يا بت .. ستخرجين اليوم إلى السوق .

— وبعدين ؟

— تذهبين إلى البقال .

— لا نحتاج إلى بقالة .

— لا يهم .

— إذن ماذا أحضر من عند البقال .. منى فاتورة ؟

— بل تشترين ما تريدين من بقالة .

— قلت لك لا نريد بقالة .

— إذن نرجعها .. ونسترد الثمن .

ونظرت إليه سيدة وهى تسند ظهرها على باب عشة الفراخ .. ولم يسعفها ذهنها فى إدراك ما يريد بسرعة .. وقالت ببطء :

— نشترى بقالة .. ونرجعها .. ونسترد الثمن ؟

— بالضبط .

— ولكن لن يكون معى نقود لشراء البقالة .

— وهل تدفعين أنت نقودا للبقال ؟

— لا ..

— إذن ستأخذين البقالة .. وتنصرفين كعادتك دون أن تدفعى شيئا ..

كما تفعلين كل مرة .

— مفهوم .. ولكن كيف أعود بالبقالة إلى البيت .. وماذا تفعل فى أمك ؟

— من قال إنك ستذهبين بالبقالة إليها ؟

— إذن ماذا ستفعل بها .. تفتح دكانا لبيعها ؟

— لا .. تغيبين برهة .. ثم تعودين إلى البقال .. لإرجاعها .

— أرجع كل البضاعة ؟

— أجل .

— لماذا ؟

— لأنها لم تعجب أم عباس .

— كلها ؟

وصمت عباس يفكر برهة .. هل معقول أن البضاعة كلها لم تعجب ؟ وقبل أن ينتهى إلى رد يقنع به نفسه قال فى عناد :

— لم لا ؟

— كل البضاعة لم تعجب الست أم عباس ؟. الصابون أبو ميزان لم يعجبها لماذا ؟.. والسكر لا يعجبها لماذا ؟

— دعينا من الصابون والسكر .. لم يعجبها البيض .

— وماذا غير البيض ؟

ورد عباس فى ضيق :

— لا تعقديها يا سيدة .. نأخذ بعض البضاعة .. نأكلها أنا وانت .. والباقى نرجعه ..

وهزت سيدة رأسها وتساءلت فى غيظ :

— ولماذا أفعل هذا ؟

— لأنك ستأكلين .. الجبنة والحلاوة . وأى شىء آخر تريدين أن تشتريه لنفسك .

— إذا أردت أن أفعله لنفسى فسأفعله .. ليس لك أنت دخل .

ورد عليها عباس منذرا :

— سيدة .. لا داعى للتمرد .

— لماذا ؟

— أنت عارفة ..

وردت سيدة بلهجة تحد :

— لا أعرف شيئا .. ثم .. أين النقود التى أخذتها منى ؟

— قلت لك إنى أحوشها لك .

— لا أريد أحدا يحوش لى .

— تريدين أن تحتفظى بها معك .. حتى تأخذها أمى .. أو يسرقها منك أحد .

— كله محصل بعضه .. تحوشها أنت أو تأخذها أمك أو يسرقها أى أحد .

— عيب يا سيدة .

— إذن أين النقود ؟

— سأعطيها لك .

— متى ؟

— عندما يصبح معى نقود .

— لن يصبح معك نقود أبدا .. ستعيش مفلسا وتموت مفلسا .

وضحك عباس فى سخرية قائلا :

— يا بنت الحمار .. هذا البيت لى .. وهذه المطبعة .. سأصبح يوما صاحبها .

إذن هذه هى آمال عباس ..

ذات يوم .. سيرحل أبوه ، كما رحل أبوها .. وستموت أم عباس — ولو أن هذا مستبعد جدا — كما ماتت أمها .. ويصبح هو الحاكم بأمره فى البيت وفى

المطبعة .

عباس سيصبح يوما .. السيد المطلق .

وأين ستكون هى !

سيدة البيت ؟!!

غير معقول ..

ولم لا ..

إنه يتعامل معها .. كما يتعامل الأزواج والزوجات ..

لا فارق .. سوى أن الأزواج يدفعون بالنقود إلى زوجاتهم .. وهو يأخذ ما تحصل عليه من نقود ..

خيبة من وسع .. يا سيدة !! واحدة غيرك كانت تأخذ منه كل ما معه من نقود .

ولكنه مفلس .

غدا سيصبح غير مفلس .. سيصبح الحاج عبس صاحب مطبعة وورشة تجليد برعى .

وعاد عباس يجرها من أفكارها مستحثا :

— قلت إيه يا سيدة ؟

— فى ماذا ؟

— فى ذهابك إلى البقال .

— قل أنت أولا .

— ماذا ؟

— عندما تصبح المطبعة لك .. بعد عمر طويل .. ماذا أصبح أنا ؟

وضحك عباس وهو يجدها قد لانت :

— آخر فرفشة .. ستأكلين كل ما تشتهين .. وتلبسين كل ما تريدين .

ونظرت سيدة إلى عباس ..

لم تجد نفسها تكرهه .

أولا .. لأنه لم يكن شريرا كأمه .. ولأنه لم يكن يكرهها .. بل كان يحنو عليها .. ولا سيما فى اللحظات التى يحتاج إليها ..

ولم تكن تحس بالضيق منه عندما يحتاج إليها .. بل باتت تألفه .. لم تشعر قط أنه يحاول أن يغرر بها .. بل كان يدفع عنها كل ما يملك دفعه من شرور أمه .. إذا كان هذا لا يتعارض مع مصالحه .. وكان يمنحها بقايا طعام .. مما قد تحرمه أمه عليها .. دون أن تدرى أمه .

ونظرت إليه سيدة .. إلى جسده النحيل الذى استطال مع الأيام .. وأنفه الضخم .. وشعره المجعد .. وأبصرت فيه خليطا من أم عباس والحاج برعى .. وسألته فجأة :

— لماذا لا تعمل .. يا عباس ؟

— أعمل ؟!!

— أجل .

— أعمل ماذا ؟

— كما يعمل بقية الناس .. كأبيك .. وعبده .. وخليل المكوجى .

— ولماذا أعمل ؟

— لكى تحصل على ما تريد .

— ولكنى أحصل عليه بدون عمل .

أجل .. إنه يحصل على ما يريد بدون عمل .. فلماذا يعمل ؟

وفكرت سيدة برهة .

— ولكن غدا لن تحصل عليه .. وستضطر إلى أن تعمل .

— إذن أعمل .

ونظر إليها عباس وهز رأسه مؤكدا :

— هناك أشياء ممتعة فى الحياة يا سيدة .. ليس من بينها العمل .. إذا أمكننا أن

نأخذها دون أن نزعج أنفسنا بمشقة العمل .. فلماذا لا نفعل ..

— ولكنك تأخذها من عمل الآخرين !! غيرك يأخذ المشقة .. وأنت تأخذ المتعة ..

— ولم لا .. غدا قد آخذ المشقة بغير متعة .. بعض الناس يأخذون المتعة .. والبعض يدفعون الجهد ..

ونظرت إليه سيدة .. وأطلقت زفرة طويلة .

لا شك أنها من هؤلاء البعض الذين يدفعون الجهد .. ترى هل تأخذ المتعة غدا !..

من يدرى ..

المهم الآن .. أن تدفع ..

إن عباس .. ينتظر أن تدفع لكى يأخذ هو .. لا تعلم إن كان هو الذى سيدفع لها غدا .. أم غيره ..

وعاد عباس يستحثها قائلا :

— يالله يا سيدة ..

— وإذا ضبطت ؟

— لا تخافى .. اطلبى لنفسك ما تريدين .. والباقى نرجعه .. يالله يا سيدة .. كله سأرده لك غدا .. عندما أصبح سيد البيت وصاحب المطبعة ..

ولم تجد سيدة بدا من أن تذعن للتهديد والترغيب .

وبدأت سيدة شراءها المعتاد من السوق .. تحمل فى يدها تعريفة لشراء بقدونس وكرات .. وأشياء أخرى بالملاليم الباقية .

وكان عليها أن تتقى بقالا .. لا يعرف وجهها .

مشكلة .. لقد مرت بهم جميعا ..

ليس هناك منهم من لم تشتر منه بلا ثمن .. صدرها المكتنز وردفيها المتأرجحين .. وصيحتها الغاضبة بأنها قد دفعت له البريزة .

لمن تذهب إذن ؟..

لماذا لا تعود لعبد الصبور ؟!!

أول من احتالت عليه .. وأخذت منه البضاعة بلا ثمن .. إنها ما زالت تذكر ملامحه الغبية .. ونظراته الجائعة التى نفذت إلى صدرها ..

وهو قد يذكرها .. ولا شك أنه سيذكرها بالطيب .. أو يذكر صدرها أكثر مما يذكر احتيالها .

واتجهت إلى سكة المدبح وتوقفت أمام دكان عبد الصبور ..

الزحام المعتاد كما هو .. والصرخات تتعالى تستحث الرجل المتحرك بسرعة وعصبية يملأ الأكياس ويزن اللفائف ويمد يده للزبائن بالبضائع ويدفع بالقروش إلى الدرج الصغير .. حتى وصلت إلى حافة البنك ومست رخامته صدرها ..

ووسط الصيحات المتعالية تصاعدت صيحتها هاتفة :

ـــ يالله يا عم عبد الصبور .. زهقتنى .

ولمحها عبد الصبور بطرف عينيه . ولم تشك أنه ميزها .. فقد تعجل وزن قطعة الجبن ولفها ثم استدار إليها . كانت على شفتيه ابتسامة وفى عينيه النظرة الجائعة التى تخترق الثياب إلى صدرها .. لم يكن هناك فى ذاكرته ما يبعثه على الغضب منها .

شىء يبعث على الطمأنينة .. ويشجع على الاستمرار فى التجربة .

إن الرجل بغير شك لا يذكر سرقتها الأولى . ربما لأنه لم يكتشف أصلا أن هناك سرقة .. وربما اكتشف دون أن يعرف من صاحبها .. وربما شك فيها ولكنه نسى .. ولم يعد يذكر منها سوى ذلك الشىء الذى يجذب شعاع بصره .. وهو صدرها المرتكز على رخامة البنك .

سأل وابتسامته معلقة على شفتيه وعيناه فى صدرها :

ـــ طلبات السيادة ؟

ـــ يوه .. ما قلتلك .

وبدت الدهشة على عبد الصبور .. فهو لا يذكر أنها قالت له شيئا .. بل هو لا يذكر أنه رآها قبل هذه اللحظة .. وعاد يتساءل :

ـــ قلت ماذا ؟

ـــ قلت لك أريد ثلاث أقات سكر وبثلاثة قروش بيض ونصف أقة حلاوة طحينية و ..

واستمرت سيدة تعدد طلباتها ، وعبد الصبور يفحص الجزء الظاهر من جسدها .

هذه البنت مثيرة .. وهو يذكر أنه قد رآها من قبل .. لا بد أنها قد أتت للشراء مرة قبل هذا .. لقد استقرت صورتها فى ذهنه مدة .. بهذا الصدر المكتنز والعينين الواسعتين .. وتمنى لو عادت ثانية .. ليحدثها ويأخذ معها ويعطى .. ويعرف أين تقطن .. وكيف يستطيع أن يراها .. ولماذا لا تعود لتشترى منه ؟

وها هى قد عادت ثانية .. فرصة يجب ألا تفوته .

ولكن ماذا يفعل وكل هذا الزحام حوله والناس تتصايح فى عجلة ؟

لماذا لا تعود إليه بعد الزحام .. حتى يستطيع أن يتحدث معها ويتفق على موعد للقاء .. ولكنها تبدو على عجل .. وهى تصيح به مرة أخرى مهددة :

ـــ اعمل لك همة يا عم عبد الصبور .. وإلا أروح محل تانى ..

لا .. لا .. لا داعى لأن تذهب إلى محل آخر .. سيعطيها ما تريد .. ويحاول إرضاءها قدرَ ما يستطيع حتى تعود مرة أخرى .

وأخذ عبد الصبور يزن ويلف ويضع على الرخامة .. وسيدة تتسلم اللفافة وراء اللفافة وتضعها فى السلة .. حتى أوشكت الطلبات على الانتهاء .

وفجأة صاح أحد الزبائن الذى يقف بجوارها وهو يجد عبد الصبور قد شغل بسيدة عن الآخرين ممن ينتظرون مثلها :

ـــ هذه مسخرة .. هذا لعب عيال .. أنا منتظر من نصف ساعة .. قد تركتنى أرن ..

وحاول عبد الصبور أن يهدئ الرجل فصاح به :

— حلمك يا عم عثمان .. أصل البنت مستعجلة .

وصاحت امرأة تقف بجوارها فى حدة :

— نحن أيضا مستعجلين .. والا هى على راسها ريشة .

وأحس عبد الصبور بالحرج بعد أن تعالت أصوات الاحتجاج .. وهمسات الضيق والتبرم .. ولم يجد بدا من أن يتحول إلى عثمان ليعطيه ما يحتاج ..

وانتهى من عثمان .. ثم تحول إلى المرأة الأخرى .. بعد أن وجد أن صيحاتها قد أخذت تتعالى منذرة .

وأخذ عبد الصبور ينتقل من زبون إلى آخر . ووجد أنه قد نسى سيدة وهو يتحرك فى عجلة وعصبية .. يعبئ ويلف ويزن ويتسلم القروش .

وهمت سيدة بأن تستحثه وهى تراه قد انصرف عنها .. ولكنها أحست أنه قد أوشك أن ينساها إن لم يكن نسيها وسط سيل الاحتجاجات الذى ارتفع من حوله .

وتدافع الناس من حولها ووجدت نفسها وقد دفعها الزحام بعيدا عن البنك الرخامى .. وبدا لها أن تهرب بما أخذت وسيشغل الزحام عنها عبد الصبور ، ولا يعود يذكر إذا كانت قد دفعت له أم لم تدفع . بل لا يعود يذكر عنها شيئا كما فعل فى المرة السابقة .

ولكنها تذكرت فجأة أن عليها أن تعود لإرجاع البضاعة .. وأن عبد الصبور قد يذكر أنها اختفت فجأة دون أن تدفع !

وعادت سيدة تفسح لنفسها طريقا بين الزحام حتى وصلت إلى البنك مرة أخرى وصرخت فى وجه عبد الصبور قائلة :

— ستعطينى بقية الحاجة .. أم لا ؟

وأجابها عبد الصبور :

— حاضر .. دقيقة واحدة .

— ليس عندى وقت .. ولا ثانية .. إن لم تعطنى الأشياء الباقية .. هات بقية البريزة وخلصنى .

وتوقف عبد الصبور برهة عن حركته .. وهو يتساءل :

— بقية البريزة ؟

— أجل .

— أية بريزة ؟

— التى أعطيتها لك من الأول .

هل أعطتك البريزة يا عبد الصبور ؟.. متى ؟ لقد لمحتها أول مرة عندما رأيت صدرها المستدير على الرخامة .. ولا تذكر أنها أعطتك نقودا من قبل .

وعادت سيدة تصيح :

— هات بقية البريزة وخلصنى .. والا خد البضاعة .

إنها تتكلم فى ثقة كبيرة .. لا شك أنها قد أعطته النقود .. ولكن متى ؟.. ربما أعطتها له وهو منهمك فى الوزن واللف . أجل .. إنه لا يذكر أبدا .. ماذا أخذ ممن ..

ولم يجد بدا من أن يتلطف معها قائلا :

— حاضر .. حاضر .. ماذا تريدين ؟

— علبة سردين .. وباكو نعناع .

هذه أشياء يمكن أن تحتفظ بها لنفسه .

وما لبث عبد الصبور أن أسلمها ما تريد . قائلا وقد علت شفتيه الابتسامة وانطلقت من عينيه النظرة النهمة الجائعة :

— عندما تحتاجين شيئا .. فوتى المغرب يكون الزحام قد خف .

— حاضر .

وسارت سيدة بحملها وسط الزحام وعبرت الطريق إلى الرصيف المقابل ، ولم تتنفس الصعداء كعادتها عندما تنتهى مهمتها على خير .. فقد كانت تحس أن

النصف الأخطر من المهمة لم ينته بعد .

إن عباس ينتظرها على باب الزقاق ليأخذ منها بعض الأشياء التي ستحجزها .. ثم تعود بالباقي لترجعه إلى عبد الصبور .

ترى هل سيأخذه عبد الصبور بسهولة ؟..

لم لا .. إنها تريد السكر ماكينة .. وهو قد أعطاها سنترفيش وقد علمت من رد عبد الصبور على أحد الزبائن أنه ليس عنده سكر ماكينة .. والبيض غير صابح .. سيقول طبعا إنه صابح .. ولكنها تؤكد أن أم عباس طلبت منها أن ترجعه لأنه غير صابح ولأنها كسرت واحدة فوجدتها ممششة ..

وهكذا ترجع الجزء الأكبر من الشروة ..

ووصلت إلى ناصية الزقاق .

لم تجد عباس ..

ترى أين ذهب ؟. لقد اتفق على أن ينتظرها ليأخذ منها بعض ما تريد حجزه أو تخفيه فى البلاص فى عشة الفراخ إلى أن تعود إليه بالنقود بعد أن ترجع باق البضاعة .

وانتظرت برهة .. فلم يبد له أثر .

لم يأت عباس .. وقد لا يأتى .. فهو لا يعبأ بموعد .. ولا يلتزم باتفاق .. ولكنه ينتظر النقود .. وهو فى حاجة إليها .

ربما سنحت له فرصة للحصول على النقود عن طريق آخر .. فنسيها ، ونسى كل ما قال لها .

ولكن لماذا تريده .. إنها تستطيع أن تمشى فى الخطة إلى آخرها .. كل ما عليها أن تخرج ما تريد من السلة وتسلمه لخليل المكوجى لحين عودتها ثم تذهب لإرجاع البضاعة إلى عبد الصبور . وتستعيد منه الثمن وتحتفظ لنفسها به ..

أجل .. هذه المرة — إن سلمت — لن تعطيه مليما واحدا ..

وسارت سيدة فترة تتسكع على الرصيف . حتى يمر بعض الوقت بحيث تبدو

وكأنها عادت إلى البيت .

وأخيرا عبرت الطريق إلى سكة المدبح متجهة إلى دكان عبد الصبور مرة أخرى ووصلت إلى الحانوت . وكان الزحام لم يخف بعد . تغيرت الوجوه .. وحلت مكانها وجوه أخرى .. والصيحات كما هى .. « بتعريفة حلاوة .. بقرش جبنة .. زجاجة خل ، نصف أقة زيتون ... بنكلة كسبرة .. قدح عدس » ويصحب كل نداء استحثاث لعبد الصبور بأن يشهل ..

وشقت سيدة طريقها وسط الزحام حتى وصلت إلى البنك . ولمحها عبد الصبور فهتف بها قبل أن تفتح شفتيها وقد بدا عليه التهلل :

— خير .

— لم يعجبهم السكر .

— له ؟

— يريدون سكر ماكينة .

— لماذا لم تقولى من الأول ؟

— قلت لك ولم تسمع .

— ظننت أنك تريدين سنترفيش ..

— قلت لك بأعلى صوت سكر ماكينة .

— ولكن ليس عندى سوى سكر سنترفيش .

— أحضره من محل آخر ..

— تريدين إرجاعه إذن .

— أجل .. وكذلك البيض غير صابح .

— من قال هذا .

— كسروا واحدة ووجدوها ممششة .. وقالوا لى أرجعيه .

— وماذا أيضا ؟

ورفعت سيدة السكر من السلة ووضعته على الرخامة .. ثم مدت يدها إليه

بقرطاس البيض .

وأمسك عبد الصبور بالقرطاس قائلا :

ــ انتقى لك بدله .

ــ لأ .. أريد النقود .

ولم تبد على وجه عبد الصبور علامات الرضاء عن عملية إرجاع البضاعة .. وإن كانت أراحته فى أول الأمر عودة سيدة نفسها .

وفتح عبد الصبور الدرج ببساطة وهو يتساءل :

ــ كم ؟

ــ احسب أنت .

ــ وتمتم عبد الصبور بضع كلمات كأنه يحسب ثم دفع يده فى الدرج وأخرج القروش المطلوبة ثم مد يده إلى سيدة .

وقبل أن تتناول سيدة النقود هتف صوت أجش بصيحة منذرة :

ــ انتظر يا عبد الصبور .. البنت دى نصابة .

والتفتت إلى صاحب الصيحة فإذا بها تعرف وجه صاحبها .. لقد كان مرسى .. صاحب بقالة الحبيبى ..

لم تعرف أى ريح قذفت به فى هذه اللحظة . ولكنه كان يطل عليها متجهما من جانب الحانوت وهو مستمر فى صمته الغاضب :

ــ أجل .. هى هى نفسها .. مرت على من قبل .. وأخذت أشياء كثيرة .. ثم ادعت أنها سلمتنى الثمن . ولم أكتشف خدعتها إلا فى آخر النهار عندما جردت الحساب ووجدته ناقصا قيمة بضاعتها .

وبدأ عبد الصبور يتذكر .. وتطايرت من نفسه كل رغبة فيها .. ولم يعد يرى غير خدعتها إياه .

لقد أصرت على أنها دفعت الثمن .. وهو واثق أنه لم يرها إلا ساعة لمح صدرها يتدلى على الرخامة .

وهو يذكر الآن أول مرة .. نفس الحكاية ..

خدعته اللئيمة مرتين .. وكل مرة تهب فى وجهه كأنه قد أساء إليها بمجرد سؤالها هل دفعت .

وسحب عبد الصبور يده بالنقود وهو يهز رأسه ويقول فى غضب مكتوم وأصداغه العريضة تتلاعب :

ــ هكذا ثانى مرة تفعلينها .

وقعت يا سيدة ولم يسم عليك أحد . هذا الشيطان الذى نبت من الأرض فجأة قد فضحك .

ماذا تفعلين يا سيدة .. والدنيا توشك أن تنطبق على رأسك .

لا تستسلمى .. اصرخى .. واشتمى .. وقاومى .

واندفعت سيدة تصيح :

ــ ما هذا الذى تقوله .. أجننت ؟

ــ أنا الذى جننت ..

وقفز الرجل فجأة من وراء الرخامة ثم أطبق على السلة وانتزعها من يدها صائحا :

ــ سأخرب بيتك .

وهتف مرسى وهو يندفع إليها ليقبض على عنقها :

ــ وأنا سأوديها فى داهية .. لن أتركها إلا فى السجن ..

انتهينا يا سيدة .. اصرخى كما شئت وقاومى ما شئت .. فلن يجديك الصياح نفعا .. وقد انقلب الكل عليك كأنهم ينتظرون وقوعك حتى يشدوا السكين على عنقك .

وتعالت الصيحات من حولها :

ــ المجرمة .

ــ النصابة .

— الحرامية .

— ولا يكفيها أنها سرقت البضاعة . إلا عايزة ترجعها وتأخذ الثمن أما بجحة .

— دانا حاخرب بيتك .

— دانا حاوديكى فى داهية .

عليكى العوض يا سيدة ..

فعلها فيكى عباس ..

واختفى .. كأنه فص ملح .. وداب .

(١١)

بارقة عطف !

اندفع الجمع المتكأكئ حول الحانوت يتصايحون وأخذ الزحام والصراخ يشد الناس فى الطريق . وضاعت صيحات سيدة وسط الضجيج . وبدا لها كأن الناس كلهم كانوا ينتظرون هذه اللحظة حتى ينشبوا فيها مخالبهم ويلهبوها بسياط ألسنتهم .. مؤكدين أنهم يعرفون أنها لصة ..

وتملكها اليأس .. وجمد تفكيرها وتبلدت أحاسيسها وأخذت تنظر حولها مشدوهة إلى العيون المحدقة والأفواه الفاغرة .

وصاح أحدهم :

— خذها على القسم .

ورد عبد الصبور وهو يمسك بالسلة المليئة بالبضاعة فى يد ويطبق بالأخرى على ذراعها التى أحس بها لينة مثيرة تحت أصابعه :

— والدكان .

وهتف به آخر :

— سأحضر لها عسكرى .

وتساءل صوت لم تعرف من أين :

— لماذا ؟

ورد عليه عبد الصبور فى تحد :

— لأنها سرقت .

— سرقت ماذا ؟

أجل سرقت ماذا .. ولم يسعف عبد الصبور ذهنه المتبلد بالرد .. ولكنه أجاب صائحا وهو يحاول أن يكلفت صاحب السؤال ويواصل هياجه على سيدة :

— سرقتنى .

ورد عليه صاحب الصوت وقد أخذ يقترب منهما بصوت أكثر وضوحا :

— ماذا سرقت منك ؟

وساد الصمت .. وتطلع الناس فى انتباه إلى الحوار الدائر بين الطرفين .

وأجاب عبد الصبور صائحا فى غيظ وقد أمسك بذراع سيدة وظاهر كفه ملامس لإبطها وأصابعه تكاد تلمس منبت صدرها . وتمنح شعورا خليطا من الإثارة والرغبة فى الأذى :

— سرقت البضاعة .

وبدا لها صاحب الصوت . عندما وصل إلى عبد الصبور . بوجه أرق مما ينم عنه صوته الخشن . وملامح أصغر مما توهم به لهجته .

لم تكن سنه تتجاوز سنها .. كان بغير شك أصغر من عباس ولكنه كان فى مثل طوله ولم يكن شعره مشعثا كالشوك ولا كان أنفه نافشا يملأ صفحة وجهه ولا كانت نظراته متحدية ولا قسماته متجهمة كعباس وغيره ممن تعرفهم . كان وجهه مريحا لطيفا وسيما رقيقا لا يحمل انفعال الخصومة .

ولم تملك سيدة إلا أن ترتاح له .. وأحست من أسئلته أنه يحاول الدفاع عنها . وهو يرى الجميع قد أحاطوا بها يناصبون إياها العداء .

وسأل الفتى الرقيق الوجه الهادئ القسمات عبد الصبور قائلا :

— أية بضاعة سرقتها ؟

— بضاعتى .

وأشار الفتى إلى السلة فى يد عبد الصبور :

— وماذا هذه التى فى يدك ؟

وببساطة وعناد أجاب عبد الصبور :

— البضاعة .

— إذا كانت البضاعة معك .. فماذا تريد ؟

أجل .. ماذا تريد ..

ماذا تريد يا عبد الصبور والبضاعة فى السلة والسلة فى يدك ؟.

تريد أن تستمر فى قبضتك على ذراعها الطرية ومسك جانب صدرها .. ولو أمكن أن تطبق عليها بكلتا يديك وتطرحها أرضا .. وتوسعها ضربا .. وقفشا .. وتفعل بها كل ما تريد ..

ولكن هذا الدخيل .. قد حيرك وهو يسألك ماذا تريد والبضاعة فى يدك ..

وهى فى يدك فعلا .. فماذا تريد ؟

وأجاب عبد الصبور فى عنف وهو ما زال ممسكا بها .

— أريد حقى .

— حقك فى يدك ..

— كانت توشك أن تسرقنى .. أخذت البضاعة .. ولم تدفع الثمن ثم عادت ترجعها ..

— إذن خذها .. واحمد ربنا .

— إنها تريد الثمن .

— إذا كانت لم تدفع .. فلا ترد لها شيئا .

— ولكنها تطالب به .

— دعها ولا تسأل فيها .

— ولكنها تصر .

واقترب الفتى من سيدة وجذب يد عبد الصبور بعيدا عنها قائلا :

— دعها لى ..

وبصوت خافت سألها ببساطة :

— أدفعت له الثمن ؟

ونظرت إليه سيدة ووجدت نفسها لا تملك الكذب عليه وهو يسألها بمثل هذه الثقة واليقين بأنها ستقول الصدق فقالت له بصوت خافت :

ـــ لا .

واستدار إلى عبد الصبور وقال :

ـــ خذ البضاعة ودع البنت لحالها .

وبدا كأن الناس قد اقتنعوا ببساطة بما صار إليه الموضوع .. وهدأت ثائرتهم وبدأت التعليقات تتحول من الثورة إلى اللين :

ـــ خلاص . خذ البضاعة وانهينا .

ـــ ما دامت الحاجة فى يدك .. فلماذا كل هذه الضجة ؟

ـــ يا أخى .. دوشتنا .

وقال عبد الصبور محتجا :

ـــ طيب أتمم على البضاعة .. يمكن حاجة ناقصة .

ثم أخذ يخرج الأكياس ويرصها على الرخامة ثم صاح متحديا :

ـــ ناقص حاجات .

وتساءل الفتى :

ـــ ما هى ؟

ـــ أشياء كثيرة .

وهتفت سيدة مؤكدة :

ـــ لا ينقص سوى علبة السردين وباكو النعناع .

وصاح عبد الصبور وكأنما تذكر :

ـــ أجل .. أجل .. علبة السردين وباكو النعناع .. سرقتهم .. لا بد أن أسلمها للعسكرى .

ورد عليه الفتى ناهرا :

ـــ عسكرى لماذا .. إذا كانت ستعطيك ثمنها .

... هل معها ثمنها ؟

وانتظر الفتى أن ترد سيدة ولكنها هزت رأسها بالنفى .

وعاد عبد الصبور يصيح فى شماتة :

ـــ لن أتركها إلا فى البوليس .

ولكن سيدة أجابت وهى تزدرد ريقها :

ـــ سأعيدها إليك .

وكان عبد الصبور قد أطبق مرة أخرى على ذراعها .

وأردفت سيدة وهى تحاول أن تنتزع ذراعها من قبضته :

ـــ دعنى وسأعود بهما بعد خمس دقائق .

ـــ أبدا لن أتركك .

وبدأ الزبائن يتململون وهم يفقدون اللهفة على متابعة المعركة بعد أن خفت حدتها وصاح به بعضهم :

ـــ خلصنا يا عبد الصبور .

ـــ لن أتركها إلا فى البوليس .. إما البضاعة .. أو القرشين .

وفكر الفتى برهة ثم سأله :

ـــ ثمنهما قرشان ؟

ـــ أجل .

ومد الفتى يده فى جيبه ثم أخرج القرشين وأعطاهما لعبد الصبور قائلا :

ـــ خذ القرشين .

وبدت الدهشة على عبد الصبور وتساءل قائلا :

ـــ وانت مالك .. هى تبعك ؟

وبهدوء أجاب الفتى :

ـــ أجل .. تبعى .

ـــ إذن لمُّوها .. بدل أن تتركوها . تخطف وتسرق .

وقفز عبد الصبور إلى داخل الحانوت بعد أن أخذ القرشين وقذف بالسلة الفارغة إلى سيدة صائحا :

— عرفتك .. يا بنت الحرامية .. لن تعودى إلى استكرادى أبدا .. سأقبض الثمن قبل أن ألف البضاعة ..

وسارت سيدة بالسبت فى يدها مطأطئة الرأس .

لم تصدق أنها نجت .

لم يكن هناك أمل فى النجاة .. بعد أن انهار كل شىء على رأسها ..

كان الناس يوشكون أن يفتكوا بها ..

وفجأة انتهى كل شىء .. انتهت ثورة الناس .. وانصرفوا .. وكأن شيئا لا يعنيهم فى الأمر .. وعاد عبد الصبور إلى حانوته .. وعادوا يتصايحون بطلباتهم ..

وسار صاحبنا بجوارها .

لم تعرف من أين ظهر .. ولماذا فعل ما فعل .. لقد فعله ببساطة من لا يفعل شيئا .. وكأن من المفروض أن يفعله .

وهى الآن مدينة له بالقرشين اللذين دفعهما لعبد الصبور . وهو لا يبدو أنه يريدهما فهو يوشك أن ينصرف عنها بغير كلمة .

وتوقفت لتسأله وهى تحس أنه يوشك أن يتركها ليتجه إلى ميدان المذبح .

— ألا تريد القرشين ؟

والتفت إليها متسائلا :

— هل معك قرشان ؟

— لا .

— إذن لماذا تسألين ؟

— أستطيع أن أعطيك علبة السردين وباكو النعناع .

— من أين ؟

— تركتهما عند المكوجى .

وبدت عليه الدهشة وتساءل :

— لماذا فعلت كل هذا ؟

وأطلقت زفرة يأس وهى تشعر أنها تريد أن تستغرق فى البكاء .. بعد أن نجت مما أوشك أن يحل بها وهزت رأسها قائلة :

— لا أدرى .

— هل تحتاجين لنقود ؟

— أبدا .

— أين تعملين ؟

— أين أعمل ؟

— أجل .. ألا تخدمين عند أحد ؟

— ليس بالضبط .

— ألا تعملين خادمة ؟

— لا .

— هل تعيشين مع أسرتك ؟

— ليس بالضبط .

— ماذا تعنين ؟

— أعنى أنى أعمل .. لأعيش .. أو .. أعيش عندهم .. لأعمل ..

— لا أفهم .

— إنى أخدم باللقمة .. عند الحاج برعى ..

— هل هو قريبك ؟

— كان أبى يعمل عنده قبل أن يموت .

— لك أم ؟

— لم أرها ..

ونظر إليها الفتى فى ضيق ثم قال محاولا أن ينهى النقاش :

— المهم .. لا تعودى إلى ما فعلت اليوم فلن تفلتى من العقاب بعد ذلك .

أجل لن تفلت من العقاب .. لأن الناس يكرهونها .. ليس بينها وبين إنسان على ظهر الأرض .. شعور طيب ..

أول مرة تحس أن إنسانا ما يمنحها هذا الشعور الطيب .. ويقف إلى جوارها ويصد عنها أذى .

وهى توشك أن تعود مرة ثانية .. إلى حقل الكراهية .. والأنانية ..

وتملكها إحساس مرير بالضياع .. واليأس .. وتمنت لو استطاعت أن تندفع فى البكاء .. إنها تريد أن تمسك بشىء يجرها من بؤرة الكراهية التى تعيش فيها .. ليس هناك من يمنحها كلمة طيبة أو شعورا طيبا .. الكل يريدون منها أن تعمل من أجلهم .. وعباس لا يعاديها .. ولكنه يعتبرها أداة لما يريد ، ينفض يده منها عندما لا يحتاج إليها .

ونظر إليها الفتى نظرة أخيرة وتساءل قائلا :

— هل تريدين شيئا ؟

وأطلقت سيدة زفرتها المرورة ثم ردت فجأة :

— هل أستطيع أن أعمل عندكم ؟

— تعملين ماذا ؟

— خادمة .

— ولكن ماذا يقول أهلك ؟

— ليسوا أهلى .

— أعنى أولئك الذين تعملين عندهم .

— لن يقولوا شيئا ..

— كيف ؟

— لا أظن غيبتى تزعجهم كثيرا .

— وهل تريدين أنت العمل كخادمة ؟

— إنى أعمل أسوأ من خادمة .. أعمل كل شىء ولا آخذ شيئا .

وبدت على الفتى نظرة حيرة .. ولم يعرف بماذا يجيب .. فالمسألة فى غير اختصاصه فهو لا يعرف ماذا ستقول أمه .. لو ذهب إليها بالفتاة .. وأخبرها أنه أنقذها من البقال بعد أن كانت توشك أن تسرقه .

لن تقبلها أمه .. وستتهمه بالخيبة والعبط كعادتها .

ولكن أمه فى حاجة إلى خادمة .. لقد ذهبت زكية إلى البلدة لتتزوج وقد سمع أمه توصى المعارف والأقارب بإحضار خادمة .

ولكنها لم توصه هو .. فليس هذا من شأنه . وهو لا يدرى عن هذه الأمور شيئا .

وعادت سيدة تنظر إليه فى استكانة قائلة وهى تغالب دموعها :

— إنى لم أفعل ما يسيئكم .. وأنا أعرف كيف أغسل وأكنس وأمسح ..

وبدا التردد على وجه الفتى .. وتمتم قائلا :

— ولكنى لست ذاهبا إلى البيت .

لا فائدة يا سيدة .. قد حكم عليك بالسجن والأشغال الشاقة فى بيت أم عباس ..

لن يتغير مصيرك .. حتى تموت أم عباس .

لقد منحك الله بارقة عطف .. فى حياتك المليئة بالكراهية .. ولكنه يأبى إلا أن يطفئها .. فصاحبها لا يريد أن يتيح لك فرصة تجربة جديدة بين أناس .. قد يكونون مثله .. يعرفون المحبة .. ويتعاملون بالود .

وسألته وهى توشك أن تعبر الطريق متجهة إلى الزقاق :

— ألا تريد علبة السردين وباكو النعناع ؟

وبلا تفكير أجابها وهو يهم بالمسير :

— خذيهما لك .. ولكن لا تعودى مرة أخرى إلى ما فعلت .

وأجابت « حاضر » مصحوبة بزفرة اليأس المريرة .

ولم تكد تسير خطوتين حتى سمعت صوته الضخم الذى لا ينم عن وجهه

الرقيق يهتف بها :

— اسمعي .

والتفت إليه بسرعة وأجابت فى لهفة :

— نعم .

— ما اسمك ؟

— سيدة .

— اسمعي يا سيدة .. سأذهب بك إلى البيت .. وسأريك لأمى .. وهى وشأنها معك .. تأخذك أو لا تأخذك .

وأحست سيدة كأن باب فرج قد فتح أمامها .. وأجابت فى ثقة :

— سأفعل كل ما أملك لكى أرضيها .

واستطرد الفتى يقول محذرا :

— ولكنى لن أذكر لها شيئا عن الحادثة .

— كتر خيرك .

— وسأقول لها إنى صادفتك تبكين فى الطريق لأن الذين تعملين عندهم ضربوك وطردوك .. مفهوم ؟

— مفهوم .

— هيا بنا .

وغير الفتى اتجاهه عائدا إلى البيت متجها فى شارع السد حتى وصل إلى وابور الرمالى ثم عبر الباب الحديدى العريض ، ودلف فى الطريق الذى تخرج منه عربات الخبز وشوالات الدقيق .

ترى ماذا ستقول أم عباس عندما تتأخر عودتها ؟ ستهدد بالطبع وتنـذر كما تعودت أن تنذر ..

ولكن ماذا ستفعل عندما تكتشف أنها لن تعود ؟..

أغلب الظن أنها ستستريح .. فهى رغم كل ما تقوم به لها من خدمة .. قد

باتت تكره وجودها .. بعد أن تحولت إلى هذا الشكل الجديد .. ذى الصدر والردفين .. إنها تخشى على عباس أن يتورط معها . وتكره أن ينظر إليها الحاج برعى .. أو يتلطف معها .

وعباس ماذا سيفعل ..

عباس .. لا يحمل له هم .. لأنه لا يحمل هما .. إنه يذكر الناس عندما يراهم .. أو يحتاج إليهم .. وهو من غير شك سينساها ما دام لا يرى لها وجها .. وسيشغل عنها بكل ما يمارسه من خطايا وذنوب ..

أما الحاج برعى .. فلا شك أنه سيجزع لغيابها .. ولكن جزعه لن يطول .. لأن المطبعة وشغل المطبعة وزبائن المطبعة .. وعمال المطبعة كفيلة بأن تشغله عنها وعن أية محاولة للتفكير فيها .

بعد بضعة أيام لن يذكرها أحد .. فنحن لا نُذكر فى هذه الدنيا إلا الذين يشغلوننا .. يتحركون حولنا .. ويؤثرون على مصيرنا .. أما الذين يقبعون فى الذاكرة فمصيرهم إلى الزوال .. لأن الذاكرة تطوى مع الزمن ما يرقد فيها تأكله يوما بعد يوم .. حتى يكاد ينقرض .. إلا بقايا كأنها الرفات أو الأطلال .

فلتقدم إذن على حياتها الجديدة .. ولتقرر مصيرها .. فهى وحدها القادرة على ذلك ..

أجل لن تعود إلى بيت الحاج برعى .. فإن أى شقاء يمكن أن تصادفه أهون من حياتها هناك .. إنها لن تعدم لقمة العيش .. والرقدة على الحصير .. وليس لديها ما تحرص أو من تحرص عليه فى حياتها خلال السنوات الطويلة التى قضتها فى خدمة أم عباس .

ليس فى ذهنها ذكرى طيبة .. تحرص على استرجاعها ، ولا فى قلبها إحساس طيب تحرص على استبقائه .

واختلست النظر إلى الفتى السائر بجوارها .

كان يسير فى خطى حثيثات . كأنه يريد أن يلقى من فوق كاهله عبئا يريد أن

يتخلص منه .

وسارت تهرول بجواره وخلفه قليلا . ولم يبد عليه أنه يعبأ كثيرا بشخصها .

عجيب !.. ما الذى جعله يتحمل كل هذه المشقة من أجلها ؟

لماذا حشر نفسه فى المشكلة . إذا كان لا يعبأ بها بهذا القدر ؟

لم يحاول أن يفحصها .. أو يزن صدرها بعينيه كما يفعل الآخرون . لم يحاول أن يتحسسها بنظراته . كأن هذا التكوين الذى كان يجذب أنظار الشارع كله .. لم يكن يعنى لديه شيئا .

لماذا انطلق صوته العريض .. ليهتف بعبد الصبور عندما اتهمها بالسرقة « ماذا سرقت » ؟

إن شكله نظيف .

بعض الناس تجدهم كأنهم لم يستحموا منذ عام .. كعباس . ولو كان خارجا فى نفس اللحظة من الحمام . فهو يبدو لك وكأنه مترب .. أو مهبب .

وبعض الناس تجده نظيفا .. دائما .. فيبدو كأن الله قد دعكه جيدا .. ودفع به إلى الكون نظيفا لا يحتاج إلى حمام . مثل هذا الفتى الذى تسرع الخطى بجواره كأنه يريد أن يخلص منها ويقذف بها إلى أمه .

ترى من يكون ؟ إنها لا تعرف عنه شيئا حتى اسمه .

هل تسأله ؟..

لا داعى .. فليس هذا وقته .. فقد ينهرها .. ولو أنه يبدو وكأنه لا يستطيع أن يخذل أحدا .

على أية حال .. ستعرف اسمه بعد برهة .. عندما يذهب بها إلى بيتهم .. فلا بد أن تناديه أمه .. أو أى إنسان آخر فى البيت .

المهم .. لماذا تجشم كل هذه المشقة من أجلها ودخل فى هذه المناقشة الطويلة مع عبد الصبور . رغم أنه فيما يبدو ليس خاليا .. وأنه لم يكن يسير متسكعا .. حتى يشغل نفسه بسارقة أمام دكان بقالة ..

ولقد بدا عبد الصبور مضحكا خلال مناقشته معه . رغم ما كان يراه الناس من حقه .. ورغم أنهم وقفوا جميعا معه ضدها .

كان مضحكا عندما سأله بعد أن اتهمها بسرقة البضاعة منه .. عن هذا الذى يحمله فى يده . فأجاب إنها البضاعة .

وكان مضحكا عندما قال إنها تريد أن تسترد الثمن فرد عليه ببساطة .. لا ترده إليها .. وينتهى الأمر .

وأحس الناس الذين أحدثوا كل هذه الضجة أن المسألة لا تستحق .. وبدت كأنها زوبعة فى فنجان .

لا شك أنه عاقل .. فقد أنقذها ببساطة .. وبغير ضجة .

ولكن لماذا لا ينظر إليها ؟..

ودت لو أن شيئا فيها يعجبه .

ولكن .. لا يبدو أنها تعجبه أبدا ..

طبعا .. أليست فى نظره .. حرامية .. إنه هو أدرى من غيره فقد اعترفت له .. ببساطة .

ولكن لماذا اعترفت له ؟

لأن شيئا ما .. يدفعها إلى الاطمئنان إليه والثقة فيه .

نحن نكذب عندما نخاف .. فإذا لم نخف .. فلن يكون هناك ما يدعونا للكذب .

قالت له إنها لم تدفع الثمن .. لأنها تعرف أنه لن يؤذيها . وهو فعلا .. لم يؤذها .. ولم يلمها .

كل ما قاله إنه حذرها أن تعيد ما فعلت لأنها لن تضمن النجاة .

ولقد حاول ـ أكثر من هذا ـ أن يسترها .. عندما قال إنه لن يقول لأمه إنها سارقة .

لماذا كل هذا ؟

لماذا يحاول أن يخدع فيها أمه ؟.. إنه لا شك يؤمن بأنها غير شريرة .. ومظلومة .

فهو يتدخل من أجلها .. ويقول إنها تبعه .. ويدفع عنها القرشين ثم يحاول أن يسترها أمام أمه عندما يقبل أخذها إلى البيت .

كل هذا .. وهى لا تعجبه .

إنه فقط يريد أن يساعدها لأنها مظلومة ..

مخلوق عجيب !.

وياما عجايب فى هذه الدنيا .

ولكن لا بد أن تكون هناك مخلوقات كثيرة طيبة مثله .. ولكنها قط .. لم تصادفها ..

وكانت تسير طول هذه المدة وسط الطريق الذى يخترق وابور الرمالى والذى كانت تذهب إليه بالصفيحة تملأها من أكوام التراب الذى يحمل الدحريج وكناسة القمح . الذى تفرشه للفراخ لينقروا فيه ويلتقطوا ما يجدونه من حب .

وكانت ماكينات الطحين تدور فى طرقات متوالية وعمال المطحن يخرجون من أبواب وعلى رءوسهم الشوالات التى تغطيها كالطراطير وتنزلق على أكتافهم كالعباءة القصيرة وقد عفر الدقيق وجوههم وأذرعهم العارية وهم يدفعون العربات الصغيرة ذات العجلة الواحدة التى تحمل شوال الدقيق لينقلوه إلى المخابز .

وعبرت الطريق إلى الباب الآخر المفضى إلى جنينة ناميش . واتجهت يمنة ثم يسرة .. حتى انتهى بها المطاف أمام بيت ذى باب خشبى متسع تعلوه شجرة توت كبيرة . ودلفت منه إلى فناء عريض أحيط بالأشجار وبدا البيت كأنه بيتان كل منهما ثلاثة أدوار .. يصل بينهما معبر ذو نوافذ زجاجية ملونة واتجهت يسرة وراء الفتى إلى المبنى القائم على اليسار وصعدت السلم العريض الذى يفضى إلى الدور الأول المطل على الفناء .

وكانت الشمس ثد أخذت ترتفع فى الأفق .. والجو خريف معتدل .. ترطب من حرارة الشمس فيه .. نسمة بحرية تهب بين الحين والحين .

ووقفت سيدة وراء الفتى فى فراندة مربعة يفضى إليها السلم العريض .. وهو يطرق الباب .. وصوت نسائى يجيبه من الداخل :

— حاضر .

وفتح الباب وبدت وراءه سيدة طيبة القسمات نظيفة الوجه كالفتى وسألته فى دهشة :

— حمدى .. ماذا بك ؟

إذن فاسمه حمدى .. لم تستغرق المسألة وقتاً لاكتشافها وأجاب حمدى قائلا وهو يطمئن السيدة :

— لا شىء .

— إذن لماذا عدت ؟

وأجاب مترددا :

— لأنى ...

ثم تنحى جانبا حتى يتيح لأمه أن ترى ما جلب .

وزادت دهشة أمه وهزت رأسها متسائلة :

— ما هذه .

— تريد أن تعمل عندنا .

— وأين عثرت عليها ؟

— عند البقال .

— ولماذا أحضرتها ؟

— وجدتها تبكى لأن أصحاب البيت الذين كانت تعمل عندهم ضربوها وطردوها .

لقد كذب إذن .. بالأمر الخطير .. فمن أجل منع شرور أكبر .. يمكن أن

يرتكب شرا أصغر .. والكذب هنا .. شر أصغر مما كان يمكن أن يعرضها له لو قال الحقيقة .

ما علينا .. لنسمع بقية الحوار بين الفتى وأمه .

و لم يبد الارتياح على أمه ونظرت إليها فى تشكك متسائلة :

— ولماذا طردوها ؟

ونظر إليها حمدى .. وكأنه يحول السؤال عليها .

و لم تعرف بماذا تجيب .

لماذا طردت .. المفروض أن تقول إنها لم ترتكب ذنبا وإلا لما غامرت السيدة بقبولها .

وهمت بأن تفتح فاها ولكن حمدى وفر عليها الحديث قائلا :

— أظنها وقعت حاجة كسرتها .. ويظهر أنهم ناس مزعجين .. وأنت كنت وصيتى على واحدة .. فقلت قد تنفعك .

ووجهت السيدة إليها نظرة فاحصة .. ثم تساءلت فى بساطة :

— من الذين كنت تعملين عندهم .. يا شاطرة ؟

و لم تدر سيدة ماذا تقول .. هل تقول الحقيقة .. أم تخترع أكذوبة ..؟

و لم تجد هناك ما يدعو إلى الكذب . إنها كانت تعمل .. والذين كانت تعمل عندهم ناس مزعجون فعلا .. فهى لا تظن أن هناك أحدا يمكن أن يكون أكثر إزعاجا من أم عباس . ولقد كسرت ذات مرة طبقا وضربتها أم عباس ضربا مبرحا .

وردت سيدة ببساطة :

— كنت أعمل عند الحاج برعى .

— ماذا يعمل ؟

— صاحب مطبعة وورشة تجليد .

— وساكنين فين ؟

— فى شارع السد .

وعادت السيدة تنظر إليها نظرة فاحصة ثم سألتها فى قلق قبل أن تأذن لها فى الدخول :

— ألن يتضايق الناس الذين كنت تعملين عندهم .. إذا ما اشتغلت عندنا ؟!

ليتضايقوا كما يشاءون .. لقد ضايقوها بما فيه الكفاية .

وردت سيدة ببساطة :

— إنى حرة أعمل حيث أشاء .

وتساءلت السيدة :

— وأهلك ؟

— ليس لى أهل .

— أليس لك أب ؟

— ولا أم .. ولا أحد أبدا .

وبدت نظرات العطف فى عينى السيدة وتراجعت إلى الداخل وهى تقول :

— ادخلى يا بنتى .. إن شاء الله تستريحى عندنا .

وأحست سيدة أنها قد اجتازت امتحانا عسيرا .. وبدا لها وهى تجتاز الباب إلى الداخل .. أنها تعبره إلى مستقر يؤويها من الضياع والوحشة .

لقد منحتها أم حمدى نفس الإحساس الذى منحه إياها الفتى .. إحساس الثقة والارتياح .

لقد بعث وجه السيدة الرقيق الطيب النظيف فى نفسها شعورا بالأمان .. وملأتها لهجتها إحساسا بالطمأنينة ... لم تجد أثرا لتلك القسوة التى تشيعها أم عباس فى كل ما حولها .

ووقفت سيدة فى حجرة الجلوس التى أفضى إليها الباب . كانت بها أريكة ومنضدة .. ومقعدان كبيران وباب يؤدى إلى حمام وآخر إلى صالة فسيحة .

وأقبلت فتاة من ناحية الصالة يبدو وجهها كأمها رقيقا طيبا ونظرت إليها نظرة

مستقرة ..

وقالت الأم مشيرة إلى سيدة :

— حمدى أخوك قابلها وهو فى طريقه إلى بيت جده .. ووجدها تريد أن تعمل فأحضرها معه .

وهشت الفتاة فى وجهها مرحبة وقالت فى بساطة ورقة :

— ما اسمك يا شاطرة ؟

— سيدة .

— اشتغلت من قبل يا سيدة ؟

— أجل .. أستطيع أن أمسح وأكنس وأغسل .. وأعمل كل شىء .

— هائلة .. ستساعديننى إذن .. لقد مضى أسبوع علينا .. وأنا أقوم بالبيت وحدى ..

ونظرت الأم إلى سيدة وإلى ثيابها المهلهلة وشعرها المشوش وقالت لابنتها :

— خذيها إلى الحمام يا سميحة تنشطف وتسرح شعرها .. وأعطيها شيئا من عندك تلبسه .

— حاضر يا نينة .

ثم التفتت سميحة إلى سيدة وجرتها من ذراعها قائلة :

— تعالى يا سيدة معى . لقد كنت أعرف أن ربنا سيفرجها .. إن شاء الله تستريحى عندنا .. ولا تتركينى حتى تتزوجى .

أمرهم عجيب هؤلاء الناس ..

إنهم يتمنون أن تستريح عندهم .. كأن لها حق الراحة ..

لقد بات ارتياحها أمرا يهم بعض الناس .. وهم يسألونها أن تغتسل وتمشط شعرها .. وتبدل ثيابها .

وهذه الفتاة الرقيقة تعتبر وجودها فرجا من عند الله .

ونظرت سيدة إلى سميحة وهى تسير بجوارها متجهة إلى الحمام قائلة لها :

— ادخلى اغسلى وجهك حتى أحضر لك غيارا .

ثم التفتت إليها متسائلة :

— هل أفطرت ؟

وذكرت سيدة أنها لم تتناول لقمة حتى هذه الساعة .. وتذكرت علبة السردين وباكو النعناع اللذين تركتهما عن خليل المكوجى والتفتت إلى سميحة وهزت رأسها بالنفى .

وقالت سميحة وهى تتجه خارجة من الحمام :

— سأصنع لك ساندوتش جبنة . وبعد أن تأكلى سأريك البيت وأريك ماذا ستفعلين ..

— حاضر .

واستقرت سيدة فى الحمام ..

إنه حمام متسع نظيف ذو سقف أشبه بالقبة تطل منه فتحات زجاجية ملونة .

وأطلقت سيدة تنهيدة راحة طويلة ..

لقد تمنت الفتاة الرقيقة لها أن تستريح عندهم وأن تبقى حتى تتزوج .. هذا شىء جديد عليها .. شىء غير ما وجدته فى بيت أبيها مع دلال وغير ما وجدته فى بيت برعى مع أم عباس .

إنها لا تكره العمل .. ولكن تكره الإرهاب . تكره الكراهية .. والإذلال .. تكره أن تشعر ممن حولها بأنها لا تزيد على أداة تستعمل فى خدمتهم دون أن تستحق كلمة حنان أو بسمة عطف .. ودون أن يكون لها حق فى اللقمة الطيبة .. والهدمة النظيفة .. والشعور بالراحة والأمان .

ولكن هنا تبدو الأمور مختلفة .. هنا تبدو الوجوه طيبة .. والقلوب رقيقة .. والنظرات هاشة .. والكلمات رحبة .. هنا لا تشعر أن هناك من يرهبها .. أو يخيفها .. هنا تشعر أن لها حقوقا .. حتى قبل أن تؤدى ما عليها من واجبات .

ترى هل ستتركها أم عباس ؟

ولم لا .. إنها حرة فى أن تعيش أينما تشاء .

ثم من أين ستعرف أم عباس أين هى ؟

(١٢)

لو أن شيئاً فيها .. يعجبه !

استقرت سيدة فى مقرها الجديد ببيت الأستاذ محمد السمادونى .. فى جنينة ناميش .. البيت الفسيح ذو التوتة المورقة تظلل مدخله .

ولم يكن العمل سهلا .. كان عليها أن تقوم بنفس الأعمال التى تقوم بها فى بيت الحاج برعى .. من كنس ومسح وتنفيض وغسيل وقضاء حاجات المنزل من السوق .. وكان عليها أن تبذل نفس الجهد إن لم يكن أكثر .

ومع ذلك فقد كانت — بغير جدال — تشعر أنها أسعد حالا .. وأنعم بالا .. وأكثر استقرارا وأقل ذعرا .. فقد كانت تمارس عملها كأنها أحد أفراد البيت .

لم تكن تشعر ممن حولها بإرهاب السيادة .. أو قسوة السلطة .

ولم يعن ذلك .. أنها لم تكن تشتم أو تضرب . فقد كان الأمر لا يخلو من زغدة .. من قرصة .. أو سبة من ربة البيت .. وصاحبة السلطان فيه .

ولكن من الذى نجا .. من قرصاتها وسبابها من أهل البيت ..

فى زحمة العمل .. وحدة الانفعال . كان يتساوى أمامها « سى محمد » رب البيت .. وسيدة .. خادمته .. كان يمكن للسيد أن ينعت .. « بالمخبل » .. وكانت صفة الابن المختارة « المدهول » .. أما الابنة فكانت تكنى بـ « اللى تنشك » .. ويبقى بعد ذلك لسيدة نداء « اللى تنقصف » .

ولم تجد سيدة فيما ينالها شيئا يسبب لها الخوف .. أو المذلة .. فكان السباب ينطلق موزعا على أهل البيت كأنه نداءات طبيعية لم يكن لها بديل .. وكان القرص والزغد .. تعبيرات عن انفعالات مؤقتة .. لا تسبب ألما .. للواقعة عليه .. أكثر مما تسبب تفريجا لانفعال الواقعة منه .

المهم أن سيدة باتت تشعر أنها جزء من هذا البيت الذى تعيش فيه .. تشارك أهله كل مشاعرهم وانفعالاتهم . حتى هذا العمل الذى كانت تمارسه فى خدمتهم .. كانت تؤديه بالمشاركة مع أهل البيت . كانت الأم والابنة تقومان بنصيبهما فى نظافة البيت وترتيبه .. وكان الابن يشارك فى أداء ما يحتاج أداؤه إلى قوة كتنفيض الأبسطة .. أو نقل الأثاث الثقيل .. أو الخروج لشراء بعض المشتريات عندما تكون سيدة مشغولة بالغسيل .

ولقد مرت الأيام الأولى بسيدة .. وإحساس الغربة يتملكها .. من المكان .. وأهله .. ولكنها لم تلبث حتى ألفت كل شىء .. واستراحت إلى كل شىء .. وعرفت كل شىء ..

عرفت أن الأب « سى محمد » كما كانت تسميه الأم .. أو « بابا » كما يسميه الابن والابنة ، أو الأستاذ كما يسميه الزوار .. أو سيدى كما تسميه هى .. يعمل فى الجرنان .

ولم تعرف فى أول الأمر .. ماذا يقصدون بأنه يعمل فى الجرنان .. ولكنها عرفت مع الأيام أنه يكتب أشياء تطبع على هذه الأوراق الكبيرة فى مطبعة كمطبعة برعى . وكان يحضرها كل أسبوع ويسلمها « لحمدى » ليقطع منها إحدى الصفحات ويضعها فوق غيرها من الصفحات المرصوصة فى دولاب الكتب الموضوع فى حجرة الجلوس . والتى وضعت الكتب ذات الأحجام المختلفة على رفوفه .

وكانت ترى سى محمد وهو يؤلف فى بعض الأحيان . عندما يجلس ليخط حروفا كثيرة على الورق ثم يطويها فى النهاية ويذهب بها إلى الجرنان ليطبعوها على الصفحات . وقد رأت مرة صورته على إحدى هذه الصفحات عندما كانت تدعك الزجاج بورق الجرنان . وقالت لسيدتها فرحة وهى تنشر الصحيفة فى يدها :

— شايفة يا ست .. صورة سيدى .

وضربت الست بكفها على صدرها قائلة فى جزع :

ـــ يا حوستى .. من أين أخذت هذا الجرنان ؟

ـــ من المطبخ .

ـــ من الذى وضعه هناك ؟

ـــ كان موجود مع غيره من الجرانين .

ـــ طب هاتى .. لحسن سيدك يدهول أملنا .

وتناولت منها الجرنان لتضعه فى دولاب الكتب فى حذر كأنها تضع شيئا ثمينا يخشى عليه .

ولم يكن هناك شك فى أن سى محمد هو وأشياؤه .. أقيم ما فى البيت .

وكان بقدر ما يعمل له حساب .. بقدر ما يعمل هو حسابا لربة البيت . فهو يخافها ويخشاها .

كان سى محمد رجلا .. ليس كبقية الرجال .. ليس كأبيها .. أو كبرعى أو أى رجل من هؤلاء الذين تعرفهم .. قد يكون خليطا منهم جميعا .. ولكنه فى مجموعة .. نسيج وحده .. طويل عريض .. أحمر الوجه أبيضه .. يلـعب بالحديد .. كأنه مصارع أو ملاكم .. ويرى كل صباح عارى الجسد منهمكا فى رفع ذراعيه بالأثقال الحديدية .. ثم يثنيهما ويفردهما بالسلك ذى اليايات .. وكأنه مكلف بمهمة خطيرة لا بد أن يؤديها .

وتنادى الست فاطمة ابنتها متسائلة :

ـــ أبوكى فين يا سميحة ؟

ـــ بيلعب يا ماما .

وتمر به فاطمة وهى تمصمص بشفتيها فى أسى قائلة :

ـــ كفاية بقى .. عليك من ده بإيه ؟

ولا يسأل فيها سى محمد ويستمر فى ألعابه . وعندما ينتهى منها ينطلق من حجرته إلى الحمام عاريا .. وتصيح الست فاطمة فى جزع :

ـــ يا فضيحتى ..

وتسرع لتغلق النوافذ المفتوحة وهى تصيح بسيدة :

ـــ اقفلى شباك الصالة يا سيدة .. الجيران تقول علينا إيه .

ولا يلقى سى محمد بالا إليها ولا إلى الجيران بل يأخذ الدش البارد وهو يرفع عقيرته بالغناء :

ـــ يا نور العيون آنست ..

وعندما ينتهى من الدش ويغرق الأبسطة وهو ما زال يصيح مغنيا :

ـــ يا مانت واحشنى وروحى فيكى .

والأم تصيح بسميحة :

ـــ الحقى أبوكى بالبشنكير .. قبل ما يغرق البساط .

وتخطف سميحة البشكير وتعدو وراء أبيها وهى تضحك قائلة :

ـــ هو لسه حا يغرق البساط .. ده غرق الدنيا بحالها .

وتناول أباها البشكير قائلة :

ـــ إيه يا بابا اللى انت عملته ده ..

ويرد عليها الأب ببساطة :

ـــ استحميت ..

ـــ دانت غرقت الدنيا .

ـــ دلوقت تنشف .

ويسمع صراخ الست فاطمة فيتساءل فى دهشة :

ـــ الولية أمك بتصرخ ليه ؟

ـــ عشان خرجت من الحجرة عريان .

ـــ وفيها إيه ؟

ـــ الجيران يشوفوك .

ـــ ويشوفونى ليه ؟

ـــ عشان الشبابيك مفتوحة .

ـــ شبابيك مين ؟

ـــ شبابيكنا .

ـــ وهم ليه يبصوا فى شبابيكنا ؟

ولا تعرف سميحة كيف ترد عليه فتجيبه فى حيرة :

ـــ أنا عارفة بقى .. أهم بيبصوا ..

ـــ يبقى خليهم يشوفوا ..

وقبل أن يعاود الغناء يقول فى إصرار :

ـــ أنا حر فى بيتى ..

هكذا كان سى محمد يهوى لعب الحديد والغناء والعرى .. والمزاح .. وتسمية الناس بأسماء مستعارة ..

كان يسمى ابنته سميحة بالشيخة زبيدة .. وأمها بالست ناصحة .. وكان يسمى حمدى ابنه بصبى الخمورجى .. وسيدة بصبية العالمة .. وكان لا يعرف أباه إلا بالمحسبانجى .. وأخته سنية بالدهلة .

ولم تستطع سيدة أن تدرك سببا لهذه الأسماء كلها .. ولكنها استطاعت مع الوقت أن تعرف بماذا يقصد منها .

وكان سى محمد الوحيد فى البيت الذى ينظر بإدراك إلى هذه الامتلاءات فى جسدها . وعندما كانت تسير أمامه مهتزة مترجحة كان يقول لها ضاحكا :

ـــ لمى جتتك يا بنت .. خسارتك فى الخدمة ..

وتنهره الست فاطمة قائلة :

ـــ إيه اللى بتقوله ده يا راجل ..؟

ـــ بقول كان ممكن أن يكون لها مستقبل فى درب العوالم ..

وتصيح فاطمة ناهرة سيدة بقولها :

ـــ فوتى على المطبخ .. شطبى الصحون ..

ثم تنظر إلى سى محمد صائحة :

ـــ قلت لك ميت مرة .. بطل هزار .. ما تفتحش عين البنت .

ـــ ما تخافيش .. عمر عينها ما تفتح طول ما قاعدة مع ناس مخبلين زيكم .

واستطاعت سيدة أن تعرف مع الأيام أن الست فاطمة تغالط سى محمد فى الحساب . كانت تحاسبه على مصروف البيت مضاعفا .. وتحاسبه على أشياء لم تشتر .. لأنها كانت مصرة على أن تجمع القرش الأبيض الذى ينفع فى اليوم الأسود .. لأن سى محمد كان يؤمن بحكمة اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب .. بل لقد كان أحيانا .. يصرف ما فى الغيب قبل أن يدخل الجيب .

ولقد وقعت الست فاطمة فى مطب مضحك عندما أرسل لها الجد أو سيدى الكبير كما كانت تسميه سيدة . لفافة من حانوته الكائن فى الغورية مع أحد الصبية . وظنت الست فاطمة أن ما باللفافة هدية من الحاج عبد الرحيم كبقية الهدايا التى تعود أن يرسلها من آن لآخر . وكانت اللفافة تحوى خمس لوفات وكيسا به خيار وجوز هند .

وأدخلت الست فاطمة ما أرسله الحاج فى كشف الحساب على أنها مشتريات اشترتها . وهى واثقة أن الحاج عبد الرحيم لم يتعود أن يسرد على ابنه ما يرسله من هدايا بين آونة وأخرى .

وجلس سى محمد يستمع إلى كشف الحساب ومن بينه اللوف والخيار وجوز الهند وتساءل ببراءة :

ـــ هل اشتريت لوف ؟

ـــ أجل .

ـــ وخيار ؟

ـــ أجل .. وجوز هند أيضا .. ألا تصدق ؟

ثم استدارت تنادى سيدة :

ـــ سيدة .. هاتى جوز الهند والخيار واللوف ووريهم لسيدك .

وأحضرت سيدة اللفائف ووضعتها أمام سى محمد .

وسألت الست فاطمة فى تحد :

— أرأيت .. وصدقت ؟

— عجيبة !

— ما هى هذه العجيبة ؟

— مصادفة عجيبة .

— ماذا تقصد ؟

وابتسم سى محمد وقال ببساطة :

— لأنى اشتريت لكم لوف وجوز هند وخيار .. وتركته فى دكان أبى لكى يرسله إليك .. ولكن يبدو أنى أشطر منكم فى الشراء لأنى اشتريتها بنصف الثمن .

ونظرت ست فاطمة إليه بغيظ وهى تقول :

— وهو لما انت اللى شاريها .. لماذا تركتنى أروى لك كل هذا الكذب ؟.

— مجرد تسلية .

— أصلك فاضى .. على العموم أنا دخلتها فى الحساب .

— كان !!.. يعنى أشتريها . وأدفع لك ثمنها .. مضاعف .. هذا يسمى .. نصب .

— نصب .. نصب .. دخلوا الحساب وخلاص .

— يا ولية بطلى .

— أهو متحوش لولادك .. محدش عارف الدنيا .

وهكذا كانت ست فاطمة تعامل سى محمد .. تحاول أن تستحوذ على أكبر قدر من نقوده قبل أن يضيعها .. وكان هو يعاملها بالمثل يحجز عنها أقصى ما يستطيع حجزه مما لا تعرفه من موارده .

واكتشفت سيدة الأمر عندما وجدت حمدى، يقبل على أبيه فرحا وقد أمسك

بإحدى المجلات وهو يصيح :

— بابا .. قريتلك قصة فى مجلة الأسبوع .

وكانت الأسرة تجلس قبل المغرب فى حجرة الجلوس التى تفضى إلى السلم الخارجى المتصل بالفناء الذى تغطى التوتة مدخله وكان الشتاء قد أقبل وأوراق التوتة قد أخذت تتساقط وريح خفيفة تعبث بالأوراق المتساقطة فى الفناء والأب قد ارتدى ملابسه ودفع قدمه بالبليسة فى الحذاء ووقف مستعدا للخروج لقضاء سهرته المعتادة خارج البيت .

وأرهفت الأم سمعها إلى قول حمدى وهى توقف الإبرة التى ترتق بها أحد الجوارب فى انتظار رد الأب .

وكانت سميحة تجلس بجوار أمها على الكراوية وجلست أمامهما سيدة تتشاركانَ فى تنقية الأرز .

وهم الأب بالخروج متجاهلا قول حمدى ، ولكن الأم تساءلت :

— مجلة إية ؟

ورد حمدى ببراءة :

— الأسبوع .

وعادت الأم تتساءل :

— منذ متى تكتب فى الأسبوع ؟

وتساءل الأب مستنكرا :

— أسبوع ؟!!

ورد حمدى دون أن يفهم سبب استنكار الأب :

— لقد اشتريتها .. إنها موجودة عندى .. لقد قرأت القصة .. إنها قصة ..

— لا بد أنها قصة قديمة نشروها ..

— بل جديدة .. إننى لم أقرأها من قبل ..

وبحزم وإصرار .. انطلقت الأم إلى هدفهاالرئيسى من كل ما سمعته قائلة

باختصار :

ــ أين حسابها ؟

ــ أى حساب ؟

ــ حساب القصة التى نشرت فى المجلة .

ــ لا أعرف عنها شيئا .. لا بد أنهم نشروها دون أن أعرف .

ــ كيف ؟

ــ نقلوها من القصص التى نشرت من قبل .

ــ ولكن حمدى يقول إنها جديدة !

ــ حمدى حمار ..

وأحس حمدى بما فعله من سوء تفاهم .. وكان يحب أباه ويكره أن يضايقه فأسرع يحاول استدراك ما فعل .

ــ أجل .. أجل .. لقد تذكرت الآن .. لقد سبق أن قرأتها فى البلاغ الأسبوعى .

وأسرع الأب يقول متعلقا بطوق النجاة الذى قذف به حمدى بعد أن كاد يغرقه :

ــ ألم أقل لك إنها قديمة ..

وقلبت الأم نظرها بين الأب والابن قائلة :

ــ طبعا .. لن أقدر عليكما .. ولكن مسيرى أعرف .

وضحك الأب فقد كان واثقا أنها لن تستطيع أبدا أن تضبط هذه الموارد الخافية .. لسبب بسيط .. هو أنها لا تعرف القراءة .

وخرج الأب وخرج وراءه حمدى وسمعته سيدة وهى فى طريقها إلى المطبخ يهتف به فى غيظ :

ــ يا غبى .. كنت ستودى بنا فى داهية .

ــ لم أكن أعرف أنك تكتب فى غير البلاغ .

ــ وعرفت الآن ؟

ــ أجل .

ــ إياك أن تدخل هذه المجلات البيت .. وإلا ضاع المورد الذى تخفيه عن سيطرة أمك .

وهكذا كان سى محمد .. يحجز بعض موارده بعيدا عن سلطان الست فاطمة .. ليصرفها بحرية على شئونه الخاصة .

ولقد أدركت سيدة أن هذه الشئون الخاصة يمارسها فى سهراته منذ أن يخرج بعد الظهر حتى يعود حوالى منتصف الليل .

وقد عرفت أنه يشرب قليلا ..

عرفت هذا من أبيه الحاج عبد الرحيم نفسه عندما كانت تشكو إليه الست فاطمة من ابنه محمد قائلة :

ــ أنا أعرف أنه مازال يشرب .

ــ لا .. لا .. الآن لا يشرب إلا قليلا .. كاس فرموت أو كونياك عندما يمر على بار فورنيه آخر السهرة .. وليس كل يوم .

وعرفت أيضا أن عينه فازغة .. على حد تعبير الست فاطمة .. مما التقطته سيدة من حوار دار بينهما فى غرفة النوم .. كاد ينقلب إلى مشادة .

لقد استطاعت سيدة أن تلتقط من الحوار قول فاطمة :

ــ بطل فراغة العين .. واعقل ..

ــ أنا حر ..

ــ حر يعنى إيه ؟

ــ يعنى ما حدش له دعوة بى .

و لم تعرف ما دار بعد ذلك فقد نادتها سميحة لتجفيف الحمام . ولكنها سمعت الأصوات تتعالى فى حدة .

وكانت سميحة مخلوقا مسالما .. طيبا .. تفزع من الصراخ والعراك ..

وكانت أقرب أهل البيت إلى قلب سيدة .. وأكثرهم عطفا عليها ولقد استقرت فى البيت بعد حصولها على الابتدائية من مدرسة السنية .. فقد وجدت أمها أن من الخير لها أن تمارس شغل البيت استعدادا للزواج .. ولأنها على رأى أمها .. مهما تعلمت .. فمصيرها إلى بيت الزوجية . وإذن فمن الخير أن تؤهل له .

وكانت سميحة تشارك سيدة فى جميع أعمالها .. وعندما ينتهى عمل البيت تجلسها أمامها .. لكى تعلمها القراءة والكتابة .

وأقبلت سيدة فى أول الأمر على التعلم كنوع من التسلية واللهو وكانت عندما يقبل الليل تجلس أمام سميحة التى تهبط إلى الأرض ممسكة بالكتاب الذى حوى صورا وخطوطا .

وتجلس الست فاطمة متشاغلة بالخياطة أو برتق الثياب . ويجلس حمدى أمام المنضدة الصغيرة يقرأ إحدى القصص .

وتبدأ عملية التعليم ألف وفتحة آ .. ب وفتحة با إلخ .

وبدت المسألة لسيدة سهلة فى أول الأمر ولكنها أخذت تتعقد مع الأيام ..

ووجدت أن عليها أن تقرأ كلمات مركبة من عدة حروف . عليها أن تنطق كل حرف بما عليه من شكل ثم تلصقه بالحرف الآخر وتظل تفتح وتضم وهى تنظر إلى الحرف والشكل فى جزع .. دون أن تعرف ماذا تنطق .

وتصيح بها سميحة فى ضيق :

— ليس هكذا يا سيدة .. هذه ب مفتوحة يعنى با .. أليس كذلك ؟

— أجل .

— قولى إذن با .

— با ..

— وهذه سين مفتوحة يعنى سا .. قولى سا .

— سا .

— وهذه ط مفتوحة .. يعنى طا .. انطقى الكلمة كلها إذن .

وتنظر سيدة إلى الكلمة فى حيرة وارتباك .

ويكون حمدى أكثر تتبعا لدرس سيدة منه لما يقرأ .. وعندما يرى صمت سيدة وارتباكها يضيق بها ويلتفت إليها صائحا :

— قولى يا بت .. بسط .

وتنظر إليه سيدة خائفة وتقول :

— بسط ..

ثم يتناول الكتاب ويأخذ فى تلقينها حرفا حرفا .. وعندما ينتهى يسألها أن تنطق الكلمة .. ولكنها تنظر إلى الكلمة فى جزع دون أن تعرف ما هى .. حتى يعيد هو نطقها كاملة . فتنطقها وراءه .

وهبط حمدى على الأرض بجوارها وهو منهمك فى تلقينها حرفا وراء حرف والتصقت ركبته بركبتها .

وتملكها إحساس ممتع وهى تجده يجلس بجوارها .. وتشعر بجسده يمس جسدها ..

هذا المخلوق .. له قيمة أخرى فى نفسك يا سيدة .

منذ أن التقيت به عند البقال .. وسمعت صوته ورأيت شكله .. أحسست أنه مخلوق مقرب إليك .. أكثر من غيره من المخلوقات .. وتمنيت وهو يسير بجوارك إلى البيت .. أن يعجبه فيك شيء .. ولكنه بدا وكأن شيئا فيك مما يعنى الناس لا يعنيه .. لقد فعل لك ما فعل .. بحكم طبعه لا بحكم وضع خاص لك فى نفسه .

ولو كان غيرك فى مكانك لفعل له ما فعل .. و لم تأبهى للأمر يا سيدة وقتذاك .. ولكنك حاولت مع الأيام وأنت تستقرين فى بيتهم .. أن تفعلى ما يرضيه .. كنت تجهزين له كل ما يريد .. بل كنت تعرفين ما يريد قبل أن يريده ..

وكانت لأشيائه مكانة خاصة فى نفسك .. غسيله .. وحذاؤه .. وفراشه ..

ولقد رضى عنك .. ما فى ذلك شك .. ولكنه رضاء المقدر لخدمة ..

العارف بجميل .. ولكنه لم يمنحك أبدا تقديرا لذاتك .

عجيب . هذا المخلوق ..

لماذا لا يرى فيها شيئا يعجبه ..

أبوه نفسه .. قد لمحت فى عينيه أحيانا .. هذه النظرات التى تخترق الثياب لتبحث فى شغف عما وراءها ..

أما هو .. فلا ..

إنها تحس بستار ثقيل يحول بينها وبينه .

ألأنه سيد .. وهى خادمة ؟

ولكن أباه سيد أيضا .. بل سيد أكثر منه ..

وهو لطيف رقيق .. وهو أقرب الناس إلى أبيه .. إنه يستمع إلى الجراموفون ذى النفير الكبير .. وهو يغنى أحيانا مع أبيه « يا مانت واحشنى » .. ويستمع معه إلى « يا قلبى مالك » ولكنه لا يملك جرأة أبيه ..

ولكن أترى الجرأة هى التى تحول بينها وبينه ؟..

لا .. إنها لا تشعر بأن بها شيئا فى نظره يحتاج إلى جرأة لأخذه ..

إنها فى نظره .. مجرد خادمة .. مخلوقة بائسة استحقت معاونته .. وهى الآن تبذل ما فى وسعها لخدمته .. وهى تستحق منه العطف الذى يبذله للناس بطبيعته .. والعطف الذى تستحقه لأنها تؤدى له خدمة خاصة .

وأكثر من هذا لا تستحقه .

ولكن سيدة تتمنى أن تستحق أكثر من هذا .

تتمنى أن يمنحها بعض ما يمنحه لصفاء .. جارتهم .. وصديقة أخته ..

حمقاء مجنونة ؟!!

ماذا بك حتى يمنحك .. ما يمنح لصفاء ؟

إن صفاء .. سيدة .. مثله .. رقيقة نظيفة .. ليس بثيابها رائحة جاز ولا بشعرها رائحة بصل .

أترى هذا ما يحول بينه وبينها ؟

ولكنه لا ينظر لكل الناس كما ينظر لصفاء .

إنه يخصها بأشياء .. لا تمنح إلا لها .

البسمة الرقيقة .. والنظرة اللهفى التى تبدو وكأنها تستقى من وجهها فى متعة العطشان لا يرتوى حتى يرشف آخر قطرة .. والكلمة الحلوة التى تخرج من شفتيه وكأنها تضمها فى حنان ..

هذه أشياء لم يمنحها حمدى لكل الناس .

وكل الناس ليسوا خدما .. وليس بثيابهم جاز .. ولا لشعرهم رائحة البصل ..

هذه أشياء .. تشعر أنها تتمنى لو منحتها له ..

شيئا فى باطننا يدفعنا إلى أن نخص بهذه الأشياء أحد الناس دون أن يسألنا إياها ..

مخلوق بذاته نميزه عن جميع البشر ..

لا ندرى له .. ولكننا نقدم له من أنفسنا .. ما لا يطلب .. ولا نستطيع أن نقدمه لغيره .. مهما بذلنا من جهد .

ونحن نجد متعة فى أن نمنحها إياه ..

وهى للأسف لا تملك حتى متعة المنح ..

إنها لا تستطيع أن تمنح إلا ما أهلته لها الظروف .. وما حدده لها القدر .. أشياء لا تعبر عما بنفسها . ولكنها كل ما تملك .

مسح حذاء .. أو تسوية فراش .. أو تجهيز طعام ..

وهى تفعل هذا للآخرين .. كما تفعله له .

أو هكذا تبدو .. فليس هناك ما يميز فعلها .. إلا ما فى باطنها .. إنها تمسك بحذائه .. وكأنه تمسك بشىء ثمين .. تلمعه فى رفق .. وتضمه فى رقة وحنان ..

وهى ترتب له الفراش .. وتتمنى لو مسحت رأسها فى وسادته .. ولقد

فعلتها مرة .. خفية عن أهل البيت عندما كانت ترتب الحجرة وحدها ..

وهو يجلس الآن بجوارها ركبته فى ركبتها ويقترب منها حتى يكاد تشم أنفاسه ويقول لها فى حزم :

— قولى .. ش وفتحه شا .

وأخذت تردد قوله محاولة نطق كلمة شمس ولكنها فى النهاية نطقتها سمس .

وعاد يقول لها متمسكا بالصبر :

— قولى شمس .

— سمس .

— شا .

— شا .

— شمس .

— سمس .

وقذف بالكتاب على طول ذراعه قائلا وقد نفد صبره :

— مفيش فايدة .. حاتفضلى طول عمرك حمارة ..

ونهض إلى مكتبه وأمه تقول له فى سخرية :

— وفر وقتك للمذاكرة أحسن لك .. وذاكر لك حاجة تنفعك آخر السنة .

أجل يا سيدة .. ستبقين طول عمرك حمارة ..

صفاء .. بغير شك .. تستطيع أن تقول هذه الكلمة التى لا تعرفين كيف تنطقينها .

أنت من نوع آخر .. لا يستطيع حمدى أن يمنحك هذا الشيء الذى تتمنينه والذى منحه لصفاء ببساطة .

ولكن هل توجد فى الحياة أنواع ؟

هل نولد هكذا .. ونبقى هكذا ؟

لا تظن .

فبعض الناس من الماوردى .. قد أضحوا شيئا آخر .

المعلم أنور مثلا .. السباك .. قد فتح حانوتا كبيرا فى ميدان السيدة .. وأصبح أفنديا .. لا تميزه أبدا عن بقية الأفندية .. لقد ارتدى بذلة نظيفة وقميصا وكرافتة .. تماما كما يرتدى سى محمد .. لأنه أصبح معه نقود ..

النقود إذن يمكن أن تغيرنا ..

وتنقلنا من نوع .. إلى نوع .

ترى لو أن معها نقودا .. ولبست ثيابا نظيفة .. هل تصبح من نوع آخر ؟..

ولكنها ترتدى ثياب سميحة فى بعض الأحيان .. وتظل مع ذلك من نفس النوع .

لا .. لا .. إنها ثياب قديمة .. ليست محكمة على بدنها .. ثم هى فوق ذلك تضع على رأسها منديل بأوية .

أترى لو ارتدت ثوبا جديدا .. وصففت شعرها بغير منديل رأس .. هل تصبح من نوع آخر ؟

لو أن معها نقودا تكفل لها كل ذلك .. هل يمكن أن تتحول إلى ذلك النوع الذى يمنحه حمدى هذه الأشياء العجيبة ؟

ولكنه لا يمنحها لكل النوع كما تعرف .

ثم إنه ليس معها نقود فلماذا كل هذا التعب ؟

ولكن هل النقود وحدها هى التى تغير نوعنا ؟

ابن الحاج رضوان .. قد رأته فى المعزى أفنديا محترما .. لأنه .. دخل المدرسة ، نجح .. وأصبح مدرسا .

يمكن إذن بالنجاح فى المدرسة .. أن تتحول إلى نوع آخر .

ولكن حتى هذا الطريق .. مغلق أمامها تماما .. فهى لا تملك أجر المدرسة .. ولا وقتها .. ولا عقلها .. فهى قد أبدت من الغباء بحيث لا تستطيع أن تنطق كلمة .. شمس .. وهى عندما تحاول القراءة تقول كلاما غير مفهوم . ولقد قالت لها سميحة وقد كلت من فرط التكرار والإعادة معها . وهى ما زالت

تردد كلاما لا معنى له مثل :

ـــ با كا ما ما .

ـــ يا سيدة يا حبيبتى .. هذا الكلام .. مكتوب ليفهم .. يعنى أن له معنى .. هل تفهمين أنت معنى ما تقولين ؟

ـــ لا ..

ـــ إذن فأنت تقولين كلاما لا علاقة له بما هو مكتوب .

وتهز رأسها آخر الأمر قائلة :

ـــ « مفيش فايدة » .

أجل يا سيدة .. لا فائدة منك .. ستظلين قابعة فى هذا النوع الذى أنت منه .. لا نقود ترفعك لأنك لا تملكين النقود .

ولا علم ينفعك لأنك لا تملكين العقل .

أصبح عليك يا سيدة أن تحجبى هذه الأشياء الجميلة فى نفسك .. لأنك تحسين به لنوع .. لا يرقى إليه نوعك ؟

(١٣)

وردة ...

صباح يوم عاصف فى أعقاب الشتاء .

والربيع يطرق الأبواب طرقات قاسية لا تنم عليه .. والبراعم تتفتح فيها الأغصان لتلطمها كف ريح قاسية محملة بالأتربة .. وكل مظاهر الربيع تتوارى فى جزع أمام هبات ريح الخماسين .. التى تأبى أن تجر الصيف فى أعقاب الشتاء طاوية نسمات الربيع وأزهاره .. فى عصف ريح مجنونة مثقلة بالتراب تهب من كل ناحية وتعصف بكل شيء .

وسيدة تقبل بأسلحة النظافة .. المكنسة والمنفضة والفرشاة .. بعد أن تركت المياه تتدفق من صنبور الحمام فى الجردل .

وكان يوم جمعة .. يوم تختلط فيه المواعيد وتضطرب فيه الأعمال الطبيعية المعتادة التى تعودت أن تقوم بها مع الست والست الصغيرة .. أى مع الأم وابنتها .

والأعمال اليومية المعتادة كانت تسير فى خط مستقيم لا ينحرف .. ومواعيد دقيقة لا تتقدم ولا تتأخر .

كانت الست فاطمة أول من يستيقظ فى البيت .. وكانت تقبل على سيدة لتوقظها ـــ إذا كانت لم تستيقظ من تلقاء نفسها ـــ تناديها فى صوت خفيض .

أو تهزها فى رفق :

ـــ سيدة .. قومى يا سيدة .. عايزين نحضر الفطار .. ونوضب الصالة قبل ما يصحوا .

وتستيقظ سيدة فى غير ضيق .. وتتمطى وتتثاءب دون أن تشعر أن يد أم

عباس القاسية ستجذبها من شعرها لتصلبها واقفة . بل كان أقصى ما ينتظرها من الست فاطمة هو استعجالها فى لوم بصوتها الخفيض الذى تأبى أن تزعج به أهل البيت وخصوصا سى محمد :

ــ يا لله يا سيدة اعملى لك همة .

وتنهض سيدة بعد أن تتثاءب وتتمطى لتتناول السلطانية من المطبخ وتنطلق بها إلى سيد البقال تملأها بالفول وتشترى بقية لوازم الفطار من جبنة وزيتون .

وعندما تعود إلى البيت تجد أهل البيت قد استيقظوا .. وتفرقوا فى الحمام والحجرات .. سى محمد يلعب بالحديد أو يقف تحت الدش .. وحمدى يصلى ويرتدى ملابسه ويجهز حقيبة للمدرسة وسميحة تمهد لعملية النظافة أو تبدأها فعلا والست فاطمة فى المطبخ .

ويتناول حمدى إفطاره الذى لا يتغير .. طبق فول بالزيت والليمون ورغيف عيش كامل . وينطلق إلى المدرسة فى عجلة . ثم يجلس سى محمد ليتناول الفطار بعد أن يرتدى ملابسه .. أو بعد أن يلبسوه ملابسه . فهو يحتاج إلى من يجهز له الحذاء والشراب ويلبسه الجاكتة .. ويفرشها له .. وقد تعود حمدى وسميحة أن يتبادلا مهمة إلباس أبيهما .. الذى يعامله الجميع كأنه طفل العائلة المدلل المحبوب .

ولقد كان الرجل خليقا بأن يحب .. بكل ما فيه من بشاشة ومرح .. ومهيصة .. وضحك وغناء .. وانطلاق بغير اكتراث بمظهر أو اعتبار لفوارق .. فى السن أو فى المركز .

وهو صديق حمدى الصدوق .. بين الاثنين أسرار كثيرة ومزاح دائم .. وهو حبيب ابنته سميحة .. يمنحها كل ما تطلب .. ويحقق لها كل ما تريد .. وهى لا تحرص على شىء حرصها على راحته وخدمته ..

وهو ــ رغم ما يقال عن فراغة عينه ــ وثيق الصلة بزوجته .. حريص على راحتها وعلى سعادتها .. مطيع لرغباتها .. وهى ــ رغم لومها الدائم له ــ تحترمه

وتخشاه وتضعه من البيت موضع السيادة .. بحيث يكاد يتحرك كل من فى البيت فى محيط خدمته ..

وعندما يتم ملابسه يجلس ليأكل .. وهو يتخير الطعام .. لا يعجبه الفول الذى يحضرونه من عند سيد البقال لأنه (محصّول) ولا تعجبه الطعمية من أى بائع .. فهو يأكل الفول من أبى ظريفة أو من عبده والطعمية من الحلوجى .. وفى الغداء يحب أن تكون اللحمة أو الفراخ غير (متقّلة) أو يمضغها ثم يلقيها .

ويخرج بعد الفطار .. ثم يعود الساعة الثانية ظهرا محملا بالفاكهة وغيرها من المأكولات ..

وخلال ذلك تكون عملية النظافة على أشدها فى الحجرات بواسطة سيدة وسميحة وست فاطمة التى تتنقل بين الحجرات والمطبخ .

ولا تكاد تحل الواحدة ظهرا حتى تكون الحجرات نظيفة مغلقة . البلاط ممسوح . الأبسطة مفروشة ومكنوسة وزجاج النوافذ ملمع والشيش قد نفضت عنه الأتربة والطعام قد أعد ساخنا فى الحلل .

كل ذلك فى الأيام العادية ..

أما يوم الجمعة فكان شيئا آخر .

فسى محمد فى البيت .. والنظافة محرمة فى وجوده .. فهى تمارس بطريقة الخطف والتسلل .

ينقلونه فى حجرة . ويسلونه .. حتى ينظفوا الحجرة الأخرى .

يجلس مثلا . للاستماع إلى الفونوغراف .. ويتولى حمدى تغيير الأسطوانات والإبر .. وملء الفونوغراف بتدوير اليد مع كل أسطوانة وعليه أن يجلس بعد ذلك بجوار أبيه ليشاركه الإعجاب بين (متع حياتك) وتحميلة رصد وبالبشارف والطقاطيق وبعبد الحميد القصبانى وسامى الشوا وسهلون والبزرى . وزكى مراد وعبد الحى حلمى وعلى محمود ومنيرة المهدية .. وأحيانا بالولد (اللى باين عليه حايبقى حاجة) والذى اسمه عبد الوهاب .

وهكذا يفرض سى محمد اللخبطة على نظام البيت .. ولا يعود أحد يدرى متى ينظف ماذا .. بل لا يعود أحد يدرى أى حجرة نظفت وسى محمد ينطلق متجولا فى البيت يفعل ما يشاء أينما يشاء .

ولم تكن سيدة تعرف وهى تحمل أدوات النظافة وتملأ الجردل استعدادا للمسح .. بأى حجرة ستبدأ .. وأين ستمارس عملية النظافة فقد كان الأمر يتوقف .. على أين سيستقر سى محمد .

وهو الآن غير موجود فى البيت .. فهو لم يكد يفرغ من تمريناته ويأخذ الدش البارد .. وتتعالى صيحاته فى أنحاء البيت تارة بالغناء وتارة بشتم أحد أو بطلب شىء .. حتى أقبل على حمدى عاريا وهو يقول :

— يا الله بنا .

— إلى أين ؟

— نحضر الفطار ..

— ولماذا لا تحضره سيدة ؟

— يا غبى .. نريد فطارا يؤكل ..

— مثل ماذا ؟

— فول مدمس .. بالزبدة .

— عندنا الزبدة .. ونرسل سيدة لإحضار الفول من عند سيد البقال .

— الذى يبيعه لكم سيد .. حصى .. وليس فولا ..

— من أين إذن تريد أن نشترى الفول ؟

— من عبده فى وابور الرمالى .. ثم نذهب لشراء طعمية من الحلوجى .

وبدا التردد على وجه حمدى وقال :

— ولكن ..

— لكن ماذا يا غبى ؟. ليس هناك فى هذه الدنيا خير .. من أكلة فول من أبى ظريفة .. وأكلة طعمية من الحلوجى .. وأكلة نيفة من الدهان .. و .. سهرة

مع صالح عبد الحى والقصابى .. و ..

وأكمل حمدى قوله الذى يحفظه عن ظهر قلب .

— وست حلوة ..

— برافو ..

ثم جذب حمدى من يده قائلا :

— يالله .. هات السلطانية ويالله بينا .

وأشار حمدى إلى جسد أبيه العارى الذى تتساقط منه المياه :

— تذهب هكذا ؟

— سألبس حالا ..

وهكذا غادر الاثنان البيت يحمل حمدى سلطانية الفول الفارغة ويرتدى أبوه ملابسه الكاملة بالطربوش على رأسه وقد وضع ذراعه على كتف حمدى .. وانطلقا فى طلب الفول والطعمية .

وأقبلت سيدة على حجرة حمدى .. وهى تشعر أنها مقبلة على يوم حافل بهذه العواصف والزعابيب التى تلبّش الأم .. وتجعلها عصبية .. وهى تتمتم بين آونة وأخرى :

— البيت اتردم .. يارب ليه كدة بس ..

ويزداد بها الضيق عندما تتذكر أن سى محمد .. باق فى البيت .. أو على حد قولها (ملبّش البيت) وأنها لا تستطيع الحركة فى البيت لممارسة النظافة بحرية .

ولم تكن التلبيشة تقتصر بعد ذلك .. على العواصف والأتربة .. وبقاء سى محمد فى البيت .. بل زاد على هذا كله .. أن الحاج عبد الرحيم أو سيدها الكبير .. سيحضر هو والست سنية ابنته التى توفى زوجها من سنتين فتكفل بها وبأولادها .. لتتناول الغداء . وقضاء يوم الجمعة عندهم ..

يوم غير معقول ..

ومع ذلك .. فهو مسل .. فسيدة تحب الزيطة واللمة .. وسيدها الكبير

رجل طيب وأمير .. ولسانه حلو .. وهو بغير شك — رغم كبره — .. رجل من أصحاب العيون الفارغة .. فهى تشعر أن نظراته لا تختلف كثيرا عن هذه النظرات التى تتحسس جسدها فى الطريق .. نظرات الخضرى والبقال والمكوجى .. ونظرات سى محمد أيضا .. ولكن سيدها الكبير .. قد منح لنفسه بحق السن .. أن يتحسس جسدها أحيانا بيده بالإضافة إلى نظراته وهو يربت ظهرها ضاحكا :

— جسمك زى الملبن يا بت يا سيدة .. همه بيوكلوكى إيه ؟..

وتجيبه سيدة فى جذل ضاحكة :

— من خيركم يا سيدى .

وتهتف به سميحة فى خجل :

— إيه يا جدى ده ..

ويضحك الرجل الكبير ويهتف بها :

— قربى انتى كمان .. ناخد لنا تحسيسة ..

— عيب يا جدى ما يصحش ..

وتصيح به سنية ناهرة :

— عيب يا بابا ، .. انت كبرت ..

وسيدة تحب الست سنية لأنها ثرثارة .. لا يدخل لسانها فمها منذ أن تحل بالبيت حتى ترحل .. وهى تتحدث عن جميع الناس .. وتقص تاريخهم .. وتاريخ ذويهم .. وأصحابهم .. لا يكاد يذكر اسم حتى تنطلق فى سرد كل حكايته كاملة .. متزوج من فلانة .. وأبوه كان يعمل كذا .. وخالته متزوجة من فلان .. وأنسبائهم عائلة فلان .. إلخ ..

وهى مخلوقة مريحة .. توافق على كل أمر .. وتعجب بكل شىء ..

وأولادها .. خديجة الكبرى .. وهى أكبر من حمدى .. مخلوقة خفيفة الدم تجيد تقليد الناس .. وعماد وهو صديق حمدى .. لا يكاد يصل حتى يخلو كل

منهما إلى الآخر .. يقص عليه كل ما لا يعرفه من أخباره ..

يبقى بعد ذلك من عائلة الست سنية . صغرى بناتها كوثر .. وهى لا تزيد على ثلاث سنوات .. وكانت صديقة سيدة .. ولعبتها المفضلة .. تكاد تحملها على كتفها منذ وصولها حتى رحيلها .

وهكذا أقبلت سيدة على حجرة حمدى بالمكنسة والمنفضة .. وهى تشعر فى قرارة نفسها . أن اليوم هيصة .. وأن النظافة فى البيت خسارة .. والعواصف كفيلة بأن تردم ما كنسته .. وسيدها محمد .. وأبوه وأخته وأولادها .. كفيلون بأن يقلبوا كل ما رتبته رأسا على عقب .. وأهم من ذلك لن يكون التنفيض هو أهم ما يشغل بال الست فاطمة وإنما هو الطبيخ .. الذى يجب أن تعده لغداء « حماها » وأخت زوجها .

وبدأت سيدة العمل فى حجرة حمدى .. فقد كانت للحجرة جاذبية خاصة فى نفسها ..

لم يكن يهمها .. ألا يأبه لها حمدى .. أو يمنحها أحد تلك الأشياء التى يمنحها صفاء .. قد كانت تعرف أن هذه أشياء قد حرمها منها القدر .. على الأقل من حمدى بالذات ..

ولكن .. أيا كان إحساسه لها .. وأيا كان ما يمنحها إياه .. و ما يحرمها منه . فهى لا تملك أن تقضى على هذه الرغبات الدفينة فى نفسها والتى تحدد تصرفاتها معه .. ما دامت لا تقدم على حماقة يمكن أن تجعلها محل لوم .. أو على الأقل لا تقدم عليها علانية بحيث تجعلها موضع السخرية .

إن لحجرته بكل ما بها موقعا خاصا فى نفسها .. فراشه ومكتبه .. ورائحة ملابسه .. إنها تستطيع أن تمس كل هذا مسا طبيعيا .. كجزء من عملها .. حتى الثياب والوسادة تستطيع أن تقربها من أنفها دون أن يلحظ أحد .. إنها تأتى أمرا إدًا أو شيئا نكرا .

وهى تستطيع أن تسعد بذلك .. دون لوم من أحد .. ودون أن توضع

موضع المذنب .

من نعم الله علينا .. أننا أحرار فى مشاعرنا .. نمارسها فى باطننا .. كما نشاء ..

لن يملك إنسان على ظهر الأرض أن يمنعنا .. من أن نحب هذا المخلوق أو نكره ذاك ..

لن يملك إنسان أن يحجر على حريتنا فى الحب أو الكراهية .. هذه تصرفاتنا الداخلية التى لا تصل إليها قدرة مخلوق .. سوانا .. إن متعتنا فى حب مخلوق ما .. لا يملك إنسان مهما بلغت قدرته أن يحاسبنا عليها .. أو ينهانا عنها .

تحسسى الثياب يا سيدة وامسحى رأسك فى الوسادة .. واستمتعى ما شئت .. بكل ما يمكن من قدرة على الاستمتاع .. فتلك هى حريتك الكبرى .. حرية الشعور .. والاستمتاع بالشعور .

وضربت سيدة الوسادة بكفها ضربتين لتنفض عنها التراب ثم تحسستها برفق كأنها تعتذر لها .. ثم دفنت رأسها فيها .. وأعادتها إلى موضعها .

وجذبت طرف الملاءة تشده على الفراش .. عندما دخلت السيدة تلقى نظرة تفتيش على الحجرة وقد بدا عليها التجهم .. وقالت آمرة :

ـــ افتحى الشيش نورى الحجرة .

ـــ والهواء .

ـــ قلت الشيش وليس الزجاج ..

ـــ حاضر .

وفتحت سيدة الزجاج .. ثم مدت يدها تدفع الشيش .. وقبل أن تغلق الزجاج هبت الريح فعصفت بكل ما فى الحجرة .. وأطارت إحدى المجلات وعصفت بأوراق أحد الكتب التى رصت فوق المكتب الصغير ..

وقفزت سيدة تمسك بالمجلة تعيدها إلى المكتب .. فقد كانت تعرف كيف كان يثير حمدى أن تعبث بكتبه أو مجلاته .

ووضعت المجلة مكانها وهمت بإغلاق الكتاب الذى عصفت الريح بأوراقه ..

ولكنها وجدت بقايا تطايرت من الصفحات كأنها فتات ورقة شجرة جافة قذفت الريح بمعظمها على الأرض فاختلطت بتراب البساط .

وأمسكت سيدة بالكتاب تنفضه بين يديها لتفرغ بقايا الفتات فوق المنضدة لتكنسها .

وأحست بوقع أقدام تدخل الغرفة وسمعت حمدى يصيح بها :

ـــ ماذا تفعلين ؟

وأسرعت سيدة تدافع عن نفسها قائلة :

ـــ والله العظيم .. الهواء .. أطارها .. أنا لم أمسك بها إلا لأنفضها من التراب بعد أن هب عليها من النافذة .. فأطار المجلة .. وفر أوراق الكتاب .

واقترب حمدى وقد بدا على وجهه الجزع كأن كارثة حدثت .

ـــ فر أوراق الكتاب .

ـــ أجل والله العظيم .

ومد يده فأمسك ببقايا الفتات الجافة الموجودة على المنضدة وهتف فى أسى :

ـــ والوردة ؟

وتساءلت سيدة فى دهشة :

ـــ وردة ؟

ـــ أجل الوردة التى كانت فى الكتاب .

ـــ أكانت هذه الفتافيت الجافة وردة ؟

ـــ أجل ..

وهتفت سيدة فى فرحة :

ـــ إذن أنزل إلى الحديقة وأحضر لك وردة حالا .

ونظر إليها حمدى فى يأس وردٍّ وهو يزفر غيظا :

ـــ تحضرين إلىّ وردة .

ـــ أجل .. حالا .. لا تضايق نفسك أبدا .

ــ أنت تحضرين إلىّ وردة .

ــ حالا .

وهمت بأن تنطلق إلى الحديقة .. ولكنه صاح بها :

ــ تعالى هنا ..

وأردف وهو يتفرس وجهها فى غيظ :

ــ غبية .

ــ لماذا يا سى حمدى ؟..

وأمسك بالفتات التى تبقت على المنضدة فى رفق شديد وقد بدا عليه الألم .

وعادت سيدة تقول فى استعطاف :

ــ سأحضر لك وردة جميلة حمراء .. رأيتها أمس فى أقصى الحديقة .

وهز حمدى رأسه فى يأس وأجابها فى صوت خفيض :

ــ لا أريد شيئا .. شوفى شغلك .

ورفع بقايا الفتات من كفه إلى أنفه وأخذ شهيقا طويلا ثم أعاد الفتات إلى صفحات الكتاب وأغلقه برفق وقد بدا عليه الحزن .

وتملك سيدة الأسى وهى تشعر أنها سببت لحمدى هذا الإحساس بالحزن .. دون أن تملك أسباب إزالته .

لم تكن تعرف أن هذه الفتات الجافة التى عصفت بها الريح .. وردة ..

وعندما أدركت أنها وردة وهمت بأن تنطلق لتحضر من الحديقة غيرها .. لم تكن تعرف .. أن الوردة التى ذرتها الريح .. لم تكن وردة أى وردة .

وعندما سألها فى استنكار (أنت تحضرين إلى وردة ؟) .. لم تعرف فى أول الأمر لماذا استنكر منها أن تحضر له وردة بدل الوردة الضائعة .

ولكنها عرفت بعد ذلك ..

فى نفس المساء .. لم يغمض جفنها إلا وقد أدركت .. ماذا كانت الوردة .. وما يمكن أن تعنيه .. وردة ما .. لإنسان ما ..

مر اليوم كما مر غيره من أيام الجمعة .

أكل سى محمد فول بالزبدة .. وطعمية أبو ظريفة .. ورفع عقيرته بالغناء .. وانطلق فى أرجاء البيت .. يعيث فيه فسادا .. أو كما قالت ست فاطمة (يلوّش البيت) .. قرأ .. وكتب .. واستمع إلى الفونوغراف .. وألقى نكتـا .. وسخر من الست فاطمة .. ثم ارتدى ملابسه بعد ذلك .. وخرج .

وحضر سيدها الكبير متثاقلا فى مشيته، يتكىء على عصاه ويرتدى الجبة والقفطان والطربوش ومعه ابنته سنية وأولادها الثلاثة .. ودخلت سنية المطبخ تساعد فاطمة وتنهال عليها بأخبار العالم كله .. فلانة طلقت وفلانة تزوجت .. وفلان مات .. إلخ ..

وجلست خديجة مع سميحة .. تتبادلان الأخبار وتتشاغلان ببعض مهام البيت .. وخلا حمدى بصاحبه عماد يتحدثان عن الدروس والسياسة والكرة .. ويرددان أغانى عبد الوهاب (كلنا نحب القمر) و (خايف أقول اللى فى قلبى) .

وعندما حل وقت الغذاء .. نصبت المائدة .. حافلة بالفتة والكوارع ولحمة الرأس .. وكل ما حشدته فاطمة مما طبخته ومما أحضره لها الحاج عبد الرحيم .

ولفعت سيدة كوثر على كتفها .. ثم جلست تطعمها .. وتضحكها ..

وهدأ الجميع بعد الغذاء .. اللهم إلا سنية فقد استمرت ثرثرتها .. إذا لم تكن قد أفرغت كل ما فى جعبتها من أخبار .

وقبيل المغرب رحل الحاج عبد الرحيم وابنته وأولادها .

وسكنت الريح .. وانقشع الغبار والسحاب الذى كان يحجب وجه الشمس .. وتسللت أشعتها الأرجوانية تلقى تحية وداع خاطفة قبل أن تتوارى فى الأفق .

وجلس حمدى فى حجرته يقلب الكتاب الذى حوى فتات الوردة الجافة .. ثم فتح النافذة فتسللت منها أشعة الشمس الهابطة تفترش أرض الغرفة .. وهبت

نسمة تعبث بأوراق شجرة المشمش التى اختلطت بالزهور البيضاء.. وتطلع حمدى إلى نافذة فى الدور العلوى من الجناح الآخر من البيت الذى يفصله عن جناح بيتهم الممر ذو الزجاج الملون ..

وبدا بصره مشدودا إلى النافذة .. كأنه ينتظر من ورائها شيئا .. ومر القوت به وهو فى وقفته الصامتة المترقبة .. وأشعة الشمس تنقرض من فوق البسط .. والضوء يخفت رويدا رويدا ..

وأطلق حمدى زفرة أسى وهم بأن يترك النافذة عندما سمع شيش النافذة المقابلة يفتح ثم أبصر بشبح يقف وراء النافذة ثم يرفع يده ملوحا فى رقة .

وانفرجت أسارير حمدى .. ورفع يده يرد التحية .. ثم أشار بيده إلى أسفل .

وهز الشبح رأسه متسائلا . فهتف حمدى :

— ألن تزورى سميحة ؟

وردت صفاء :

— الوقت تأخر .. سأزورها غدا بعد أن أعود من المدرسة .

— لماذا لا تزورينها اليوم ؟

وترددت صفاء برهة :

فعاد حمدى يقول فى إلحاح :

— إنها متعبة .

— حقيقة ؟

— أجل .

— إذن سأخبر نينة وآتى إليها حالا .

ورأت سيدة المشهد وسمعت الحوار .. وكانت تعرف أن سميحة غير متعبة .. ولم تعرف كيف سيدبر حمدى الأمر مع سميحة .. ولكنها لم تلبث أن وجدته يسرع إلى أخته ويشير إليها لكى تخرج إلى الصالة ليسر إليها بما يريد بعيدا عن أمه .

ووقف حمدى يهمس لسميحة :

— صفاء ستزورك .

— متى ؟

— الآن .

— كيف عرفت ؟

— أنا الذى دعوتها ؟

— كيف ؟

— قلت لها إنك مريضة .. فقالت إنها ستستأذن من أمها وتحضر .

وضحكت سميحة وقالت فى خبث :

— إذا سأرقد فى حجرة النوم بجوار ماما .. وسأدعها تجلس معنا هناك .

وأمسك حمدى بذراع أخته وقال فى عجلة :

— ليس هذا وقت مزاح .. عندما تحضر خذيها إلى حجرة الجلوس .. وسآتى للجلوس معكما .

ودق الجرس .. وانطلقت سيدة لتفتح ولكن حمدى جرها من يدها قائلا :

— خليكى انتى .. أنا سأفتح .

وأقبلت صفاء ومد حمدى يده ليمسك بكفها وهو يهتف من قلبه :

— أهلا .. صفاء .

ووقفت صفاء تنظر إلى عينيه فى ابتسامة رقيقة وتهتف به :

— أهلا حمدى .

— خفت ألا أراك اليوم فى النافذة .. وملأ قلبى الجزع وأنا أرى الشمس تذهب ونافذتك ما زالت مغلقة .

— كان الجو عاصفا وخفت ألا تكون فى النافذة .

— كيف .. أترين عصف الريح يحول بينى وبينك ؟

وشدت صفاء على يده وابتسمت ابتسامتها الرقيقة .
وسمع صوت الأم من الداخل تهتف :
— من يا سيدة ؟
وهتفت سيدة تقول :
— ستى صفاء .
— دعيها تتفضل .
وهمس حمدى لصفاء :
— ادخلى سلمى على نينة .. إنها ترتاح فى غرفة النوم .
— وأين سميحة .. أهى حقا مريضة ؟
— كلا .. لقد كان يجب أن أراك .. لأنه حدث اليوم ما بعثنى على التشاؤم ..
وبدا الجزع على وجه صفاء وهى تتساءل :
— ماذا حدث ؟
وأقبلت سميحة تحيى صفاء قائلة :
— أهلا صفاء .
— سلامتك يا سميحة .. أخبرنى حمدى أنك متعبة .
— تعبت قليلا فى الصباح ولكنى الآن أحسن .
— الحمد لله .
— تعالى سلمى على نينة أولا .
ونظرت صفاء إلى حمدى فى جزع وهى تهز رأسه متسائلة .
ورد حمدى هامسا :
— سأحكى لك بعدين .
وسمع صوت الأم تنادى من الداخل :

— يا سميحة .
— حاضر يا نينة .
وعبرت الفتاتان الصالة إلى حجرة النوم .. وأمضت صفاء برهة تحيى الأم وتجيبها عن أسئلتها عن أمها وعن أحوالها . ثم غادرت الحجرة مع سميحة إلى حجرة الجلوس .
وجرى الحديث بين صفاء وسميحة عن التراب وتعب التنظيف . وعن عمتها وأولادها وصفاء تتطلع فى قلق بين آونة وأخرى إلى حجرة حمدى .
وأقبل حمدى يتناول كتابا من فوق المنضدة وتوقف متسائلا :
— أقرأت هذه القصة يا صفاء ؟
— أية قصة ؟
— قصة مدينتين .
وهزت صفاء رأسها بالنفى ثم قالت :
— لقد قرأت لقاء صدفة التى كتبها عمى أخيرا .
— ما رأيك ؟
— أعجبتنى جدا .. لقد أخبرتنى سميحة أنك تكتب قصة .
— لقد كتبت عدة قصص . وقصيدة وموال .
— أين ستنشرها ؟
— لست أظننى أستطيع نشرها فى أى مكان .. سأصدر لها مجلة خاصة أنا
— وأين ستطبعها ؟
— نطبعها ؟. أنت تحسنين الظن بنا يا صفاء .. هل تظنين أننا نملك ثمن المطبعة ؟
— تطبعونها بالبالوظة .
وقالت سميحة :

— أو الكربون .

— لا هذا ولا ذاك .. سنحرر منها نسخة بخط اليد .. وسنضعها تحت أمر من يريد قراءتها .

وتساءلت صفاء :

— مجانا ؟

— تتوقف على نوع القارىء .. بعض القراء يمكن أن ندفع لهم حتى يقرأوها .

وقالت سميحة ضاحكة :

— أنا مستعدة أقرأها بشلن .

وسمع صوت الأم تنادى :

— سميحة .

ونهضت سميحة متجهة إلى حجرة الأم وخلت الحجرة إلا من صفاء وحمدى ، واقترب حمدى من صفاء .

وهتفت صفاء به فى لهفة :

— قل .. ماذا حدث مما جعلك تتشاءم ؟

— الوردة .

— مالها ؟

— عصفت الريح بالكتاب الذى حفظتها بين أوراقه .. فتبددت .

وابتسمت صفاء فى رقة وهى تمسك يده بين يديها الصغيرتين :

— فقط .

— أنت لا تعرفين ماذا كانت تعنى لدى .. كانت تعنى أنت .. كنت أتحسسها كما أتحسس يدك الآن .. لقد أحسست بيد تعتصر قلبى .. وأنا أراها تتبدد مع الريح .

— ولكن أنا .. موجودة ..

— أجل وستبقين موجودة دائما ..

— إن الطريق أمامنا طويل .. طويل .

— ولكننا سنطويه معا .. يدا فى يد .

— وكتفا إلى كتف .

— وقلبا .. مع قلب .

— كل نجاح أحققه أحس به يقربنى منك .. إنى أريد أن أكون أهلا لك .. أريد أن أقدم لك خير ما يمكن أن يقدمه إنسان .

— أنت نفسك خير ما فى الحياة .

— سأفعل من أجلك كل شىء .. سأجتاز كل صعب .

— أنا معك على كل صعب .. لن أتركك أبدا .

وأنصتت سيدة من وراء باب الدهليز .. إلى الحوار الذائب الذى ينتقل بين الشفاه كأنه حفيف الورق أو وشوشة الطير ..

هذا كلام عجيب يا سيدة !..

هذه الفتاة المتسعة العينين الرقيقة الجسد ذات الشعر المنسدل على كتفيها.. تبدو وهى تترك كفيها بين كفيه وتتطلع إلى نظراته اللهفى وتهمس بوشوشاتها .. كأنها شىء أكثر من آدمى .

انها لا تملك امتلاء جسدها .. لا تملك الصدر والأرداف ولكنها تملك شيئا أقوى من هذا .

وبين الاثنين فى مناجاتهما .. شىء أمتع من كل ما اشتهيته يا سيدة ..

أمتع من الطعام الشهى ..

والثياب الأنيقة .

والنقود فى كفك ..

أمتع من الراحة والنوم ..

والحرمان منه يا سيدة أليم .. أليم ..

لو أن كفك هى التى تضم كفه .. ولو أن وجهك هو الذى يمتع بنظراته اللهفى .. ولو أن أذنيك هما اللتان تلتقطان حديثه .. ولو أن شفتيك هما اللتان تناجيانه ..

ولكن هل تستطيعين يا سيدة أن تقولى ما قالت ؟

لم :. لا ..

إنك تحسين بكل ما تحس به .. وأكثر منه .

إنك لست على استعداد لأن تسيرى معه .. يدا فى يد .. بل على استعداد لأن تضعى روحك فى يده .

إنك لست معه على الصعب .. ولكن فداء كل صعب يلقاه .. ومشقة يصادفها ..

فقط لو أن لديك الفرصة ..

وسمعت وقع أقدام سميحة تعود من حجرة أمها .

وأمسكت صفاء كف حمدى تشد عليها قائلة :

— سأعطيك وردة أخرى .. عندما أعود إلى البيت .

ورفع حمدى يدها فمس بها شفتيه ..

وأقبلت سميحة تتساءل ضاحكة :

— قرأت لها القصيدة ؟

وعلا الاحمرار وجه صفاء .. وأجابت :

— وحفظتها .

ونهضت متجهة إلى الباب وهى تردف قائلة :

— سأعود حتى لا تنشغل نينة علىّ .

وبسرعة قال حمدى :

— سأوصلك .. فالليل قد أقبل .. والفناء مظلم .

واتجه حمدى إلى السلم بجوار صفاء وقد أمسك بكفها الصغيرة .

ستعطيه صفاء وردة أخرى .

ليضعها بين صفحات الكتاب ..

وعندما رقدت سيدة على الحشية فى حجرة الجلوس .. وشرد بها الذهن أدركت ماذا يمكن أن تعنيه وردة ما .. لإنسان ما ..

وأدركت .. لماذا سألها حمدى فى استنكار عندما أخبرته أنها ستحضر إليه وردة « أنت تحضرين إلىّ وردة ؟ » .

وأحست بشىء يثقل قلبها ..

ولم تملك أن تمنع عبرتين تنزلقان ساخنتين على صفحة وجهها .

عجيبة هذه الدنيا يا سيدة !

لم ترق دمعك الصفعات على وجهك .. واللكمات فى ظهرك .

وأراقته .. وردة .. عجزت عن مجرد إهدائها .

(١٤)

لا وقت للدموع ..

لحظات الإرهاف فى نفوسنا شعل برق تسطع لتزيح ظلمة الكون من حولنا .

والدموع .. قطرات ندى تغسل شوائب الكدر من صدورنا .

والكون .. ليس كله برقا يبدد الظلمة .. أو ندى يغسل الشوائب .

والحياة .. ليست كلها إرهافا .. وليست كلها دموعا ..

.. الحياة .. أحداث تدفعها رياح هوج .. تحمل أسباب الإرهاف والتبلد .. والاهتمام واللامبالاة .. والإعجاب والسخرية .. والحزن والضحك .. فى لحظة تدفع إلينا بالمأساة وفى اللحظة الأخرى تلهينا عنها .. تسيل الدمع بهبة .. وتجففه بالهبة التالية .

ودمعة سيدة التى تسيلها أمسية حزينة .. فى لحظات حس مرهف .. ونفس تهفو إلى الكلمة الرقيقة والضمة الحانية .. يجففها صباح .. لا تترك زحمة العمل فيه فرصة لدمعة تسيل أو نفس ترهف ..

ضربات المنفضة على السجادة والفرشاة تدعك البلاط .. والمياه تتدفق على الأرض . والأم تصيح بها لتشهل .. والأب يصيح بالأم يسأل عن أزرار القميص وسميحة تطوى الحشيات على السراير . وحمدى يهرول بحقيبته نحو السلم صائحا « أنا ماشى » .

ووسط كل هذه الأصوات المتنافرة .. تعلو أصوات رفيعة .. بصيحات ممدودة متواصلة لا تصمت ولا تعبر عما تريد .. ولكنها تنطلق فى غير إرادة وبغير تعبير .. ودون أن تقول شيئا اللهم إلا .. لتنبىء دون أن تعنى .. أن غدا .. العيد . عيد الأضحى .

لا وقت للإحساس والدموع يا سيدة .. والبيت مقلوب رأسا على عقب ..

وعملية نظافة كاملة تجرى فيه .. والغبار يثار .. والمياه تتدفق .. والصيحات تتعالى .. والأثاث أكوام .. والبيت هيصة .. ما بعدها هيصة .

وسى محمد يتعثر فى جرادل المياه .. ويسد أنفه الغبار المثار .. ويصيح بالست فاطمة :

— إيه يا ولية اللى انتى عاملاه ده ؟..

وتهم سميحة بالرد شارحة :

— أصل يا بابا .. النهاردة الوقفة ..

وتهب فيها الأم صائحة :

— شوفى شغلك انتى .. مالكيش دعوة بيه ..

ويصيح الأب مهتاجا .. وهو يسمع ضربات المنفضة تقرع السجادة المفرودة على حافة الشرفة :

— انتى اتجننت ياولية .

وبمنتهى البساطة ترد الست فاطمة :

— جن لما يلخبطك .

ويقترب منها وهو يزرر أزرار القميص صائحا :

— قلبت الدنيا .. حرام عليكى .

وترد الأم وهى ترفع الكراسى فوق المائدة :

— حرام علىّ النظافة .. إلهى يعدلها لك .

ويجيب الأب وهو يلملم ثيابه محاولا النجاة من آثار عمليات التنظيف :

— البيت لا يطاق .. العيشة لا تحتمل .. سأخرج ولن أعود .

وتواصل الأم عملها دون أن تجيبه .. وهى تعلم أنه سيعود فى الظهر .. ليطلب الغداء .. وقد نسى كل تهديداته التى أطلقها فى الصباح .

وقبل أن يغادر الأب البيت تصيح به الأم منذرة :

— اعمل حسابك .. ليس لدينا اليوم شىء للغداء ..

ويستدير الأب متسائلا فى دهشة ، وكأنه نسى أنه لن يعود :
— لماذا ؟
— لأننا مشغولون بالتنفيض .
— وماذا سنأكل إذن ؟
— نحن سندبر أى شيء .. وكل أنت فى الخارج .. أو أحضر ما يعجبك .
— سأحضر معى بسطرمة ومرتدلة .
— أحضر ما تريد .

ويخرج الأب وقد عاوده الهدوء .. وكأنه ما صرخ .. وما اهتاج .

وتستمر عملية النظافة على أشدها .. حتى ينتهى اليوم .. ويبدأ الزحف على الدرج الخارجى .. بسيدة وقد شمرت جلبابها وربطت ديله حول وسطها وتعرت سيقانها وقد انحنت على حجر الدرج تحكه بالفرشاة وسميحة تسكب لها المياه بالجردل .

ويفرش الرمل الأصفر على درجات الدرج .. من كوم وضع فى الحديقة .. وتتنفس الست فاطمة الصعداء .. وهى تحس أنها قد أدت مهمتها التقليدية .. استعدادا لاستقبال العيد .

وتطوى موجة الأمل فى نفس سيدة موجة اليأس .. وهى تشعر أنها قد باتت جزءا من هذا البيت .. بكل حسناته وسيئاته ..

ولا يعود إحساسها بالحرمان من صلة معينة . تشغل نفسها .. وهى تحس أنها جزء من الكيان الكبير الذى يضم الأسرة .. وأن صلتها العامة بها قد باتت وثيقة بحيث يمكن أن تغنيها عن هذه الصلة التى أنبت الرغبة فيها اللهفة عليها إحساساتها المرهفة النابعة من باطنها .. والذى ضاعف حدتها .. إدراكها لقيمة المتعة .. وهى ترى غيرها يمارسها .

وخرجت سيدة قبيل العشاء بعد أن انتهت عملية نظافة البيت وفرش الرمل على الدرج وبعد أن اغتسل أهل البيت لتشترى زبادى للأب .

وعبرت سيدة حوارى جنينة ناميش حتى وصلت القبوة الموصلة إلى حارة السيدة وسارت تسأل عن الزبادى من حانوت إلى آخر حتى وصلت إلى نهاية الحارة وبلغت شارع السد أمام جامع السيدة ..

واتجهت يمنة فى شارع السد المزدحم وبدا الشارع مضيئا بالأنوار حول الجامع وأمام دكاكين الجزارة .. ووقفت أمام حانوت على اللبان و لم تكد تسأله :
— عندك زبادى ؟

حتى أحست بيد توضع على كتفها وصوت يتساءل فى دهشة :
— سيدة ..

واستدارت لتجد أمامها عباس ..

وشهقت سيدة فى جزع كأنما ترى عفريتا أمامها .

وهتف عباس فى دهشة :
— يا بنت الرفضى .. أين كنت طول هذه المدة ؟

وتلاحقت أنفاس سيدة وهى تشعر كأن طيرا كاسرا يوشك أن ينشب مخالبه فيها . وأجابت وهى تزدرد ريقها :
— كنت أعمل .
— فين ؟
— عند ناس .
— من هم ؟
— لماذا تريد أن تعرف ؟
— لنزورك .. وتزورينا ..
— مالوش لزوم .
— يخونك العيش والملح يا سيدة .. لماذا هربت ؟
— لأنهم كانوا على وشك أن يذهبوا بى إلى البوليس ..
— كيف ؟

— لأن الرجل ضبطنى وأنا أحاول إعادة البقالة .. وتركتنى أنت واختفيت .
— ظننت أنك سترجعينها ببساطة .. وانتظرت أن تعودى إلى البيت فلم تعودى .. وقلت لنفسى إنك طمعت فى البريزة .
— ما علينا .. كل شىء انتهى ..
— لقد جزع أبى عليك .
— وأم عباس ..
— قالت إن عينك فتحت .. و لم تعد منك فائدة .
— وانتهى الأمر ؟
— حاول أبى أن يبلغ البوليس .. ولكن أمى نهته .. المهم كيف أراك ؟
— لا داعى ..
— ألم أوحشك ؟
— لا ..
ونظر عباس إلى صدرها وإلى جسدها فى إعجاب وقال :
— ولكنك وحشتينى .
— كتر خيرك .
— نظفت .. وبدت عليك النعمة .. عند من تعملين ؟
— عند أناس طيبين .
— من هم .
— أسرة مستورة .
— عندهم رجال طبعا .
— رجال طيبون ..
— ألا تعجبينهم ؟
— ليس كما أعجبك ..
— إذن ليسوا رجالا .

— بل خير الرجال .
— خيرهم أو شرهم .. المهم كيف أراك ؟
— قلت لك لن ترانى ..
ووضع عباس يده فى جيبه ثم شخلل بما فيه قائلا :
— معى نقود .
— اشبع بها ..
— لست فى حاجة إلى نقود ؟..
— لم أعد فى حاجة إلى شىء ..
— استغنيت يا بنت الدايخه .
ومد يده فأمسك ذراعها . فجذبت نفسها بعيدا وهتفت فى حدة :
— دع ذراعى .. وإلا لممت عليك الشارع .
وتركها عباس وهو يهز رأسه مغتاظا :
— لا داعى .. المسألة لا تستحق .. فى وش البركة الواحدة منك بشلن ..
— إذن اذهب إليهن .
— طبعا سأذهب .. ولكن لك يوم يا سيدة ..
وغاب عباس فى زحام الشارع .. واستدارت سيدة تكرر لبائع اللبن سؤالها الذى قطعه عباس :
— عندك زبادى ؟
— أجل .
— هات سلطانيتين .
— ونظر إليها الرجل باسما .. وهو يمر بعينيه على جسدها .. منحدرا من صدرها إلى ساقيها ..
ماذا فى جسدك يا سيدة يجذب الرجال ؟
هل يمكن أن يكون هذا الجسد بامتلاءاته المميزة .. هو موهبتك فى

الحياة .. هو سبيلك إلى ما تريدين منها ؟ وسلمك إلى الصعود فيها ؟

جائز ..

فهو بغير شك شيء جذاب ..

أفلح فى شد أبصار الرجال كلهم .. بغير استثناء .. إلا هو .. ولكن هل حقا لا يجذبه جسدها ؟..

أم هو يترفع عنها ..

إنها لم ترقط فى عينيه هذه النظرة التى تراها فى أعين الرجال ...

لأنه لا يحاول أن يتفحصها .. لا يحاول أن يعرف ما وراء الثياب .. ربما لأنه .. لا يتصوره ..

ترى لو أنه رآه .. مجردا بغير ثياب .. هل تبقى نظرته إليها كما هى .. نظرة تجاهل لما تملك من مواهب .

ولكن لماذا تريد أن تجذبه .. لماذا تتذكره كلما رأت نظرة رجل تخترق ثيابها .

لماذا تسائل نفسها دائما .. لو أنه هو ؟

ولكن هل ترى هذا هو ما تريده منه ..

أم تراه كل ما تملكه له ..

وهل يرضيها أن تمنحه إياه .. بدل هذه المشاعر الذائبة المرهفة ..

ولكن أنى لها أن تمنحها إياه .. أو تمنحها أى إنسان آخر ..

إذا كان الناس لا يرون منها إلا امتلاءات الجسد فما قيمة ما تبطنه من مشاعر .

وسارت سيدة بالزبادى .. ونظرات المارة والباعة تمسح جسدها .. وعاودها الحنين .. إلى تأكيد وجودها بمواهبها التى أقر بها الناس .. وأنكروا وجودها إلا بها .

ووصلت إلى البيت .

لتجد الأم مسترخية على الأريكة فى حجرة الجلوس والأب يجر حمدى من حجرته ليدير له الفونوغراف ليسمعه أسطوانة جديدة أحضرها لزكى مراد ..

وبدأ حمدى يدير يد الفونوغراف ويضع الإبرة فى مكانها .. وبعد برهة علا صوت الفونوغراف :

« سبانى سهام العين .. شوف قلبى بحبك هام » .

ووضعت سيدة الزبادى على المنضدة .. واتجهت إلى الدهليز المؤدى إلى المطبخ والذى وضع فيه الدولاب الصغير .. الذى تضع فيه سيدة ثيابها ومشطها ومرآة صغيرة أخذتها من سميحة .

وجلست سيدة أمام الدولاب وأخرجت الثوب الجديد الذى حاكته لها الست فاطمة من أجل العيد والمنديل الذى أهدته لها سميحة .. وعاودها الإحساس بالارتياح والاستقرار ..

جميل أن يكون لك مكان خاص بحاجاتك يا سيدة .. تضعين فيه قروشك .. ومشطك ومرآتك ..

كانت تلك هى أمنيتك التى تتوقين إليها فى بيت أم عباس ..

لماذا لا تقنعين بها ؟.. ولماذا تحاولين أن تقفزى إلى أمانى أخرى .. مستعصية ..

لماذا لا تضعين نفسك فى موضعها .. فتريحى وتستريحى ..

ولكن هل تملكين التحكم فى أمانيك يا سيدة .

هذه الرغبة المثارة من باطنك فى شيء بذاته .. هل تملكين التحكم فيها .. وتوجهينها حين تشائين ..

على أية حال .. انعمى يا سيدة بما تملكين .. مما كان فيما مضى مجرد أمانى ..

تحسسى ثيابك .. ومشطى شعرك فى المرآة .. وضعى عليك بعض هذا العطر الذى منحتك إياه سميحة ..

فلعلك تعجبينه ..

مرة أخرى .. تدورين وتعودين إليه .

افعلى ما تشائين .. من أجل نفسك .. لا من أجل هذه الأمنية المستعصية .

وسمعت صوت الأم يناديها :

— سيدة .

— أيوه يا ست .

— تعالى .

وذهبت سيدة إلى الست فاطمة . واقتربت منها منتظرة تعليماتها .

وقالت الأم فى رقة :

— اجلسى .

وجلست سيدة .

وعادت الأم تقول :

— مضت عليك مدة عندنا يا سيدة .. وأنت بنت حلال وأميرة وتستحقين كل خير .

و لم تعرف سيدة ماذا تريد الست فاطمة .. ولا عرفت بماذا ترد .

واستطردت الست فاطمة تقول :

— وقد تجمع من مرتبك مبلغ طيب .. رأيت أن أشترى لك به هذا الحلق الذهب .. وفى المستقبل عندما يتجمع لك مبلغ كاف سأشترى لك غوايش ذهب .. الغويشات الذهب ينفعوك وقت الحاجة ..

وجذبت الست فاطمة لفافة بجوارها وأخرجت منها حلقا ذهبيا ومدت به يدها إلى سيدة قائلة :

— أنت ما زلت صغيرة .. ولا يعرف المرء ما تجىء به الأيام .. وغدا ستتزوجين .. ولا بد أن يكون لديك شىء .. والذهب يا سيدة مضمون .. وقيمته محفوظة دائما ..

وأمسكت سيدة بالحلق تتحسسه فى دهشة شديدة وهى تتساءل فى شبه همس :

— هذا لى ؟

— أجل .. عشرة شهور .. وضعت لك فوقها أجرة الشهر القادم .. وهذه ورقة حسابها .. بها الوزن والثمن .

و لم تلق سيدة بالا إلى الورقة .. فلم يكن الحساب يهمها .. ولكن الحلق هو الذى كان يبهرها .

وعادت تتحسسه فى رفق وتتساءل :

— هل أستطيع أن ألبسه ؟

— طبعا .

وأقبلت سميحة من الصالة باسمة الوجه وهتفت قائلة :

— مبروك يا سيدة .

— الله يبارك فيكى يا ست سميحة .

واقتربت منها سميحة تساعدها على لبس الحلق قائلة :

— يا سلام يا سيدة .. مين قدك ؟

و لم تعرف سيدة ماذا تقول .

أصبحت يا سيدة .. صاحبة حلق ذهب كأم عباس ..

لم تعودى جرداء .. خالية .. بل أضحى لديك ثروة .. ملكك وحدك .

وغدا ستتزوجين يا سيدة .. كما قالت الست فاطمة .. وتصبحين زوجة .. وصاحبة بيت .

أشياء لا تصدق يا سيدة ..

ولكنها يمكن أن تحدث .. أو هى قد بدأت تحدث فعلا .. أليس الذهب فى يدك .. ألا تملكين هذا الحلق .. وغدا تملكين الغوايش . وقد يتقدم إليك إنسان ما .. ليخطبك ويقرأ فاتحتك .. ويتزوجك ويمنحك الدار والأولاد ..

ترى كيف سيكون ؟..

وحولت بصرها إلى حمدى وهو يدير يد الفونوغراف .

و لم تلبث أن أرخت عينيها عنه .. ونهرت نفسها عن التفكير فيه .

إذا كانت تسير فى أمانيها الهوينا .. وإذا كانت تستطيع أن تأمل بعد الحلق والغويشات الذهبية فى زوج وبيت وأولاد .. بعد أن قالت لها الست فاطمة وغدا ستتزوجين فيجب ألا تقفز بأمانيها هذه القفزة الحمقاء .: والتى تجعل أمانيها تتردى فى هوة الأوهام .

لا تجذبيه يا سيدة من أحلامك .. فمكانه هناك .. هناك .. بعيـدا .. بعيدا .. أبعد من أن يكون له صلة بواقعك .

وإذا كان لا بد من صلة هناك .. فلن تكون أكثر من هذه الصلة الواضحة القائمة على خدمة تؤديها .. وعطف يمنحه .. أو الصلة الخفية .. القائمة .. على إحساس يطويه اليأس فى قلبها .. لا يفلت منها إلا فى مسة حذاء تمسحه .. أو ثمة وسادة ترتبها .

أما مؤهلاتها التى تجذب الرجال .. فهى أعجز من أن تثيره ..

وهى لا تضيق بهذا .. فمشاعرها نحوه أرق وأرفع من أن ترضى بأن تكون هذه المؤهلات وسيلتها إليه .

اقنعى بواقعك يا سيدة .. وتمتعى بأحلامك ولا تخلطى الواقع بالأحلام . حتى لا تتلفى الواقع وتبددى الأحلام .

وعادت سيدة تتحسس الحلق الذهبى فى أذنها ..

واقع مرض .. يا سيدة .. يمكن أن يتطور فى هدوء يمنحك المزيد من الرضاء .

ونظرت إليها الست فاطمة قائلة :

ـــ خدى بالك منه يا سيدة .. لا تخرجى به إلى السوق .. فأولاد الحرام كثيرون .

وقبل أن تنتظر ردها قالت لزوجها متسائلة :

ـــ نحضر العشاء ..

ـــ عندكم إيه ؟

ـــ جبنة وزيتون وبيض وزبادى .

ـــ متى ستذبحون الخروف ؟

ـــ فى الفجر .

ـــ ولماذا لا تذبحونه الآن .. كان نفسنا فى الكبد والكلاوى .

ـــ غدا سأطبخها لكم .

ـــ ولماذا لا نأكلها الآن ؟

وهزت الأم رأسها فى استسلام قائلة :

ـــ الناس يذبحون فى العيد .

ـــ وهل ضرورى أن نفعل كما يفعل الناس ؟

وتمتمت الأم كلاما تحاول أن تنهى به الموضوع لم تسمع تفاصيله ولكنه بدا كأنه « أصحاب العقول فى راحة » .

ووجهت الحديث إلى سيدة قائلة باختصار :

ـــ حضرى السفرة يا سيدة .

وانتهى العشاء وأوى أهل البيت إلى مضاجعهم ..

وبقى الأب يقرأ .. وحمدى يستذكر .

واستمرت سيدة تتحسس الحلق الذهبى فى يدها حتى استغرقت فى النوم .

ومع أول خيوط الفجر استيقظت سيدة على يد تهزها ..

وجلست فى فراشها تدعك عينيها .. وسمعت صوتا يهتف فى الطريق « جزار نظيف » .

وقفزت سيدة فى فرح وهى تذكر أن خيوط الضوء التى تتسلل من النافذة تؤذن بيوم حافل .. يبدأ بذبح الخروف .. والطهى .. ثم اللبس والخروج .. وهى تنوى أن تزور أم عطوة وزينب وصديقات الماوردى .. فقد مضت مدة طويلة لم تذهب إليهن .. وستريهن ملابسها الجديدة والقرط الذهبى فى أذنها .

وأقبل الجزار فى صحبة عم على البواب وقادا الخروف إلى الفناء الخلفى

للحديقة . وتمت عملية الذبح والنفخ والضرب والسلخ والتوضيب ..

وكانت خيوط الشمس قد أخذت تتصاعد من الأفق . والأب قد استيقظ يمارس تمرينه الصباحي بالكتل الحديدية .. وبدأت رائحة الشواء تتصاعد وانهمكت سيدة مع سميحة والست فاطمة فى إعداد الفطار من الكبد والكلاوى .

وتجمعت الأسرة حول مائدة الإفطار . وجلست سيدة تتناول نصيبها من الطعام فى المطبخ . ثم بدأت بعد ذلك الإعداد للغداء .

وقبيل العصر كان العمل فى البيت قد انتهى . وارتدت سيدة ثوبها الجديد ومشطت شعرها ثم استأذنت الست فاطمة فى الخروج للنزهة .

وتساءلت الست فاطمة :

— إلى أين يا سيدة ؟

— سأذهب إلى الماوردى .. إلى بيتنا القديم .

— حاسبى على الحلق .. ولا تتأخرى .

— سأحضر قبل الغروب .

وغادرت سيدة فناء البيت متجهة إلى سيدى الأربعين حيث عبرت شارع الخليج إلى الماوردى .

وعلى ناصية الحارة وجدت أم عطوة .. تجلس كما تعودت أن تجلس دائما وقد وضعت بجوارها قصعة الفول النابت ومشنة الفجل والجرجير وبجوارها القفص الذى رصت فوقه قطع الحلوى .

ونظرت إليها أم عطوة فى فرحة مرحبة :

— أهلا وسهلا سيدة .. وحشتينا .

— سلامات يا أم عطوة .. كيف حال عطوة وزينب وبقية أهل الحارة ؟

— زينب تزوجت ابن عمها الميكانيكى .

وهتفت سيدة فى دهشة :

— تزوجت ؟.. متى ؟

— منذ شهر .. وسافرت مع زوجها إلى طنطا .

— وعطوة ؟

— عطوة ترك المحل .. واشتغل فى ورش عنابر السكة الحديد .

— لماذا ؟

— الأسطى أنور يأبى أن يزيد أجره .. رغم أنه هو الذى يقوم بالعمل فى المحل وحده .. ورغم أن ربنا فتح عليه واغتنى .

— وكيف حال أهل الحارة كلهم ؟

— عم بهنسى تعيشى انت .. والباق كلهم كما هم .. اجلسى يا سيدة تفضلى يا بنتى .

ولم تعرف سيدة أين تجلس . كانت فيما مضى تجلس على الأرض ببساطة .. لم تكن تخشى على ثيابها من الاتساخ .. لأن ثوبها كان والأرض سواء .

وترددت برهة .. ولكن أم عطوة جذبتها من يدها قائلة ببساطة :

— اقعدى يا سيدة . حدثينى عن أحوالك .. إن النعمة تبدو عليك يا سيدة .. ما هى أخبار أم عباس ؟..

— تركتها من مدة .

— كيف ؟

— ذقت منها المر ..

— وأين أنت الآن ؟

— عند ناس طيبين يقطنون هنا فى جنينة ناميش .

وجلست سيدة بجوار أم عطوة .. وبدت لها الحارة أضيق مما كانت .. والقمامة متراكمة أمام الدور .. وكل شىء حولها يبدو قذرا رثا ..

ولم تجد للمكان جاذبيته القديمة ..

ولم تجد باشتهاء للحلوى المرصوصة على القفص ..

هل تغير المكان يا سيدة .. هل ضاقت الحارة .. وازدادت القذارة والرثاثة ؟

لا يا سيدة ..

المكان لم يتغير .. والحارة لم تضق .

وإنما تغيرت أنت ..

نظفت ثيابك .. وتبدلت مقاييسك للمكان وللبشر .

تعودت عيناك .. على طرقات أوسع .. وأمكنة أنظف وامتلأت معدتك .. فلم تعودى تتلهفين على نبوت الغفير وبراغيث الست .

و لم تطل جلسة سيدة بجوار أم عطوة .. ونهضت تودعها قائلة :

— كتر خيرك يا خالتى أم عطوة .

ومدت أم عطوة يدها بقطعة من الحلوى وهى تجيب قائلة :

— الله يعافيكى يا بنتى .. خذى هذه على ما قسم .

— كتر خيرك يا خالتى أم عطوة .

وأحست سيدة أنها تود أن تمنح أم عطوة شيئا ولكنها كرهت أن تجرح شعورها بإعطائها ثمن الحلوى . فمدت يدها إلى الفجل قائلة :

— عايزة حزمتين فجل يا خالة .

— خذى ما تريدين يا بنتى .

وأخذت سيدة حزمتى الفجل ووضعت يدها فى جيبها وأخرجت قرشا من العيدية التى منحها إياها أهل البيت .

وتساءلت أم عطوة فى استنكار :

— ما الذى تفعلينه يا سيدة ؟

— ثمن الفجل يا خالتى أم عطوة .

— عيب يا سيدة .. عيب يا بنتى .

— لم يا خالة ؟.. لقد أخذت ثمنه من الذين أعمل عندهم ويجب عليك أن تأخذيه ..

— والنبى ما يستهلوا .. دول حزمتين فجل .

— خذى يا خالتى أم عطوة .. ده عرقك ..

وأخذت أم عطوة القرش بعد تردد واستنكار . وسارت سيدة بعد أن ودعتها متجهة إلى شارع الخليج ..

هذه الحارة يا سيدة .. لم تتغير .

وهؤلاء الناس الذين بقوا فيها لم يتغيروا .

أترى يتحتم علينا لكى نصبح أفضل .. أن نترك أماكننا ؟..

ألا يمكن أن يصبح موطننا نفسه أفضل ؟..

لماذا لا نجعل الطرقات أنظف .. والبيوت أنظف ؟

ولماذا عندما نصبح نحن أنظف .. لا نبقى فيها وننظفها ؟..

كل من أصبح أفضل .. ترك الحارة ورحل .. و لم يبق فيها إلا أولئك الذين جمدت حياتهم فيها .. وأضحوا بفقرهم جزءا من فقرها .. وبقذارتهم جزءا من قذارتها ..

ومع ذلك .. ومع كل ما رأته فيها من رثاثة .. وقذارة .. ما زالت تحس بالحنين إليها .. وتمنت لو انطلقت تلعب الحجلة وتقفز الحبل مع أطفالها ..

وهى تحب أهلها .. إنهم طيبون .. يعاون بعضهم بعضا ..

وعبرت سيدى الأربعين واتجهت فى طرقات جنينة ناميش إلى البيت والشمس على وشك المغيب ..

وعندما صعدت السلم لمحت حمدى يقف فى نافذته .. ولمحت صفاء تقف فى نافذتها .. ووصل إلى مسامعها صوته يهتف ..

— كل سنة وأنت طيبة ..

وسمعت صفاء ترسل الرد ناعما كنسمة صيف :

— وانت طيب .. إن شاء الله السنة القادمة تكون حصلت على الكفاءة ..

— وبعد سنتين انتهيت من البكالوريا ..

ـ وبعد أربع سنين انتهيت من الجامعة .

وأحست سيدة بلهفة كل منهما على الآخر ..

إنهما يتعجلان الزمن .. ويودان لو طويت السنوات الست .. لكى يصبحا أهلا للالتقاء .. وللزواج ..

أجمل ما فى الحياة .. أن تجد أن من تتلهف على لقائه .. أشد منك لهفة على هذا اللقاء ..

وليس هناك من يتلهف عليك يا سيدة أو يتعجل من أجلك السنين .

ومع ذلك الحياة جميلة .. لا ضرورة لأن نأخذ لأنفسنا كل ما يأخذه الغير ..

إنها أخذت منها بعض ما لم يأخذه أولئك الذين ما زالوا يقطنون فى الماوردى ..

أخذت هذا الحلق الذهبى ، وأخذت اللقمة الطيبة والنومة المريحة .. والمعاملة الكريمة .

ألا يكفيها هذا حتى تروح تتطلع إلى ما يأخذه الغير ؟.

لو أن الإنسان استطاع أن يقنع شعوره بمنطقه .. لاستراح ..

ولأحست سيدة بأنه يكفيها ما حصلت عليه ..

ولكن مشاعرنا .. ورغباتنا التى تنبت من الباطن .. لا تقتنع بمنطق ..

إننا نريد .. ليس لأن هذا ما يجب أن نريد .. أو لأنه ما نستطيع أن نأخذ .. بل لأن شيئا أحمق فى باطننا يلح عليه .. فى إصرار .. لا يقبل منطقا .. ولا يقنع بحكمة أو عقل ..

هذا هو ما يسمونه الحب يا سيدة .

إحساس غير عاقل .. ولكنه موجود .. ولا حيلة لنا فيه .

ودخلت سيدة البيت .. وتحركت بغير إرادة إلى حجرة حمدى .. لتفعل له شيئا أى شىء .

(١٥)

نمر التلامذة

بدأ موسم الامتحانات . وكان حمدى مقبلا على امتحان شهادة الكفاءة .. وانقطع عن الذهاب إلى المدرسة للاستذكار . بعد أن انتهت الدراسة وبدأت امتحانات النقل .

ولم يعد حمدى يتشاغل بلعب الكرة فى الشارع أو السير مع الرفاق فى الطرقات .

وبدأ سهرات الاستذكار مع صديقيه صبحى ورءوف . وأخذت سيدة تؤدى مهمتها فى معاونتهما على السهر بإعداد الشاى ، وتقديم العشاء .

ولم يكن السهر كله استذكارا .. كان جزء كبير منه يضيع فى الدردشة والمزاح والمناقشات السياسية ، وشرب الشاى والطعام .

وكانت تجمع الأصدقاء الثلاثة صلة زمالة مدرسية وثيقة . ولم يكن هناك تشابه بينهم . كان رءوف ريفيا ممتلىء الجسد ضحوكا مهزارا . وكان يقطن مع أحد أقاربه فى حجرتين بجوار سيدى أبو الريش . وقد تعود صديقاه الحميمان بمجرد زيارته أن يقفزا هابطين أسفل السرير العالى ذى الأعمدة الأربعة الحديدية السوداء .. ويغرقان فى قفف المنين والفطير المشلتت والقشدة الفلاحى .

وكان صبحى طويل القامة قوى البنية .. يجيد لعب الكرة .. ويجيد العراك .. ولم يكن يجيد استعمال ذهنه قدر ما يجيد استعمال عضلاته .. التى كانت وسيلته الوحيدة للتفاهم .

وكانت الوالدة تعامل الاثنين كما تعامل حمدى ولكنهما كانا أكثر إعجابا بأبيه .. وكانا يؤكدان له أنه من الآباء « اللقطة » ليس له مثيل .. فقد كان يتعامل معهما وكأنهما صديقاه .. وكان يتعجب لماذا كل هذا الوقت فى

الاستذكار قائلا « ماذا ستفعلون إذن فى الليسانس » ؟.

وكان الاثنان يهابان سميحة على طيبتها .. ويتجنبان المزاح أمامها خشية أن يبدر من أحدهما ما يخدش سمعها .

ومن أجل هذا كانا يفضفضان بكل مزاحهما على سيدة .. الأنثى الوحيدة فى البيت القابلة للمزاح .. وكان حمدى ينهرهما من آن لآخر قائلا :

— وبعدين ياولاد الصرم .. اتلموا .

ويرفع رءوف حاجبه وينظر إلى سيدة متسائلا :

— ما رأيك يا سيدة .. تتزوجينى ؟

وتضحك سيدة قائلة :

— لما تتشطر وتأخذ الشهادة يا سى رءوف .

ويهتف رءوف ضاحكا :

— يا بنت الدايخة .. يعنى هكذا .. لا أعجبك ..؟ لا بد من الشهادة ؟

ويضحك صبحى قائلا :

— طبعا .. اتسيغت ..

وتغادر سيدة الغرفة حاملة براد الشاى الفارغ .. وتسمع صوت رءوف يلاحقها قائلا :

— والله بنت زى اللوز .. عليها صدر !

ويستدرك صبحى متسائلا :

— صدر فقط ؟

ويصيح حمدى ناهرا :

— اتلم منك له .. يا غجر ..

ويبدأ بعد ذلك النقاش فى السياسة عن الإنجليز والوفد والدستور .

ويقول رءوف :

— خسارة .. المذاكرة لحمتنا عن المظاهرات .

ويرد صبحى قائلا :

— عمال العنابر خرجوا أمس .

— وماذا فعلوا ؟

— اصطدموا بالبوليس عند كوبرى أبو العلا .. بعد أن قلبوا الترام .. وحطموا فوانيس الشارع كلها .

وقال حمدى فى أسف :

— خسارة .

وسأله صبحى :

— خسارة ماذا ؟

— الترام والفوانيس .

وقال صبحى فى حماس :

— ليس هناك سبيل سوى هذا .

— لأجل ماذا ؟

— لأجل عودة الدستور .

وقال حمدى :

— ثم ماذا ؟

— يعود الوفد إلى الحكم .

— وبعد ذلك ؟

— يصبح كل شىء على ما يرام .

وضحك رءوف ضحكة عالية قائلا :

— حمار كبير .

— لماذا ؟. إن الوفد هو ممثل الشعب .

— الشعب غلبان يا صبحى .. أنت لا تعرف عنه شيئا .. اسألنى أنا عنه فى بلدنا .. فى كفر مجور . لا تعرف ماذا يأكل .. وماذا يشرب .. وأين يسكن ..

فى حكم الوفد .. وفى حكم الأحرار .

ورد صبحى بقوله :

— يأكل ما نجده عندك تحت السرير .. فطير .. قشطة .. ومنين .

— إنه يصنعه .. ولا يأكله .. هذه أشياء .. نستمتع بها نحن .. أما هو فيأكل البتاو والسريس .. ويشرب الماء العكر .. وينام بجوار الجاموسة .

وهز حمدى رأسه فى أسى قائلا :

— نحتاج إلى معجزة .. تدفعنا إلى ما يجب أن نعمله .

وأردف رءوف :

— ونحتاج إلى عمر طويل .. من العمل الشاق الجاد ..

وعاد حمدى يهز رأسه فى حيرة قائلا :

— أحس كأننا نعيش فى ضباب .. نحن لا نعرف ما نريد .. وإنما نجرى لمجرد الجرى .. ونهتف لمجرد الهتاف .

— يجب أولا .. أن نخرج الإنجليز .

وهتف صبحى :

— الوفد ينادى بإخراج الإنجليز .

وقال رءوف :

— كان زمان .. قبل أن يموت سعد .

— واليوم ؟

— تشغله أشياء كثيرة غير الإنجليز .. الدستور والحكم ..

وهتف صبحى ضاحكا :

— يحيا الوفد ..

وقال رءوف :

— كفى سياسة .. نريد العشاء .

ورد حمدى :

— نذاكر أولا .. لقد أمضينا ساعة دون أن نقرأ كلمة .

ورد رءوف فى إصرار :

— العشاء أولا .

وصاح صبحى :

— أجل العشاء أولا ..

ومرت الليالى بالثلاثة .. بين المذاكرة وشرب الشاى والعشاء والسياسة حتى حل موعد الامتحان .

وأحست سيدة بحمدى يستيقظ قبيل الفجر ليتوضأ ويصلى ويقرأ القرآن .

ونهضت من فراشها وهى تشعر برغبتها فى أن تعاونه دون أن تدرى كيف ، واقتربت من باب الحجرة ووقفت به مترددة ولمحها حمدى فسألها فى دهشة :

— ما بالك يا سيدة ؟

— هل تريد شيئا ؟

— كتر خيرك يا سيدة ..

— أحضر لك الفطار ؟

— ما زال الوقت مبكرا .

— أعمل شاى ؟

— متشكر .. نامى أنت .

— ولكنك قد تريد شيئا .. أستطيع أن أقضيه لك .

— سأذاكر .. هل تستطيعين أن تذاكرى لى ؟

وتنهدت سيدة وقالت فى حرارة :

— يا ريت يا سى حمدى .

وضحك حمدى قائلا :

— عندما آخذ الكفاءة .. سأعلمك القراءة والكتابة حتى تذاكرى معى فى الجامعة .

وهزت سيدة رأسها وأجابت :

— لا فائدة .. لقد حاولت ست سميحة .. ولكن رأسى كالحجر ..

— أنا أعرف كيف أعلمك .. وسأجعلك تقولين شمس .

وابتسمت سيدة وحاولت أن تقولها ولكنها لم تفلح فقالت :

— ومالها سمس يا سى حمدى ..

ورد حمدى مستسلما :

— خلاص .. نسميها سمس عشان خاطرك .. روحى نامى بقى .

وكانت الشمس قد بدأت تلقى أشعتها الحمراء من النافذة فقالت سيدة وهى ترنو ببصرها إلى النافذة :

— ليس هناك وقت للنوم .. لقد طلعت .

— ما هى التى طلعت ؟

— اللى ما تتسماش .

وضحك حمدى ثم ألقى الكتاب جانبا ونهض ليرتدى ملابسه قائلا :

— إذن حضرى الإفطار .

— أأذهب لأشترى الفول ؟

— لا داعى .. حضرى أى شىء ..

— أقلى لك بيضا ؟

— اقلى .

— بالبسطرمة ؟

— بأى حاجة .

وذهبت سيدة إلى المطبخ يملؤها إحساس بالرضا . وهتفت من قلبها « ربنا ينجحك .. ربنا ياخذ بيدك » .

رغم أن هذه الدعوة .. تقربه من صفاء .. فهى لا تملك أن تمنعها عنه لأنها تتمنى الخير .. له .. ولكل من يحبونه .

لقد باتت تشعر أن صفاء قريبة منها .. لأنه يحبها .. ولم يكن هناك سبب للغيرة .. إذ لم يوجد ما يتنافسان من أجله فكل منهما يطمع فيما لا يطمع فيه الآخر .. ويأخذ ما لا يأخذه .. ويعطى ما لا يعطيه .

وانتهت من إعداد الإفطار وحملته إلى حجرة الطعام . وكانت الست فاطمة قد استيقظت فسألتها وهى تغادر غرفتها :

— حمدى صحى ؟

— من بدرى .. وقد أعددت له الفطار .

وبدا حمدى خارجا من غرفته متجها إلى المائدة وحولت إليه الأم أسئلتها :

— أليس الوقت مبكرا ؟

— سأمر على رءوف وصبحى لكى نراجع بعض الدروس معا .

— ربنا ينجحكم .. ويعوض تعبكم خير ..

ومرت أيام الامتحان .. وكان كل من فى البيت يبدو مشدود الأعصاب ينتظرون عودة حمدى ليسألوه فى لهفة عما فعل .. عدا الأب .. فلم يكن يبدو أنه يعلق أهمية كبيرة على امتحان حمدى أو نجاحه .. وكان كل ما يهمه فى موضوع الامتحان .. ألا يرهق حمدى نفسه .. وألا يهتم كثيرا بنتيجة الامتحان .. وألا يتضايق إذا سقط .

ولقيه عند عودته فى الظهيرة فى أحد أيام الامتحان . وكان حمدى يبدو مرهقا متجهما . وجره من يده ثم ضمه إليه وسأله ضاحكا :

— مالك يا جحش .. تبدو وكأنك خسرت واترلو ..

وتنهد حمدى فى حزن ولم يبد عليه الاستعداد للمزاح . وعاد أبوه يربت ظهره فى رفق متسائلا :

— مالك ؟

— لبخت فى الحساب .

— يا أخى .. حساب إيه وبتاع إيه .. جدك أكبر محسباتجى فى البلد .. فلس

أربع مرات .. وسيفلس عن قريب .. يا شيخ بلا حساب .. بلا كلام فارغ ..

— أصلى لو سقطت فى الحساب حاسقط فى الامتحان كله .

— اسقط .. ولا يهمك .

— إذا سقطت .. فلن آخذ الكفاءة .

— لا ضرورة لأن تأخذها .

وبدت الابتسامة تسترق خطاها إلى شفتى حمدى وسأل أباه :

— إذا لم آخذ الكفاءة . فلن آخذ البكالوريا .

— ولماذا تريد البكالوريا ؟

— لكى آخذ الليسانس .

وضحك الأب فى سخرية قائلا :

— ثلاثة أرباع حمير البلد أخذوا الليسانس وما زالوا حميرا .

وسأل الابن ضاحكا :

— يعنى أسقط ؟

— ولا يهمك .. إذا سقطت لك عندى فسحة لا تحلم بها .

وسمعت الأم جملة الأب الأخيرة فأقبلت متجهمة وقالت فى لهجة زاجرة :

— إذا سقط ستفسحه ؟

— أجل .

— أهذا كلام يقوله عاقل ؟

— لم لا ؟..

— وإذا نجح ؟

— لن أفعل له شيئا .

— أصحاب العقول فى راحة .

— يا بنى آدمة .. إذا سقط فهو فى حاجة إلى شىء يفرحه .. أما إذا نجح فتكفيه فرحة النجاح .

ونجح حمدى .. أخذ الكفاءة هو ورفيقاه فى الدراسة ..

ظهرت النتيجة فى عصر يوم حار .. ولفحة صهد تسرى فى الجو .. والزهور الحمراء التى تكسو شجر البانسيانس فى شهر يوليو تزيد من وهج الشمس .. وصوت باعة الصحف ينطلق فى الطريق « نمر التلامذة » « ملحق البلاغ .. نمر التلامذة » .

وقبل أن يهبط حمدى لشراء الصحيفة لمح صاحبيه رءوف وصبحى يندفعان من باب البيت وهما يصيحان :

— مبروك يا حمدى .. نجحنا كلنا .

وأخذ كل منهما يضم حمدى فى فرحة ورءوف يهتف :

— مش مصدق إنى نجحت .

وصبحى يهتف ضاحكا :

— تأتى مع العمى طابات .

واندفع الثلاثة إلى داخل البيت ورءوف يقول :

— ماذا عندكم يؤكل .. ماذا تعطونه للناجحين الذين حصلوا على الكفاءة ؟

وكانت الأم قد خرجت على صوت الضجة وهتفت متسائلة :

— خير يا ولاد ؟

وصاح رءوف :

— نجحنا يا تيزة .

— كلكم ؟

— أجل كلنا .

— ألف مبروك .. ربنا يوفقكم دايما .. ويجعل فى وجهكم القبول .

وبدت سميحة وراء أمها وهى تهتف فرحة :

— مبروك يا حمدى .. مبروك يارءوف .. مبروك يا صبحى .

وقال رءوف ضاحكا :

— إذا حضرت الكنافة ..

وانقض رءوف بأصابعه على الصينية .. ودفعه صبحى برفقه فألقاه على الفراش وتناول الصينية قائلا :

— إيه يا سى رءوف .. هى سايبة ؟.

وغرس أصابعه فى قلب الصينية وملأ قبضة يده بالكنافة ثم دفعها فى فمه .

ونهض رءوف فأمسك بالصينية قائلا لصبحى :

— انت وحش .

— وانت جحش .

— ولاح الأب على باب الغرفة وقد أمسك بالدمبلز فى يديه متسائلا فى اهتمام :

— من الوحش .. ومن الجحش ؟

وضحك حمدى قائلا :

— على أية حال كلاهما بالكفاءة ..

— غدا يصبحان بالبكالوريا .. وباللیسانس .. ويبرطعان فى دواوين الحكومة ..

ورد صبحى بقوله :

— أنا سأدخل البوليس أو الحربية .

وقال رءوف :

— لن يأويك غيرهما .. تلعب كرة وملاكمة .. كما تشاء ..

وتساءل الأب :

— وأنت ستدخل أى كلية يا رءوف ؟

— سأدخل الحقوق .

— لماذا ؟

— لكى أصبح وزيرا .

— مرة واحدة ؟!!

— أليس الوزراء والزعماء كلهم من الحقوق ؟

— وأى وزارة ستتولى ؟

ورد حمدى ضاحكا :

— وزارة الفطير المشلتت والقشطة .

وأجاب الأب :

— فتحت نفسنا للأكل .. ما رأيكم .. أن نتعشى معا .. سأدعوكم الليلة على العشاء عند « الحاتى » حلاوة النجاح .. موافقون .. أم تأخذوا ثمن العشوة ؟

وتبادل الأصدقاء الثلاثة نظرات التشاور وكان حمدى هو البادىء بالرد :

— نفضل ثمن العشوة .

واعترض رءوف :

— ألم تقل إن عمى على الحديدة ؟

وضحك الأب قائلا :

— من قال هذا ؟

ورد حمدى ضاحكا :

— أنا يا بابا ..

— ليس إلى هذا الحد .. نستطيع أن ندبر ثمن العشوة ولو بالسلف .. كم يكفيكم .. خمسون قرشا ؟

وهتف حمدى :

— كفاية جدا .

— اتفقنا .. تعال معى وخذها وأرحنى من وجهك ..

وأردف يقول وهو يغادر الحجرة :

— أنتم تنجحون .. وأنا أدفع ثمن النجاح .

وانتهى الأصدقاء من أكل الكنافة .. وغادر رءوف وصبحى الدار بعد أن

اتفقا مع حمدى على الغداء معا فى الغد .

واستقر حمدى فى الحجرة وحده .. وكانت الشمس قـد أوشكت على المغيب .. ووقف بحذو النافذة يرقب نافذة صفاء .

و لم تبد صفاء فى النافذة .. وتململ حمدى فى وقفته .. وغادر الغرفة فى قلق ثم عاد إلى النافذة ثانية . ولكنه لم يكد يدخلها حتى دق جرس الباب .

وجرت سيدة نحو الباب تفتحه . فبدت أمامها صفاء باسمة فى رقة وسألتها قائلة :

— سميحة موجودة ؟

وكانت سيدة تعرف أنها تعنى « حمدى موجود » وكانت تعرف أن حمدى يقف لينتظرها فى النافذة وتدرك كيف يسعده مجيئها فأجابت بغير وعى :

— أجل موجود ..

ثم هتفت فى فرح :

— أتعرفين أن سى حمدى نجح .. وأخذ الشهادة .

— أجل أعرف ولقد أتيت لتهنئتهم .

وأقبلت سميحة تستطلع من الطارق .. ومن ورائها بدا حمدى وهتف الاثنان فى نفس واحد :

— أهلا صفاء .. اتفضلى .

ومدت صفاء يدها تصافح سميحة قائلة فى فرحة :

— مبروك نجاح حمدى .

ومد حمدى يده يتلقى يدها الممدودة وهى تهتف به :

— مبروك يا حمدى .. عقبال البكالوريا .. والليسانس .

وبدا حمدى كأنه يوشك أن يضمها إليه وأجاب وأنفاسه تتلاحق :

— الله يبارك فيكى يا صفاء .. تفضلى .

— أمال فين تيزة ؟

وأقبلت الأم تحيى صفاء وتتلقى تهنئتها ومن ورائها بدا الأب وقد أكمل ارتداء ملابسه وأمسك الجاكتة فى يده صائحا بحمدى بعد أن حيا صفاء :

— خد ياواد لبسنى ..

وأمسك حمدى بالجاكتة يلبسها لأبيه . ومد أبوه ذراعيه يضم حمدى إليه فى فرحة قائلا :

— من قدنا ؟. عندنا شماشرجى بالكفاءة .

ورمق الأب ابنه بنظرة إعجاب وهو يتفحصه من أسفل إلى أعلى قائلا :

— طولت يا حمدى .. تعال قف جانبى أمام المرآة لأقيس طولك ..

وكان حمدى قد تعود أن يقف بجوار أبيه .. ليرى إلى أى حد قد استطالت قامته . ونظر أبوه إلى حمدى وهو يقف بجواره فى المرآة قائلا :

— إيه ده ياواد .. لقد أصبحت أطول منى .. لن تجد بعد ذلك من تقيس عليه طولك .

وبدا التجهم على وجه الأم وهى تأخذ قول الأب بطريقة متشائمة لم يقصدها الأب فهتفت قائلة :

— لماذا تقول هذا ؟. ربنا يعطيك العمر الطويل ويقيس طوله عليك دائما .. تف من بقك سبع تفات .

وصاح الأب ضاحكا :

— يا ستى لا أقصد أنه لن يجد من يقيس عليه طوله .. لأنى سأموت .. بل لأنه قد أصبح أطول منى .. ولن أصلح له مقياسا للطول .

وردت الأم فى إصرار :

— معلهش .. برضه تف من بقك سبع تفات .

— ولماذا سبعة .. خمسة لا تنفع ؟

— قلت لك سبعة .

— وإذا جف ريقى ؟

— ليس هذا وقت مزاح .
وتدخلت سميحة قائلة :
— تف بقى يا بابا وريحها .
— حاضر .. حاتف عشرة .
— لا .. سبعة بس .
وضحك الأب قائلا :
— يا ولية اعقلى .
ثم أصدر الأب صوت التف والأم تعد حتى بلغ السابعة فقالت :
— كفى ..
— استرحت ؟
— أجل ..
ثم دعت من قلبها :
— ربنا يخليك لهم .
ونظر إليها الأب فى دهشة :
— أمال بتدعى علىّ ليه .. كل ما زعلك إن ربنا يأخذنى .
— بعد الشر .
وقال حمدى ضاحكا :
— تقصد ربنا ياخد بيدك .. وتنجح مثلى .
واتجه الأب إلى الباب الخارجى وهو ينظر إلى صفاء قائلا :
— وحشتينا يا صفاء .. كيف حال بابا ؟
— بيسلم عليك يا عمى .
— قولى له إنه واحشنى .
— حاضر يا عمى .
ومد الأب يده يربت ظهرها قائلا وهو يضحك :

— واسمنى شوية .
واحمر وجه صفاء وقالت فى استحياء :
— هو انا رفيعة يا عمى ؟
— تحتاجين إلى خمسة كيلو لكى تملئى الحضن ..
ورد حمدى فى حماس :
— لا يا بابا .. صفاء هائلة هكذا .
— اسكت انت .. انت أصلك حمار .. ربنا يعطيك خمسة كيلو .. وانا اعرف كيف اوزعها لك .
وزاد خجل صفاء وهتفت سميحة فى احتجاج .
— إيه يا بابا الكلام ده .. صفاء بتتكسف .
تدخلت الأم ناهرة الأب بقولها :
— يا راجل اختشى .. اعقل ..
واتجه الأب إلى الباب الخارجى وهو مستمر فى مزاحه قائلا :
— اسمعى كلامى يا صفاء .. خمسة كيلو حتى تملئى الحضن .
وقبل أن يعبر الباب وجه الحديث إلى الأم قائلا :
— سأتأخر الليلة ..
ثم هبط الدرج وهو يدندن « يا منت واحشنى .. وروحى فيك » .
وتمتمت الأم قائلة :
— ربنا يتممك بعقلك .
وشيعه حمدى بنظرة ملؤها الإعجاب .
— ربنا يتممنا احنا بعقلنا .. بابا لا يوجد منه فى هذه الدنيا سواه .
وهتفت الأم ضاحكة :
— ربك كريم بكفى واحد منه فى هذه الدنيا .. لأنها لا تحتمل سواه ..

(١٦)

طاقية الثلج

قال الأب عند خروجه إنه سيتأخر .

ولكن الأسرة فوجئت بعودته قبل العشاء .

وهتف حمدى فى فرحة :

— بابا جه .

كان دخول الأب إلى البيت دائما شيئا مبهجا .. تحوطه ضجة مفرحة .. وتنم عنه وثبات على السلم تطرق درجاته فى قوة وعنف .. وتسبقه صيحات مازحة أو نداءات ساخرة .. تصل إلى آذان الجيران .. ليعرفوا قبل أهل البيت أن سى محمد قد عاد ..

وكان سى محمد يحمل على كفه أو تحت إبطه أشياء ممتعة .. فاكهة فى قراطيس .. خوخ وبرقوق .. وعنب ومشمش .. يتسلى عليها فى الطريق .. فيأتى على نصف ما بها .. غير ما يكون قد أكله فى حانوت الفكهانى أو أمام عربته .. وهى كميات لا يستهان بها وإن كانت على سبيل التذوق .. ولقد حكى عنه أنه وقف أمام حانوت سيد الفكهانى على ناصية شارع التلول وشارع السد وبدأ يتذوق اليوسف افندى واستمر فى تذوقه وعم سيد حائر فى كيفية الحساب ولم يجد سبيلا إليه سوى عد القشر المتساقط من سى محمد والذى يقال — لا يدرى أحد إن كان حقيقة أو من باب التشنيع — إنه بلغ الخمسين قشرة .

وقد يحمل سى محمد بطيخة تحت إبطه أو شمامة .. أو أكياسا بها أصناف الجبن أو علب الملبن والهريسة أو الكنافة والبقلاوة .. ولا يكاد تعبر قدماه الباب حتى يفتح الأكياس .. ويأكل ويفرق ..

وكانت سيدة تشارك فى فرحة دخوله ..

كانت لا تكاد تسمع وقع أقدامه حتى تترك كل ما بيدها وتندفع إلى السلم لتتلقف عنه بعض ما بيديه .

وكان يلقاها ضاحكا .. منادياً إياها بسيدة البلطية .. متسائلا :

— ستك فوق ؟

— أيوه يا سيدى .

— مزعبية .. والا هادية ؟

— كانت مزعبية .. وهديت .

— وإيه اللى زعبها .. وإيه اللى هداها ؟

وتصعد سيدة بجواره تقص عليه خلاصة ما حدث فى يومهم .. حتى يصلا إلى الصالة .

وهى تذكر ذات يوم عودته وهو يتوثب فوق السلم ويعبر الباب ضاحكا وهو يحمل علبتين كبيرتين أنيقتين وأقبل عليه حمدى وسميحة يرمقان العلبتين فى فرحة وتساءل حمدى :

— ما هذا ؟

وأجابت سميحة تسبق إجابة أبيها :

— لازم شيكولاتة .

وتدخلت الأم صائحة :

— كل هذا شيكولاتة .. متى تبطل هذا التبذير .. ألم يكن أولى بك ..

وقاطعها سى محمد قائلا :

— يا ستى لا تدققى .. خليها على الله .

وردت الأم فى استياء :

— من الذى سيأكل كل هذه الشيكولاتة ؟

وردت سميحة وحمدى فى نفس واحد :

— نحن .

وتناول حمدى إحدى العلبتين وفض لفافتها بسرعة ومد يده داخلها فى لهفة .. فأخرج كتابا .. وأخذ يقرأ أوراقه فى دهشة .. ورماه جانبا .. ثم مد يده بسرعة إلى العلبة الأخرى .. فإذا بها كتاب آخر .

وبدت خيبة الأمل على وجه سميحة وأخيها وقالت سميحة فى يأس :

— إنها كتب .

وأجاب الأب ضاحكا :

— أجل .. إنها مجموعة قصص موباسان .

ورد حمدى معاتبا :

— ولماذا قلت إنها شيكولاته ؟

— أنا لم أقل شيئا .. أنت سألت ما هذا .. وسميحة قالت لازم شيكولاتة .. وأمك بهدلتنى .. لأنى مبذر .. وأنا لم أقل فى كل هذا شيئا .. لا عليكم .. كل المناقشات التى تدور فى هذا البلد .. يتكلم الجميع .. عدا الذى يعرف الحقيقة .

وقالت سميحة فى لوم :

— عشمتنا بالشيكولاتة .. وفتحت نفسنا لها .

ومد الأب يده فى جيبه وهو يضحك قائلا :

— يا ستى .. حقك علىّ .. خدى هذا نصف ريال اشترى به شيكولاتة كما تشائين .. وأنت يا حمدى .. نصف ريال لك ..

ثم نظر إلى سيدة التى وقفت تتطلع إليه قائلا :

— وانت يا بت يا بلطية .. خدى نصف فرنك عشانك .. شبرق به نفسك .

وهزت الأم رأسها فى غيظ .. وهى تجده يبذر النقود يمنة ويسرة .

وقالت تؤنبه كأنها تؤنب طفلا :

— ألم يكفك تبذيرا فى الكتب .. ما لزوم هذه الكتب التى أحضرتها .. أليس

عندك الدولاب مليئا بالكتب .. ما آخرة هذا الورق الذى ملأت به الدار ؟

وأمسك سى محمد بالكتابين الأنيقين وهزهما فى يده قائلا :

— هذه كنوز يا ولية .. وليست ورقا .. لو انك استطعت أن تتذوقيها .. لوجدتها أمتع من الطعام والشراب .. إننى أستطيع أن أغلق على نفسى حجرة .. وأظل فيها عاما رفيق كتاب .. دون أن أشعر بالوحدة .. الكتاب الممتع يا فاطمة .. خير مؤنس لنا .. خير من خير صديق .. إنه نعمة حرمك الله .. وبقية الجهلاء منها ..

وأشاحت فاطمة بوجهها وأجابت فى سخرية :

— طول عمرك وانت غرقان فى الكتب .. ماذا أخذنا منها .. كان زمانك .. مدير .. أو وزير .

وهز سى محمد رأسه وقال فى كبرياء :

— الحمد لله .. الذى نجانا من هذا .. كنت سأضيف حمارا إلى الحمير التى تزخر بها البلد .

— قصر ديل .. كفاية عليك المزينين والقهوجية الذين تصاحبهم وتضيع معهم وقتك .

— الأسطى محمود المزين .. خير عندى من مائة مدير .

— هذا هو ما نأخذه منك .. خليك واكس نفسك وواكسنا معاك .. حتى المعاش .. الذى لن يبقى لنا غيره .. لا تريد أن تنبهه .

— سيخصمون منا بضعة جنيهات .. خسارة .

— خسارة أن يكون لنا معاش ينفعنا فى اليوم الأسود .. هل يدرى أحد ما تأتى به الأيام .

— دعينا نعيش يا ولية ... لا تحمل هم الغد .. عمر الخيام قال : « أمس ولّى وغد لم يولد » .

— هذا هو ما نأخذه منك .. ومن عمر سخام بتاعك .

ولم يكن سى محمد يهمه .. غير يومه .. يسعى ليأخذ منه أقصى ما به .. يقرأ ويكتب .. ويأكل ويشرب .. ويغازل ويضحك .. ولم يكن يزن الناس بمراكزهم أو بأموالهم أو بأصلهم .. وإنما بخفة دمهم .. ولطفهم .. وبشاشتهم .. وطيبتهم .. وكانت علاقته بهم تقوم على مدى قدرتهم على مبادلته النكتة ومشاركته المزاح ..

ويروى أبوه عنه أنه استقال من وظيفته فى وزارة المعارف ليغلق على نفسه حجرته فى البيت ليحفظ ديوان ابن الرومى فى وقت كان أبوه مفلسا وكان هو بمرتبه من عمله فى الوزارة .. مصدر الرزق الوحيد للأسرة .

ذلك هو سى محمد .. يسير فى الطريق منتفخ الأوداج كوزير .. ثم يستضيف شحاذا ليتناول معه الغداء فى أقرب مسمط .. ويعطى ريالا من محفظته لمحتاج .. ثم يقترض قرشا ليركب الترام حتى لا يعود إلى بيته فى منتصف الليل سائرا على قدميه .

يغير طريقه .. إذا رأى من بعيد كناسا يثير الغبار .. أو رأى .. حسن افندى يجلس أمام بيته .. وهو يتشاءم من نظرته .. ليلف بضعة كيلو مترات .. حتى يصل إلى مقصده .. تجنبا للغبار .. أو لحسن افندى .

وقبل أن يعود إلى البيت يضع مما ولذ وطاب .. ويندفع إلى السلم طارقا درجاته فى عنف واعتداد وفرحة .. كأنه يقول « أنا قادم .. افتحوا الأبواب والأذرع واستقبلونى » .

وعندما أقبل هذه المرة .. لم تنم عنه .. طرقات أقدامه .. لقد فوجئت الأسرة به وهو يطرق الباب .. ويقف به ..

وكانت عودته المبكرة مفاجأة .. جعلت حمدى يهتف فى فرحة :

— بابا .. جه .

ولكن طريقة دخوله .. كانت مفاجأة أكبر ..

كانت خطواته متثاقلة .. وقدماه تجران على الأرض .. ولا تطرقانها ..

ونظراته قد خلا منها بريقها . وملامح وجهه بغير الفرحة الضاحكة .. بل يعلوها وجوم مستسلم .. وكأنه يحمل عبئا على كتفيه .

وسار إلى باب الحمام المواجه لباب المدخل .. فى بطء ثقيل .. وقبل أن يصل إلى الحمام وقف مستندا إلى الحائط فى تهالك .. وأخذ يقضى حاجته ..

واندفع إليه حمدى صائحا :

— مالك يا بابا .

ولم تدرك فاطمة ما به .. وخيل إليها أنه أثقل فى الشراب .. واقتربت منه وهى تقول غاضبة :

— هو إيه أصل ده .. الحمام ما هو قدامك .

وأمسك حمدى بذراع أبيه يسنده واقتربت سميحة وقد بدا فى نظراتها الذهول .

وعاد حمدى يتساءل فى خوف :

— مالك يا بابا ؟

وأجاب الأب فى نبرات ضعيفة وصوت خفيض :

— لا أستطيع أن أبصر شيئا .. أنا متعب .. متعب جدا ..

وبدأت الأم تدرك أن المسألة ليست مسألة شرب .. وعلا الاصفرار وجهها واقتربت منه تمسك بذراعه فى رفق وتتساءل فى صوت مرتجف :

— مالك يا سى محمد .. ماذا بك ؟

— مش شايف .. مش قادر اقف .

— تعال .. استند إلىّ ..

وسار الأب متكئا على الأم وعلى حمدى ووراءهما سميحة وسيدة تتساءل فى ذعر :

— مال سيدى يا ست سميحة ؟..

— لا أدرى يا سيدة .. إنه يقول إنه لا يستطيع أن يرى .. وأنه متعب .

— سلامته .. ألف سلامة .

ووصل الأب إلى حجرة النوم وجلس على الفراش وهو يبدو مرهقا .. زائغ النظرات .. وتعاونت الأم مع حمدى وسميحة فى تغيير ملابسه .. وما لبث أن استلقى على الفراش فى إعياء وهو يردد فى صوت ضعيف :

— تعبان قوى ..

وبدت الأم فى حالة ذهول .. وهى تجد الرجل القوى يتهالك .. وهو لا يكاد ينطق إلا بكلمات مدغمة بين آونة وأخرى .. ليؤكد أنه متعب .. ثم ما لبث أن صمت .. مستغرقا فى نوم .. أو فى غيبوبة .

ووقفت الأم تتساءل فى حيرة :

— لا بد أن نحضر دكتورا يراه .

ورد حمدى وقد بدت عليه الحيرة والخوف :

— سأذهب لأحضر الدكتور رضا من ميدان السيدة .

واتجه حمدى إلى الباب الخارجى .. وسارت سيدة وراءه وهى تشعر كأن حملا ثقيلا هبط على الأسرة كلها .. وعندما وصل إلى الباب هتفت به :

— هل آتى معك يا سى حمدى ؟

— لا لا .. ابقى معهما .. فلعلهما يحتاجان إلى شىء ..

ولم يكد حمدى يهبط بضع درجات حتى بدت صفاء تعبر باب المنزل إلى داخل الفناء فتمهلت فى سيرها حتى تلاقى حمدى .

وقالت صفاء مبتسمة فى رقة :

— مساء الخير يا حمدى .

ورد حمدى فى شرود وواجم :

— مساء الخير .

ودهشت صفاء من وجومه وقالت متسائلة :

— ماذا بك ؟

— أبى متعب .

— كيف ؟

— أتى إلى البيت الآن .. وهو لا يكاد يبصر شيئا .. ولم يعرف طريق الحمام ثم رقد على الفراش .. فى غير وعى ..

وبدا الخوف والحزن فى ملامح صفاء واقتربت من حمدى تردد قائلة :

— مش معقول .. لقد رأيته هذا الصباح وهو ينزل السلم قفزا .. وعندما رآنى قال مازحا :

— ما زال أمامك أربعة كيلو ..

— إنه لم ينبس بكلمة سوى أنا تعبان .. ثم استغرق فى النوم .

— ربما كان متعبا .. واستغرق فى النوم .

— لا يا صفاء .. إنه فى غير وعيه ..

— وإلى أين أنت ذاهب ؟

— سأحضر الدكتور رضا .

— لا تخف يا حمدى .. إن شاء الله سيشفى .. إن أباك قوى ..

— ربنا يسمع منك يا صفاء .. أنت تعرفين قدره عندنا .

— وعندنا أيضا .. وعند كل الناس .. سأخبر أبى وأمى لكى نذهب إليكم ..

وغادر حمدى البيت ، وسار مخترقا شوارع جنينة ناميش .. عابرا بدكان سعيد العجلاتى .. محييا بعض الرفاق الذين أحاطوا بالدكان يلحمون الكفر الداخلى للكرة .. أو يعيدون العجل الذى استأجروه ..

وهنأه محمود الدُّكش صبى العجلاتى بالنجاح وصاح به ضاحكا :

— عايزين الحلاوة يا بو حميد .

وأطلق حمدى زفرة من صدره وهو يواصل السير قائلا :

— حاضر يا محمود ..

لم تكمل فرحة النجاح يا حمدى ..

لكن مالك تحمل كل هذا الهم .. إن أباك بخير .. إنها رقدة بسيطة سينهض منها أقوى مما كان ..

الناس كلهم يمرضون .. فلماذا تخاف كل هذا الخوف على أبيك .

لأنه لم يمرض من قبل .. لأنه قوى .. ضاحك .. ساخر .. لا يعرف الضعف ولا الحزن .. ولا الخوف ..

وعبر القهوة .. ولم يتجه إلى حارة السيدة بل عبر الحارة .. إلى جنينة لاظ مختصرا الطريق .. إلى شارع الوافدية .. ومنه إلى شارع الخليج .. وسار بجوار شريط الترام حتى بلغ ميدان السيدة .. واتجه إلى شارع الكومى .. حيث عمارة الدكتور رضا .

وصعد السلم ـــ شارد الذهن .. حتى وقف أمام باب العيادة .. ووجد الطبيب قد انتهى من آخر مريض .. وأوشك على مغادرة العيادة .

ووقف حمدى أمامه وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه .

وسأله الرجل الكهل فى صوت رقيق :

ـــ خير يا ابنى ؟

ـــ أبى متعب .. ونريدك أن تراه .

ـــ أين البيت ؟

ـــ فى جنينة ناميش .

وبدا التردد على وجه الطبيب . وكان حمدى يعرف أن اسم أبيه له وقع جذاب .. وأن الكثير من مدرسيه .. عندما كانوا يسمعون اسمه يسألونه ألك صلة بالأستاذ محمد السمادونى .. وعندما كان يقول إنه أبى .. كان يسمع باعتزاز مديحهم فيه وتقديرهم له .

وبدا له وهو يرى التردد على وجه الطبيب أن يستعمل جاذبية الاسم لعلها تجدى فقال فى صوت خفيض :

ـــ إن أبى محمد السمادونى .

ـــ الكاتب ؟

ـــ أجل ..

وبدا الاهتمام على وجه الطبيب وتساءل :

ـــ ماذا به ؟

ـــ لقد دخل علينا .. وهو لا يبصر ما أمامه .. ثم رقد فى غير وعى ..

ـــ انتظر لحظة .. سآتى معك .. إن أباك يا بنى .. رجل .. لا يوجد منه الكثير .. إن شاء الله لا يكون هناك شىء مزعج .

ووصل حمدى مع الطبيب إلى البيت .. وكانت سميحة تجلس فى غرفة الجلوس مع صفاء وأمها وكان أبوها الأستاذ عبد الرازق يجلس على مقعد بجوار الفراش الذى يرقد عليه الأب .. والأم تقف بجوار الفراش فى قلق ثم تسير إلى الباب الخارجى متسائلة :

ـــ لماذا تأخر حمدى ..

وتطمئنها سميحة قائلة :

ـــ العيادة ليست قريبة يا نينة .. ولا بد أنه عائد فى الطريق .

ـــ يارب يجد الدكتور .

وسيدة ترقب الحركات القلقة فى البيت .. وهى تحس بأن الهواء قد ثقل .. وأن التنفس أضحى شاقا ..

ليس من السهل أن يرقد هذا الرجل فى مثل هذا الإعياء ..

الناس كلهم يجوز عليهم الرقاد والمرض إلا هو .. إنها لم تره يمرض قط .. دائما يغنى .. ودائما يمزح .. ودائما يلعب بالحديد .. ودائما يعدو عاريا ليأخذ دشا باردا .. ودائما يستمتع بالطعام وبالشراب .. وحتى عندما يكتب .. يجلس ليقرأ ما كتب لابنه حمدى .. فى استمتاع وفرحة ..

ليس من السهل أن يخبو هذا الرجل المشتعل المتوهج .. الذى يحب الحياة ..

ويستطعمها .. ويقبل عليها ..

ولكن لماذا يبدو عليهم الوجوم .. إنه لن يلبث أن يقف مرة أخرى .. ليضحك ويغنى .. ويقول لها يا بت يا بلطية .. ويغمزها بالقروش والفاكهة .

ودخل الدكتور ووراءه حمدى .. يقوده إلى حجرة النوم .. وحيا الأم بابتسامة رقيقة قائلا :

ــ مساء الخير .. سلامة الأستاذ ..

ــ الله يسلمك يا دكتور .

وأقبل الدكتور يخرج أدواته من الحقيبة .. وهو يتساءل :

ــ إيه يا ستى .. إيه الحكاية ؟

ــ أبدا يا دكتور .. خرج الظهر سليما أربعة وعشرين قيراطا .. وعاد منذ برهة .. وهو لا يكاد يرى ما أمامه .. حتى لقد أخطأ طريقه إلى الحمام .. وأنبأنا أنه متعب .. ولم يقدر حتى على خلع ملابسه . ومنذ أن أتى وهو يرقد هذه الرقدة ..

وأخذ الطبيب يجس النبض ويقيس الضغط والحرارة .. ويفحص القلب .. حتى انتهى من اجراءات الكشف .. وبدا الوجوم على وجه الطبيب .. وهز رأسه دون أن ينطق بكلمة ..

وتساءلت الأم فى قلق :

ــ خير يا دكتور ؟

ــ خير إن شاء الله .

ــ ماذا به ؟

ــ شوية ضغط .. لكن إن شاء الله ربنا يسلم .

والتفت إلى الأستاذ عبد الرازق والد صفاء قائلا :

ــ حضرتك قريب الأستاذ ؟

ــ أنا جاره .. ولكننا كأهل .

وعاد الطبيب يهز رأسه ثم بدأ يخط فى روشتة أخرجها من حقيبته بضعة أدوية .. ثم قال وهو يسلم الورقة لحمدى :

ــ أهم شىء .. نريده الآن .. هو طاقية ثلج .. هل عندكم طاقية ؟

وأجابت الأم :

ــ لا يا دكتور .

ــ موجودة فى الأجزخانة .. تلحقوا تشتروا واحدة الليلة .. وأفضل أن يحلق الرأس بالموسى .. حتى يوضع الثلج على الرأس مباشرة .. وسنحتاج إلى حقن الجلوكوز .. وسأمر عليكم غدا بعد الظهر .

وغادر الطبيب البيت .. تاركا فى جو البيت سحابة قاتمة من التشاؤم والوجوم .

وتطايرت جمل عائمة للطمأنينة .. فى جو ليس به ما يبعث على الطمأنينة .

وبدا عبد الرازق افندى أكثر من فى البيت إدراكا للحقيقة . بعد أن أوصل الطبيب إلى الخارج وتبادل معه بضع همسات .

وحاول الرجل أن يشيع بين الأسرة إحساس الطمأنينة فقال متضاحكا :

ــ خير يا جماعة .. إن شاء الله بضعة أيام والأستاذ محمد يقوم فى أتم صحة ..

وتساءلت الأم فى لهفة :

ــ ماذا قال لك ؟

ــ قال لى إن كل شىء سيكون على ما يرام ..

وتنهدت الأم وهى لا تشعر بأنه ليس هناك ما يبعثها على الطمأنينة وقالت وهى تزفر فى حزن :

ــ ربنا كريم ..

وقالت أم صفاء وهى ترفع يديها إلى السماء فى دعوة مخلصة :

ــ يارب لطفك .. يارب رحمتك .

وقال عبد الرازق افندى وهو يمسك بالروشتة :

— سأذهب لإحضار الأدوية .

ولكن حمدى مد يده إلى الروشتة قائلا :

— كتر خيرك يا عمى .. أنا أستطيع أن أذهب بسرعة لإحضارها وسأحضر طاقية الثلج التى طلبها الدكتور .

والتفت عبد الرازق إلى زوجته وكأنه يشاورها بالنظرات فى شىء يريد أن يقدم عليه .

واقتربت أم صفاء من فاطمة ثم مالت على أذنها هامسة :

— لازمك حاجة يا ست فاطمة ؟

— كتر خيرك يا اختى ..

— إنك ستحتاجين إلى .. نقود للدواء ؟

— معى فى الدولاب ما يكفى .. ربنا ما يحرمنى من أفضالكم ..

— خيرك سابق يا ست فاطمة .. إحنا أهل .

— عارفة يا اختى .. ربنا لا يورينى فيكم سوء أبدا .

واتجه عبد الرازق افندى إلى باب البيت قائلا :

— أستأذن أنا ..

وردت أم صفاء :

— سأجلس أنا مع الست فاطمة ..

ودخل حمدى مع أمه إلى حجرة نومها .. وأخرجت من الدولاب منديلا صرت فيه بضعة جنيهات ومدت يدها بإحدى الورقات إلى حمدى قائلة :

— الحق يا حمدى قبل أن تغلق الأجزخانات .. وخد بالك من نفسك .

وعبر حمدى الصالة فى خطوات متثاقلة وأبصر سميحة تقف بجوار باب حجرة الأب تتطلع إليه فى رقدته بنظرات حزينة شاردة وصفاء تربت على ظهرها فى رفق قائلة :

— إن شاء الله سيقوم بالسلامة ..

ونظر حمدى إلى صفاء نظرة امتنان ثم اتجه إلى الباب وقبل أن يبلغه أبصر سيدة تقف متطلعة إليه فى صمت وحيرة وهى تتساءل :

— آجى معاك يا سى حمدى ؟

— لا .. روحى هاتى بقرشين ثلج .. وفوتى على الأسطى محمود المزين .. قولى له ييجى بسرعة .

— حاضر .

وانطلقت سيدة تحضر الثلج من عم جاد صاحب صندوق الكازوزة بجوار سيدى الأربعين .. وأخذت تعدو فى الطريق وهى تحس أنها تقوم بعملية خطيرة .. وصادفها سيد البطل صبى البقال وهى تعدو واعترض طريقها مغازلا :

— على فين يا حلو .. هدى شويه ..

ودفعته سيدة فى صدره بعنف قائلة :

— أوعى من سكتى .. أنا مش فاضيالك .

— ليه بقى ؟

— سيدى تعبان .. وجبنا له الدكتور .

وبدا الانزعاج على وجه سيد البطل وتساءل صائحا :

— الأستاذ تعبان ؟

— جداً ..

— غير معقول .

— من ساعة ما رجع .. وهو غائب عن وعيه .

— سلامته .. ألف سلامة .. احنا عندنا كام أستاذ فى الحتة .

واستمرت سيدة فى العدو حتى بلغت صندوق الكازوزة .. وحملت قطعة الثلج الكبيرة بين يديها .. بعد أن أخبرت عم جاد .. وكل المحيطين به أن سيدها عاد متعبا إلى الدار .. وأنه مريض جدا .

لقد أحست سيدة أن مرض سيدها .. أمر خطير يجب أن يحزن له الجميع ..

و لم تخطىء فى إحساسها .. فقد كان الأستاذ كما يسمونه صديق كل من تصادفهم فى طريقها من أهل الحتة . صديق البقال وصبيه وبائع الكازوزة .. والدندرمة .. والبسكويت البانيليا .. وسعيد العجلاتى .. ومحمد البواب .. وحسونة بائع الجوزية .. كأنهم كانوا أصدقاءه .. كان يحدثهم ويسايرهم بغير تكلف ولا ادعاء ..

وعادت سيدة إلى البيت لتضع الثلج فى جوف الثلاجة .. ثم تنطلق إلى دكان محمود المزين .. وكان عليها أن تسلك إلى الدكان طريق الوابور .. وابور الرمالى .. وأخذت تهرول وهى تحاول التقاط أنفاسها ، حتى عبرت البوابة إلى داخل الوابور .. وماكينات الطحين تطرق أسماعها فى ضرباتها الرتيبة حتى وصلت إلى البوابة المفضية إلى شارع السد . واتجهت يمنة إلى حانوت الأسطى محمود على ناصية شارع سليم .. ووقفت أمام الدكان ذى الأبواب الزجاجية ولمحت الأسطى محمود بمعطفه الأبيض يطرقع مقصه فوق رأس زبون يضطجع على المقعد الحديدى المستدير أمام المرآة .. وقد جلس بضعة زبائن فى انتظار دورهم .

واقتربت سيدة من باب الحانوت ووقفت مترددة أمام الأسطى محمود وهو يدور حول رأس الزبون يطرق فى الهواء بضع طرقات ثم يقص قصة من شعر الزبون .

والتفت إليها محمود المزين بعد أن ميزها وتساءل فى دهشة :

— فيه إيه ؟

— أنا سيدة .. عند الأستاذ محمد ..

— أعرف .. ماذا تريدين يا سيدة ؟

— نريدك أن تحضر فى البيت .

وتساءل الرجل فى دهشة وهو يتوقف عن الطرقعة :

— لماذا ؟

— لكى تحلق لسيدى .

— أحلق لسيدك ؟.

— أجل .

— ولكنه كان عندى هذا الصباح وحلق ذقنه .

— ستحلق له رأسه .

— رأسه .. لقد سألته أن أحلق رأسه .. ولكنه قال إن شعره لم يطل بعد .. ثم لماذا أذهب إلى البيت .. وهو يقضى نصف وقته هنا فى الدكان .. إنه يجلس هنا أكثر منى .

— إنه لا يستطيع الحضور .. لأنه مريض .

— مريض ؟. غير معقول .. لقد كان يجلس اليوم عندى .. كالحصان .. الأستاذ لا يمرض أبداً .

وتنهدت سيدة وردت فى حزن :

— الأستاذ راقد فى الفراش .. والدكتور قال لا بد أن يحلق رأسه لكى نضع فوقه طاقية الثلج .

واستدار الأسطى محمود كأن شيئاً لسعه وصاح فى جزع :

— أحلق رأسه لأجل طاقية ثلج ..

وقذف بالمقص من يده وضرب كفاً بكف وهتف كأنه يحدث نفسه :

— ليه .. ليه كده يارب .

ثم تناول حقيبته بسرعة وهو يقول لمن حوله :

— لا مؤاخذة يا جماعة .. أنا متأسف . لا مؤاخذة .. فيه طلب مستعجل .

وصاح الزبون الذى يجلس على المقعد :

— يا أسطى .. رأسى .. يا أسطى .. مش معقول تسيبنى من غير ما تكمل !

— ما تآخذنيش .. مش حا قدر اكمل .. لازم اشوف الأستاذ ..

ثم عاد يضرب كفاً بكف وهو يصيح والدموع تترقرق فى عينيه :

— ليه .. ليه كده يارب .. دا رجل سكرة .. دا أمير .. دا سيد الناس ..

وتناول الرجل حقيبته قائلا لصبيه :

— خد بالك من الدكان لغاية ما ارجع .. عن إذنكم .

وسار أمام سيدة قائلا :

— يالله بينا يا سيدة .. ربنا يلطف .

وعادت سيدة إلى البيت لتجد حمدى قد عاد بالأدوية وطاقية الثلج .. ودخل الأسطى محمود إلى حجرة النوم .. ليجد الأستاذ راقدا فى غيبوبته .. وأحس بساقيه لا تقويان على حمله فتهاوى على الأريكة المقابلة . ومضت برهة يحاول أن يتمالك قواه .. ويتغلب على جزعه . وحمدى وأمه يحاولان تهدئته . والرجل يهز رأسه فى أسى ويرفع يديه إلى السماء قائلا :

— يارب لطفك .. داحنا مالناش غيره .. دا أمير .. وطيب .

وحمدى يربت على كتفه قائلا :

— بابا بخير يا أسطى محمود ..

— إن شاء الله .. ربنا كريم .

وحلق الأسطى محمود رأس الأستاذ من أعلاه بالموسى . وأخذت سيدة تكسر الثلج قطعا صغيرة لكى تحشرها فى فوهة الطاقية .

ومرت الليلة الأولى من مرض الأب . دون أن تتذوق الأسرة النوم إلا لماما .. فوق المقاعد أو الأرائك ..

سيدة تكسر الثلج وتضعه فى الطاقية بدل الثلج الذائب . وحمدى يتسلم الطاقية ليضعها على رأس أبيه .

وتسلل ضوء الفجر من النافذة .. يمسح وجوها أرهقها السهر .

وجلست سيدة فى فراشها ترقب الضوء .. المتسلل وترقب الوجوه الغافية .. ورنت ببصرها إلى الرجل الراقد فى إغفاءته الطويلة فى الفراش .. وتذكرت أباها فى ليلة المولد .. وعودته محمولا على الأكتاف . وسرت فى جسدها قشعريرة .. ولكنها نفضت الخاطر عن ذهنها وهمست لنفسها ما يهمس به من حولها :

« يارب » .

(١٧)

وجهان للموت !

حضر الجد والعمة وبقية الأهل ليشاركوا الأسرة الصغيرة جزعها على الأب والتفافها حوله .

ومرت بضعة أيام .. والرجل القوى .. ملقى فى إغفاءته الطويلة فى الفراش .. بطاقية الثلج على رأسه .. وإبرة الجلوكوز مدفونة فى أحد عروق يده .. يقطر منها السائل المنحدر من الخرطوم الممتد من الآنية الزجاجية المعلقة فى داير السرير .. وأفراد الأسرة يتحركون حوله كالأشباح .

وفى يوم أقبل الدكتور .. ليفحص الرجل الراقد والذى لم يفق منذ أن أغفى إلا دقائق نطق فيها ببضع كلمات ثم عاد إلى إغفاءته .. يهذى بجمل متقطعة وكلمات غير مفهومة ..

وبدأ الطبيب فحصه .. وبدا الجسد القوى وقد ترهلت عضلاته وبرزت عظامه ..

وفى نهاية الكشف لم الطبيب أدواته فى الحقيبة .. و لم يحاول أن يكتب روشتته التقليدية .. ولكنه نظر إلى الجد الذى وقف بجواره يستند على عصاه وقد استطالت لحيته وتناثر الشعر الأبيض حولها وأمسك بيد ابنه المريض يربت عليها فى حنان ويهمس له فى صوت يقطر الدمع من نبراته :

— سلامتك يا محمد .. سلامتك يا بنى .. سلامتك يا حبيبى . رد علىّ ريحنى ..

واستطاع الطبيب أن يتمالك نفسه بشىء من الجهد ومد يده فأمسك بذراع الرجل العجوز المستند إلى عصاه فى وقفته المتهالكة وجره برفق إلى خارج الحجرة

قائلا :

ــ تعال يا حاج عبد الرحيم .

والتفت إلى الأم التى وقفت كالشبح وقد هزل جسدها وزاغ بصرها .. وهى تسائله فى لهفة :

ــ إيه يا دكتور .. إزيه دلوقت ؟..

وسار الطبيب إلى خارج الغرفة ليجد حمدى وسميحة ومن ورائهما العمة يتطلعون فى جزع وقلق إلى وجهه :

وتوقف الرجل أمام العيون التى تتطلع إليه متلهفة إلى كلمته تطمئنها وتهدىء من جزعها .

وتردد الرجل برهة وهو يهز رأسه هزة عصبية حائرة ثم قال فى صوت خفيض :

ــ إن شاء الله يكون الخطر قد زال .. لقد بذلنا كل ما فى وسعنا .. ونرجو أن يتمم الله بخير .. وأن يقيمه بالسلامة .. وإن كان سيصاب بشلل نصفى .. ولكن المهم هو أن ينجو .

وسمعت سيدة حديث الطبيب وهى تقف بباب الطرقة المؤدية إلى المطبخ تمسك بيدها الطبق الملىء بقطع الثلج الصغيرة أعدتها لكى تضعها فى الطاقية .

وأحست بالصمت يخيم على الرءوس .. وبدا الألم على قسمات الوجوه .. كأن يدا قاسية تعتصر أحشاءهم .

وكان الجد أول من نطق .. فقد كان على إنسان ما أن يقول شيئا ما .

قال الجد وهو يطلق زفرة حارة :

ــ الحمد لله .. الحمد لله على كل حال .. ربنا ينجيه من كل مكروه .

ولم تملك الأم إلا أن ترفع يدها إلى السماء تدعو من كل قلبها :

ــ يارب .. أنت قادر وكريم .. أكثر من كده وبتشيل ..

وسارت سميحة وراء الطبيب لتوصله حتى الباب .. وبدا حمدى كأن يدا

قوية قد لطمته .. وأنه يوشك أن يخر راكعا .. واتجه إلى حجرته يخفى وجيعته ويطوى اللطمة فى باطنه .

وهبط على حافة فراشه محنى الجسد متكئا بمرفقيه على ركبتيه مخفيا رأسه بين كفيه .

ووقفت سيدة ترقبه من خلال الباب ورأته يرفع رأسه من بين كفيه ثم يهز رأسه فى عصبية كأنما يحاول أن يطرد صورة بغيضة من مخيلته .

وأحست سيدة أنها تود لو استطاعت ضمه بين ذراعيها ولكنها لم تملك إلا الاقتراب منه وفى يدها طبق الثلج محاولة أن تجره فى حديث يشغله عن أفكاره القاتمة .

قالت سيدة وهى تقترب منه فى خطوات متسللة :

ــ سى حمدى .. الثلج جاهز لكى نضعه فى الطاقية .

وهز حمدى رأسه فى يأس وأجاب كأنما يحدث نفسه :

ــ لا فائدة .

ــ لماذا يا سى حمدى .. لقد قال الدكتور إن الخطر قد زال .

ونظر إليها حمدى نظرة شاردة كأنه لا يراها وأجاب بصوته الهمس ونبراته الموجعة :

ــ قال إنه أصيب بالشلل .

ثم أطلق زفرة حارة وعاد ليتحدث هامسا فى وجيعة كأنما يحدث نفسه :

ــ أبى أصيب بالشلل .. بكل ما فيه من قوة وعنفوان .. بكل ما فيه من تحد للحياة وسخرية منها .. لن يستطيع الحركة بعد الآن .. لن يستطيع النطق .. كيف يتحمل هو نفسه .. رقدته العاجزة المشلولة .. كيف يستطيع ألا يندفع فى قوة .. ويغنى ويمزح ويقرأ ويكتب ؟

وقالت سيدة فى لهفة مترددة :

ــ ولكنه سيعيش .. سيكون موجودا بيننا .

— يعيش .. كيف ؟

وعاد يدفن رأسه بين كفيه .. وأحست سيدة بجسده يهتز ..

حمدى يبكى يا سيدة .. ماذا تملكين له سوى وقفتك العاجزة تمسكين بطبق الثلج بلا حول ولا قوة .

لو أنك تستطيعين ضمه إلى صدرك ..

لو أنك تستطيعين حتى أن تربتى ظهره بيدك .

وتقدمت سيدة من حمدى ومدت يدها تربت ظهره فى رفق وحنو قائلة :

— ما تزعلشى يا سى حمدى .. والنبى ما تزعل .. عشان خاطرى ..

واستمر جسد حمدى يهتز بالبكاء .. وأحست سيدة بالدمع ينساب من مقلتيها بغير وعى ولا إرادة .

وعادت تهتف به وهى تربت على ظهره فى رقة :

— وحياة النبى ما تزعل يا سى حمدى .. سيدى سيشفى ويقوم بالسلامة ..

ورفع إليها حمدى عينين محمرتين وأجاب فى صوت يائس :

— يشفى كيف .. لقد شل يا سيدة .. ولن يعود كما كان ..

وعاد يهز رأسه كأنما يود أن يقذف منها شيئا يخزه وقال كأنما يحدث نفسه :

— لن يعود قويا مرفوع الرأس .. وإذا لم يكن قويا .. وإذا لم يستطع أن ينفخ صدره ويرفع رأسه فلن يكون . إن حياته ضحكة وأغنية وانطلاقة .. فإذا لم يقدر عليها .. فكيف تكون حياته .. وكيف يعيش ؟.

وأطلقت سيدة زفرة حارة .

لقد كان الرجل كذلك يا سيدة .. كانت خطواته طرقات قوية على ظهر الأرض وكلامه ضحكات .. وصيحاته أغنيات ..

وهو لا يمكن أن يكون جسدا طريح الفراش .. تتعثر الكلمات على لسانه .. وتتحطم الضحكات على شفتيه .

وأمسكت سيدة بذراع حمدى تشده لكى ينهض من جلسته اليائسة وهى

تقول :

— ربنا كبير يا سى حمدى .. قادر على شفائه .. وعلى إعادته إلى صحته وقوته .. ادع الله يا سى حمدى .. قل يارب فهو يسمعنا ..

ونهض حمدى من حافة الفراش .. وهو يزفر فى يأس ويتمتم قائلا :

— وماذا نملك غير هذا يا سيدة ؟. من أمامنا سواه .

ومرت الأيام التالية بطيئة ثقيلة الهواء .. تتعالى فيها الدعوات وتتصاعد الزفرات .. والأب يرقد فى غيبوبته بطاقية الثلج فوق رأسه .. وإبرة الجلوكوز فى ذراعه . والأم تتحرك كالشبح . هامية المآقى شاردة النظرات والجد أغلق حانوته واستقر بجوار ابنه على مقعد خيزرانى يسند رأسه على عصاه التى استقرت بين ركبتيه وهو يكاد يحصى أنفاس المريض يرفع بصره بين آونة وأخرى فى جزع كأنما يخشى أن تتوقف الأنفاس فى غفلة منه . وبين آونة وأخرى يرفع رأسه إلى السماء هاتفا :

— يارب ..

ثم يخفض رأسه محدقا فى وجه المريض المغرق فى غيبوبته وقد بدا عليه الهزال وبهت لونه الوردى .. وعلته الصفرة .. ويتمتم مناديا فى صوت خفيض كأنما يخشى أن يسمعه أحد غير ابنه المريض :

— ليه يا بنى يا محمد .. ليه يا حبيبى ؟

وتدخل العمة فلا يلتفت إليها .. ويظل يحدث الابن المغفى قائلا :

— حاتقوم يا محمد ؟.. حاتقوم ياحبيبى .. وحياة النبى حتقوم ؟.. قول آه ريحنى ..

وتربت على ظهره فى رفق قائلة :

— قوم يابو محمد ..

— أقوم فين ؟

— قوم كل لك لقمة .

ـــ آكل لقمة ؟!!.. وهو اكده ؟؟

وتمد الابنة يدها محاولة أن تساعده على النهوض .

ـــ طب قم غير هدومك .

ـــ أغير ليه ؟

ويصمت برهة ثم يزفر قائلا :

ـــ حافضل قاعد قدامه .. لغاية ما يقوم .. لغاية ما يرد على ويكلمنى .

ثم يطلق آهة من أعماقه ويعاود رفع رأسه إلى السماء ويقول كأنه يعاتب من يحدثه :

ـــ يارب .. ليه كده ؟ تعمل فيه كده ليه ؟ دانا معملتش حاجة تستاهل .

وتصل الكلمات الخفيضة إلى مسامع حمدى وهو يجلس فى الصالة مطرقا .. ويحس بها كمطارق تهوى على رأسه وسكاكين تمزق أحشاءه ويحس بالدموع تتسابق إلى مقلتيه .. فينهض متجها إلى حجرته .. يلم فيها عبراته الملحة .

وسميحة تكفكف دمعها المنساب .. وهى تتحرك مع سيدة لتنظيف البيت وإعداد الطعام .. لتزدرده الأسرة كواجب بغيض لا بد من أدائه .

والزوار من أقارب وأصدقاء يروحون ويغدون .. يتمتمون بدعـواتهم الصالحة وأمانيهم الطيبة التى باتت من فرط ترديدها كلمات جوفاء لا تبعث على أمل ولا توحى بطمأنينة . وأصدقاء حمدى يحيطون به ويحاولون إخراجه من وجومه تارة .. ومشاركته الوجوم تارة أخرى ..

وصفاء .. تقضى معظم أوقات النهار تشارك سميحة عملها .. وتخفف من وجيعة حمدى ما استطاعت بالكلمات والنظرات .

وذات صباح .. والشمس توشك أن تشرق .. ونسمة ليل الصيـف الندية .. تسرى فى طمأنينة بين حنايا الشجر وفى مسالك الدروب .. وبصمات الفجر قطرات ندى على الأوراق .. ووشوشات بين الأغصان .. لم تفزعها بعد أشعة شمس النهار بسياطها الملهبة .. وشجرة التوت تظلل باب البيت كدثار

أخضر يغطى قدميه ليقيه برودة آخر الليل .. ووردة فى آخر الحديقة فى تفتحها بسمة طفل يتمطى .

وجنينة ناميش تتثاءب فى كسل .. أبواب الدكاكين تفتح فى استرخاء .. ومظهر الحياة الوحيد فى طرقاتها .. هو بائعة النابت تهتف بصوتها المتحشرج الذى لا تكاد تميز مخارج الحروف فيه ولا تفهم ما يقول إلا لأنه هو الصوت الوحيد الذى ينطلق فى هذه الساعة « النابت الأبيض .. أبيض يا نابت » .

وأهل جنينة ناميش .. يعبرون من حياتهم لحظة كبقية لحظات العمر .. ما بين مستغرق فى النوم أرخى جسده .. ومتثائب بشدة ليرخيه .. وواقف أمام الصنبور ليتطهر .. أو راكع يعطى ما لله لله ... أو منطلق إلى عمله بطعامه تحت إبطه ويداه خاليتان فى جيوبه ..

وكل شىء يبدو هادئا .. فى بيوت جنينة ناميش ودورها .. .

حتى هذا البيت الذى يرقد فيه الرجل المريض .. قد بدا هادئا .. يعبر فى صباحه لحظات تعود أن يعبرها كل يوم منذ أن بدأ الرجل رقدته .

المريض مسجى على فراشه .. وأهل البيت بعضهم مزقه النوم فأغفى فى مكانه بعد طول سهر .. والبعض يجلس محملقا فى المريض يرقب وجهه الشاحب .. ويحصى أنفاسه وآخر يدق الثلج ليكسره بيد الهون ..

وفجأة بدت حركة غير طبيعية فى حجرة المريض .

نهض الجد من مقعده فجأة واقترب من ابنه .. واندفعت الأم إلى الحجرة وهى تجد الجد يميل على الجسد المسجى وهى تصيح :

ـــ إيه .. فيه إيه ؟

واستيقظ النائمون على صيحتها واندفاعها .. أقبل حمدى يعدو من حجرته .. واندفعت سميحة من ورائه .. وتركت سيدة يد الهون التى تكسر بها الثلج وعدت إلى باب حجرة المريض لتجد الأسرة قد تزاحمت حوله .

وعادت الأم تصيح فى خوف :

— فيه إيه .. حصل حاجة ؟

وبدا الجد فاغرا فاه متلاحق الأنفاس .. وهو يمسك بيد الابن وأجاب وهو يكاد ينهار :

— محمد تعبان ..

وازداد الجميع اقترابا من الفراش وشقت العمة طريقها إليهم بعد أن أيقظتها الضجة متسائلة :

— ماله ؟..

وتوقفت برهة تنظر إلى وجهه وتنصت إلى تردد أنفاسه ثم قالت :

— بخير إن شاء الله ..

ثم التفتت إلى الجد قائلة :

— أنت تعبان يابا .. يجب أن تستريح .

ورد عليها الجد زاجرا ...

— أستريح ؟!!

ثم صاح بمن حوله :

— حد يشوف الدكتور .

وأجابت العمة :

— الآن .. والساعة لم تبلغ السادسة والنصف ؟

ورد الجد فى إصرار :

— أجل .

— الرجل لم يستيقظ بعد .

— أيقظوه .

وقالت الأم فى صوت مرتجف :

— عندنا تليفون بيته .

وقال حمدى وهو يحس أن الأرض تدور به :

— سأذهب لأطلبه .

وتساءلت سميحة :

— من أين ؟

وردت الأم :

— من بيت محمود بك المناواتى .

وقالت العمة وهى تهز رأسها فى دهشة :

— فى هذه الساعة توقظون الناس ؟

وردت الأم وهى تزدرد ريقها :

— الناس طيبون .. وهم يعرفون ما بنا .

وقال الجد فى صوته الجزع المليء باليأس ونفاد الصبر :

— اذهب يا حمدى .. اذهب يا بنى الله لا يسيئك .. قل له يلحقنا .

وانطلق حمدى يعدو من البيت ليطلب الدكتور رضا فى منزله .

ولم تعرف سيدة ماذا يحدث ..

كان الجد فزعا يمسك بيد ابنه ويحدق فى وجهه يهتف بصوت متهالك :

— يارب .. مش كده يارب .

ويصمت برهة ثم يهتف كأنه يستنجد فى عتاب :

— دانت كريم ..

والأم تبدو كأنها حطام إنسان .. تحدق بعينيها ولا ترى .. تفتح شفتيها ولا تنطق .

والعمة تضرب كفا بكف .. وتنظر إلى أبيها فى دهشة وتقول لمن حولها وهى تحاول طمأنينتهم .

— هو دائما يهول .. إن شاء الله سليمة .

وسميحة تروح وتغدو .. لتحضر شيئا أو تنقل شيئا .. وهى فى شبه ذهول ..

وسيدة تقف من ورائهم جميعا .. تحدق فى وجه الرجل الراقد .. بالطاقية

فوق رأسه وعيناه مغمضتان وخليط من الشعر الأبيض والأسود قد تناثر حول ذقنه . وأنفاس تتردد فى انتظام ينم عنها صدره الذى يعلو ويهبط .. وملامح وجهه بكل ما يكسوها من شحوب وهزال .. تنم عن السكينة والاسترخاء ..

ماذا يزعج الرجل الكريم .. ولماذا كل هذا الهلع الذى يبديه ؟.

إنه لا شك يهول .. كما قالت ابنته ..

والمشوّار الذى انطلق فيه حمدى ليقلق الناس فى مضاجعهم لم يكن له لزوم .

ومضت برهة .. لا يسهل حسابها بالزمن .. ولكنها بكل ما شحنت بها من انفعال قد تكون دهرا ..

الجميع يرقبون فى توتر والجد يهز رأسه كالطائر الحبيس ويردد فى عصبية :

— لماذا تأخر حمدى ؟..

وتجيب العمة :

— هوا الحق ؟.

ويسود الصمت ثانية .. حتى يكاد يسمع تردد الأنفاس .

وتعود سيدة تحدق فى وجه السيد المريض .. بكل ما تحمل معالمه من سكينة .. وصدره يعلو ثم يهبط .. ويعلو ثم يهبط .

وفجأة أخذ المريض شهيقا طويلا .. ثم أطلقه فى زفرة طويلة .. أرخت جسده .. وشهيقا ثانيا .. ثم زفرة ..

وشهيقا ثالثا ..

وتطلعت الأعين إلى الوجه الساكن .. معلقة بشفتيه وصدره .. ومرت الثانية وراء الثانية ..

والزفير حبيس الصدر .. والشفتان مطبقتان .. لا تطلقانه .. ولم تفهم سيدة ماذا يحدث .. حتى انطلقت صرخة متحشرجة من الجد وهو يهتف كالذبيح :

— خلاص محمد راح ..

وانهار على مقعده خائرا بلا صوت يصدر منه سوى « آه » تخرج منه كأنه

سكين بمزقه ..

واندفعت الأم فى جنون تضم الجسد الراقد ..

وانهارت سميحة تئن وتمزق بأسنانها بياضة الأريكة .

مات الرجل يا سيدة .

مات كما مات أبوك ..

ولكنك فى هذه المرة .. رأيت الميت بعينيك ..

أبصرت كيف يموت الناس .

ليس الموت فظيعا كاسمه يا سيدة .

على الأقل بالنسبة لمن يلاقيه فعلا .. بقسماته الهادئة .. ووجهه الشاحب الساكن .. أخذ شهقتين .. وأطلقهما زفرتين .. تماما كما نفعل فى كل وقت ..

وفى الثالثة أخذ الشهيق كما نأخذه .. ولكنه لم يطلقه ..

الفارق الوحيد بين ما نفعله .. وما فعله الميت .. هو أنه لم يطلق الزفرة .. بعد أن عبها فى صدره شهيقا .

بينك وبين الموت يا سيدة .. زفرة .. واحدة ..

إن أطلقتها حييت .. وإن حبستها فى صدرك صرت فى عداد الموتى ..

عجبا يا سيدة .. ما خطر ببالك من قبل أن حياتك مجرد زفرة ..

ولكن أذاك هو الوجه الأوحد للموت ..؟

زفرة محتبسة .. لمخلوق استرخى واستكان وأغمض عينيه .. ونفض يديه من كل ما حوله .

أبدا يا سيدة ..

إن هذا هو الوجه المشرق للموت ..

الوجه المريح .. المنقذ .. المخلص .. لصاحبه .

أما الوجه الآخر .. فوجه أغبر قاتم .. تعبر عنه هذه العاصفة من الصرخات التى تصم الآذان .. تعبر عنه الخدود الملطومة .. والثياب المشقوقة .. والآهات

المكتومة ..

لشد ما يتناقض وجها الموت يا سيدة .

وجه يظل صاحبه بنعمة الراحة والخلاص .. وآخر يلسع ذويه بنقمة الضياع والحرمان .

ابتلع الميت زفرته واستراح ..

وأغمض عينيه وأصم أذنيه عن كل شيء .. حتى عن عذاب الذين يبكون رحيله ويتوجعون لفرقته .

عجيب هذا الموت يا سيدة ..

لا تستطيعين أن تسميه حتى فراقا ..

فالفرقة يستوى فى آلامها طرفا الوداع .. من الأحياء ..

أما الموت ففراق .. يمضى أحد أطرافه فى سكون وارتياح ..

ويتمزق قلب الآخرين من لوعة الفراق ووجيعته ..

طرف يمضى .. دون أن يشعر أن هناك من يودعه .. وآخر يتمنى لو فقد الحياة قبل أن يودعه .

وجيعة الموت يا سيدة .. ليست لصاحبه .

ولكن الوجيعة لمن يحبونه ..

ولم تذكر سيدة تفاصيل ما حدث بعد أن أطلق الأب آخر أنفاسه .. ولكنها تعرف أن دوى الصوات لم ينقطع عن أذنيها حتى آخر الليل .. وقد أوى الجميع إلى مضاجعهم .. وساد السكون الدار ..

ولا تذكر سيدة إلا أن الباب أغلق على حجرة سيدها ..

وأن العمة .. وكانت أشدهم تماسكا قد صاحت بها :

— اذهبى ونادى حمدى .. قولى له لا داعى للطبيب .

وانطلقت سيدة يطاردها الصراخ إلى سيدى الأربعين حيث بيت محمود بك المناواتى فوق حانوت محمد البقال ..

ووجدت حمدى يغادر البيت شارد البصر .. ووقفت أمامه لاهثة الأنفاس ونظر إليها متسائلا :

— إيه يا سيدة .. ماذا أتى بك ؟

ولم تعرف سيدة كيف تلقى إليه النبأ ..

لم تستطع أن تقول له .. إن أباه مات .. الرجل القوى .. الضاحك .. الصداح بالغناء .. مات ..

لقد كان لا يطيق .. أن يفكر فى رقدته المشلولة العاجزة .. لقد رفض ذهنه قبول صورة أبيه مشلولا .. فكيف يقبله ميتا ..

لا تستطيعين يا سيدة أن تقولى له .. إن أباه مات ..

.. لا تجسرى أن تحزى نياط قلبه بهذا السكين ..

لماذا أرسلوك وراءه يا سيدة

ولماذا اندفعت أنت بغباء لتناديه ..

وعاد حمدى يسألها فى صبر نافد .

— إيه يا سيدة .. انطقى ..

أجل .. انطقى يا سيدة .. ليس معقولا أن تقفى أمامه هكذا لتحدق فيه .. قولى يا سيدة ..

مزقيه .. بالجملة البسيطة .. « أبوك مات » ..

... كلمات سهلة .. يمكن أن يطلقها .. أى إنسان .. فى أية لحظة .. لتضيع فى الهواء كالطلقة الطائشة .

لكنها الآن .. تنطلق لتستقر فى القلب ..

وبدا لها الوجه البشع للموت .. ذى المخالب تنزع القلوب من الصدور ..

وكرهت أن يواجهه حمدى .. بكل ما فيه من بشاعة .. ومرارة .. وألم ..

.. وأحست أن صوتها يحتبس فى صدرها .. وأن وجهها يتشنج .. والدموع تندفع إلى عينيها ..

ووجدت نفسها وهى لا تقوى على أن تنطق باللفظ الكريه .

لا تملك أن تردد ما قاله الجد حين احتبست الزفرة فى صدر ابنه الحبيب :

— خلاص .

وأمسك حمدى ذراعها يهزها فى عنف :

— خلاص إيه .

— سيدى خلاص . .

واندفعت دموعها تنهمر وجسدها يهتز بالبكاء ..

ولم يجبها حمدى بل صرخ بغير وعى :

— بابا ..

وانطلق يعدو تجاه البيت وهى فى أعقابه .

وكان صوت الصراخ يسمع من بعيد .. وعندما اجتازا المدخل .. كانت بضعة مقاعد قد رصت فى الفناء .. وأناس يروحون ويجيئون .. ويصعدون الدرج ويهبطون ..

واندفع حمدى يصرخ صرخات موجعة :

— بابا ..

واندفع من باب الحجرة يرتمى على الملاءة البيضاء التى غطى بها الجسد ..

وسرعان ما جذبوه من الحجرة وصيحات تلاحقه مهدئة تارة .. زاجرة أخرى ..

— وبعدين يا حمدى .. انت راجل .

وصوت آخر :

— عيب يا حمدى .. بلاش كده .

وصوت آخر :

— سيبوه .. هو حا يلاقى مين بعده ..

والأم تئن أنينا موجعا .. كحيوان جريح .. وتهتف فى وجهه :

— أبوك يا حمدى .. سابنا ..

ثم تقول فى عتاب أليم :

— ليه يا سى محمد .. ليه يا حبيبى .. ليه يا أمير .. يا اللى عمرك ما عبت فى حد .. ولا زعلت حد ..

والجد يرفع بصره إلى السماء وقد تحجرت الدموع فى عينيه ويقول كأنه يتحدث إلى من يخاصمه :

— أنا ما عملتش فيك حاجة .. ليه تعمل فى كده .. ما تاخدنيش أنا ليه .. ليه سايبنى ؟

ويقترب منه عبد الرازق افندى يربت على كتفه فى رفق :

— يا حاج .. قل إنا لله وإنا إليه راجعون ..

وسميحة تجلس منكمشة وجسدها يهتز كطير جريح فى عاصفة . وصفاء تحيطها بذراعها بحنو وهى تذرف الدمع بجوارها .

أصوات تتوجع .. وآهات تئن ..

هذا هو الوجه الكريه البشع .. للموت يا سيدة .

لم تريه فى رحيل أبيك بمثل هذه البشاعة يا سيدة .. لأنه لم يكن هناك الكثير ممن ينعكس عليهم هذا الوجه البشع .. دلال أطلقت صرخات جوفاء .. والأقارب جاوبوها .. كأنها هتافات فى مظاهرات .. والباقون .. أطلقوا نداءات ترحم واستغفار .. وأدوا عملهم كأنهم فى مهمة يجب أن يؤدوها باتقان ..

وهى .. وقفت ترقب رحيل أبيها مشدوهة .. جامدة النظرات .. كأنها ترقب مشهدا مثيرا ..

ذهب أبوها .. مستلقيا فى صندوقه على أكتاف الناس بوجه الموت المريح ..

ولم يجد الوجه البشع .. ما ينعكس عليه .

وتمت عملية رحيل أبيها .. كأنها .. أثاث ينقل .. أو مولد يعد .. أما رحيل

هذا الميت .. فوجهه البشع أليم .. أليم .

وأحست سيدة بقلبها تملؤه الوجيعة كل كلمة من الجد .. يعاتب بها الله ..
كل صيحة ألم من العمة تنادى بها أخاها ..

كل آهة جزع من الأم .. تستدعى بها الراحل أن يتمهل .

كل دمعة من سميحة تهمى فى صمت على أبيها الحبيب الرفيق .

كل أنة من حمدى يكبتها فى صدره .. وكل صيحة مكتومة ينادى أباه .. وكأنه يستجديه البقاء .

كانت سيدة تحس بها طعنات تمزق أحشاءها ..

وكانت تود لو دخلت إلى حجرة المسجى تحت الملاءة .. لتبعث فى صدره الزفرة المحتجزة .. وتسأل الله أن يبقيه .. من أجل أولئك الطيبين الذين يحتاجونه ويحبونه .

وكانت تود لو استطاعت أن تضمهم جميعا إلى صدرها ..

ولكنها لم تكن تملك من أمرها شيئا ..

لم تكن تملك سوى الدمع .. تذرفه وهى تتحرك لتؤدى ما يطلب منها ..
ووسط الصرخات والآهات والأنات ..

كان أناس يتحركون ليفعلوا ما لا بد من فعله ..

نفس الأشياء التى أعدت لرحيل أبيها .. المنضدة ذات الأرجل المطوية ..
واللوف .. والقماش .. والصندوق ..

وضجيج وأصوات تعلو .. وقرآن يتلى ..

وخروف يجر ليذبح أمام الباب فوق الدرج .

والصندوق يهبط فوق الأكتاف ..

والأم ترتمى فى جزع جنونى عليه .. كأنها تود أن تحتضنه قبل الرحيل ..

وصراخ يعلو بفظاعة ..

وضجيج ما له من آخر ..

وأناس يتزاحمون فى الفناء وفى الطريق .

ويسيرون وراء الصندوق المحمول على الأكتاف ورجال يحملون المجامر ويرتدون الفوط الحمراء .

وحمدى يندفع كالصاروخ ليعدو وراء النعش دون أن تفلح الأيدى فى الإمساك به .. وقد ارتدى على رأسه طربوش أبيه .. والطربوش الآخر فوق الخشبة ..

وصوات .. وصوات .. وصوات ..

وفى المساء صوت الفقيه يعلو فى السرادق الذى نصب أمام البيت ..

والناس ينفضون ..

والصمت يسود فى آخر الليل ..

إلا من أنات موجعة تصدر من البيت الساكن .. وصدى الصراخ .. يطن فى الآذان .

وفى الصباح .. سيدات يتشحن بالسواد يقبلن للعزاء .. ومزيد من الصرخات تنطلق ..

والسواد يكسو بياضات الدار ..

ويوما .. بعد يوم .. تنقطع الأقدام الزائرة .. والوجوه المعزية ..

ولا يبقى غير الصمت والسواد .. والدمع المنساب .

والغائب .. موجود فى كل مكان .

يحس به فى كل ركن من البيت .. فى الجرامفون .. والحديد .. والثياب ..

ومع أحزان الفرقة .. أقبلت مشاكل العيش ..

اليوم الأسود قد أقبل ..

والقرش الأبيض .. قد راح مع العزيز الراحل .

كانت الأم تلح على المعاش ..

وكان الرجل يؤجله ..

وأضحى على الأسرة أن تدبر أمرها ..

مصاريف العيش والسكن .. ومصاريف الدراسة لحمدى ..

وكان على الأسرة أن تترك البيت لتعيش بجوار الجد حتى يكون أقدر على رعايتها .

وبدأ الإعداد للرحيل من البيت . بعد أن رحل عنه أعز من به .

(١٨)

كلمات طائشة

على ظهر إحدى عربات الكارو استقرت سيدة فوق الأثاث تشق طريقها من جنينة ناميش إلى روض الفرج .

وكانت حوارى جنينة ناميش وجنينة لاظ وشارع الخليج وجنينة رشيد وبقية المعالم المحيطة من حى السيدة زينب هى أقصى ما تعرفه سيدة من معالم هذه الأرض . وعندما تجاوزتها وهى تطل عليها من فوق العربة الكارو .. وبعد أن ألقت عليها نظرة وداع حزينة .. أحست بأنها تخوض مجاهل متشابهة القسمات لا تميزها علامة ولا يهدى المرء فى طرقاتها دليل .

أخيرا .. خرجت يا سيدة من محيطك المألوف .. ذى الحوارى الضيقة تدفئها أنفاس الناس ويؤنس وحشتها ضجيجهم.. الحوارى التى رتعت بها منذ أن وعيت على هذه الحياة .. حوارى الماوردى والمدبح وشارع السد والخليج وحارة السيدة .. حتى الميدان الكبير الذى يستقر فيه الجامع وبائع الكشرى أبو جبة الذى كنت تعتبرينه أقصى الأرض .. والذى يبدو ما وراءه كأنه قارات مجهولة لم تستكشف بعد .

خرجت من نطاقك يا سيدة إلى عالم جديد تخوضينه على ظهر العربة المكدسة بالمراتب والدواليب والكراسى .. تعتلين صهوتها وتنظرين إلى الخلق من عل .. وكأنهم حراس يحفون بموكبك .

دكاكين على الأجناب وأناس يبيعون وأناس يشترون وباعة متجولون ينادون فى حماسة وعجلة وكأنهم يريدون أن يقذفوا ما بيدهم للناس . ودراجات وسيارات وعربات ترام وزمامير كمسارية وباعة يقفزون من سلم الترام ليهبطوا

على الأرض فى تؤدة وكأن حرفتهم هى الهبوط من سلم الترام ..

(إبر وابور جاز) (مشابك غسيل) (سياسة وأهرام سياسة) (جبنة وطازه الصميت) (يا عنب وقد بيض اليمام يا عنب) (ظلعت أجيبه ترمس لقيته لوز) .

صيحات تختلط كلماتها ونغماتها فى أذن سيدة .. مع نهرة بين آونة وأخرى من العربجى لحماره (شى يا بتاع الكلب .. قلنالك حا) .

وسيدة تنظر فى كل ما حولها مذهولة ..

دنيا واسعة يا سيدة .. هذه المجاهل التى تقع وراء الميدان الكبير .. ما ظننتها بهذا الشكل الصاخب المزدحم .

ولو أنزلك هذا الرجل الذى يسير فى ثقة كأنه يتنزه فى شارع أبيه .. والذى يمارس السيادة على حماره بمبرر وبغير مبرر .. كما كانت تعمل معك أم عباس لا أرجعها الله ..

لو أنزلك الرجل يا سيدة لما استطعت أن تعرفى أين أنت ولا أين تذهبين .. وكل ما عليك هو أن تستقرى على ظهر الأثاث لتخوضى معه هذه المجاهل حتى يوصلك إلى البيت الجديد فى روض الفرج .

والرجل لا يأبه لك كثيرا .. فهو قد قبل وجودك على ظهر الأثاث كقطعة منه .. وهو يكاد ينسى وجودك .. فى انهماكه مع حماره ومع من حوله من المارة .. والباعة .. وفى أحاديثه معهم شاتما أو مشتوما .

وأخيرا وقفت العربة أمام سور لمزلقان سكة حديد .. عرفت من حديث العربجى مع زميل له أنه مزلقان السبتية . مد الرجل يده وأخرج من خرج أسفل العربة حزمة برسيم . ناولها للحمار قائلا كأنه يمن عليه :

— خذ .. خسارة فى جتتك .

والتفت إلى رجل يجلس على مقدمة عربة جاز قائلا وهو يخرج علبة دخان ليلف سيجارة :

— قدامنا ولا نصف ساعة .. مزلقان نحس . نفسى افوت عليه مرة .. والاقيه مفتوح .

ونظر إليه صاحب عربة الجاز قائلا فى سخرية :

— ومستعجل ليه .. وراك إيه ؟.

— ورانا رزق العيال .. لما نتلطع هنا نص ساعة وهناك نص ساعة .. ضاع اليوم .

— بكره يعملوا النفق ويريحوك .

— موت يا حمار لغاية ما يجيلك العليق . بقالهم سنين وهمه بيقولوا حا يعملوا النفق .. وآدى احنا رايحين جايين على المزلقان .

— واشمعنى ده اللى حا يعملوه .. ما هم بيقولوا حا يعملوا ميت ألف حاجة .. ولا يعملوش حاجة أبدا .

ومر بائع عرقسوس يضرب الصاجات النحاس بيديه . ويصيح بصوت منغم (خمير .. شفا) وتمنت سيدة والشمس تضرب فى رأسها وقد أخذ العرق يتصبب منها لو أنها استطاعت أن تتناول كوبا من القدر التى وضعت فى فوهتها قطعة الثلج تبرق فى أشعة الشمس .

ولكنها كانت تعرف أن الرجل لا يشجع على أن تطلب منه شيئا أو تشغله بشىء ..

وأتى القطار وفتح المزلقان . وعادت سيدة تتم رحلتها فى المجاهل المصطخبة . بصرخات الباعة وزحام العربات .

وطال بها السير . ونادت الرجل تصيح به متسائلة وقد أنهكها الحر والاهتزاز .. فوق العربة :

— فاضل كتير ياعم ؟

— خلاص .. احنا وصلنا طوسون . حانحود على روض الفرج .. ونسأل على شارع الكركى .

وبدأ الزحام يخف وخلت الطرقات .. من الباعة والعربات . وأخذت العربة تخوض فى شوارع تناثرت بها البيوت .. وسط أرض خلاء تتكاثر فيها الحلفا .. وبدت فى ناحية منها حقول تترامى على مدى البصر ..

وتوقف العربجى قليلا وهو يهتف بصاحب بقالة قد وقف داخل حانوته :

— وحياة والدك .. أين شارع الكركى ؟

— قدامك .

ودخلت العربة فى الشارع .. وبدت وسط البيوت التى رصت على جانبيه ساقية قديمة عاطلة .. وأخذ الرجل يفحص أرقام البيوت حتى استقر أمام بيت فى نهاية الطريق قائلا :

— هذا هو ..

وهتفت سيدة وهى تجد سميحة تقف فى شرفة واطئة بدا بعدها سور عال تتكاثف عليه أوراق اللوف الخضراء الداكنه بأزهارها الصفر :

— ستى سميحة .

وأجابتها سميحة متسائلة فى لهفة :

— لماذا تأخرتم هكذا ؟

ورد الرجل نيابة عنها :

— المزلقان مقفول . ولطعنا أمامه ساعة .. والطريق مزدحم .

ودخلت سميحة من باب الشرفة وهى تقول :

— سأطمئن نينة لأنها شغلت عليكم .

وكانت الأم قد أتمت تنظيف الشقة مع سميحة والعمة وابنتها الكبرى خديجة وخادمهم جاب الله . ورتبت ما وصل من أثاث وجلست تنتظر آخر نقلة للأثاث تحمل سيدة بعد أن أوصدوا باب البيت القديم وسلموا مفتاحه للبواب .

كان البيت صغيرا منخفضا ملاصقا لسور حديقة طوسون وكان الحى كله يقع على حافة المزارع المحيطة بقصر طوسون الذى تحول إلى مدرسة شبرا

الثانوية . وكانت الحلفا بأوراقها الجافة الحادة تنتشر فى الأرض الخلاء المتناثرة بين الدور تتوسطها الآبار المردومة بقايا السواقى تقوم فوقها .

ويخترق الحى شارع روض الفرج الرئيسى يتوسطه الترام المتفرع من دوران شبرا يشق طريقه إلى ساحل روض الفرج .

ويبدو الحى كله خليطا بين المزارع والبيوت . يحس المرء فيه برائحة الأرض والزرع وسط الدور وعربات الترام وحوانيت البقالة ودكاكين المزينين والخضرية والجزارين .

وكان البيت الصغير رخيص الأجر قريبا من المدرسة التى سيلحق بها حمدى قريبا من بيت الجد الذى يأوى فيه العمة وأولادها .

واستقرت الأسرة الصغيرة فى البيت الصغير الحزين .. حزينا بالأغطية السود التى كست أثاثه .. حتى دولاب الكتب التى انتقل بما حواه قد أسدلت عليه ستارة سوداء تحجب عن الناظر إليه ألوان أغلفة الكتب المرصوصة على رفوفه .

حزينا بالدموع تهمى فى صمت من مآقى الأم .. وكأن عينيها صنبوران تالفان .. حزينا باستكانة الذل التى تبدو على ملامح سميحة وهى تتحرك كالشبح لتؤدى ما عليها من واجبات .. حزينا بوجه حمدى المقطب الحزين يخرج به من البيت ويعود به إلى البيت .. ويسير به وحيدا تحت أشجار المانجو المحيطة بمدرسة شبرا . حتى سماه الطلبة (الحزين) بعد أن تجمد التجهم والحزن فى ملامحه بحيث استقرت قسماته فى وضعها الحزين بطريقة طبيعية لا جهد فيها ولا تكلف .

حزينا بالجد القادم إليه يدق الأرض بعصاه وهو لا يكاد ينقلها من مكانها إلا بمشقة تحت ثقل جسده المحمل عليها فى كل خطوة . وقد بدا أن أثقال سنوات عمره الطويل قد حطها المصاب مرة واحدة على كتفيه .. فناء بها .. وباتت حركته الوئيدة توحى كأنه إنسان يجر فى أذياله مصائب الزمن .

حزينا بالإحساس الخفى بالحاجة .. وبأنه لم يعد من حق أحد من هذه الأسرة الصغيرة أن يشعر أنه يريد شيئا .. أو أنه يحس أن شيئا ينقصه .. لأن الإحساس

الأصيل الذى تولد فى نفوسهم . هو أن استمرار وجودهم أحياء مستورين .. منة تستحق الحمد .. وأن مجرد تحقيق الضرورات .. هو فضل من الله .. كان من الممكن ألا يكون .

ومع كل هذا .. سارت الأيام .. بالأسرة الصغيرة الحزينة .. لم يتوقف بها الدهر .. بل استمرت الشمس تشرق عليهم .. وتغرب بهم .. ويوم يفوت بعد يوم .. وحمدى يعود من المدرسة ليأكل .. ثم يقف فى الشرفة .. يرقب الطريق شارد النظرات .. تصل إلى آذانه نغمات .. بدأت تلتصق بكل ما حوله وكأنها تشارك فى رسم ظلاله وتحديد معالمه .

بائع حمص الشام ينادى بطريقة منغمة :

(كبشة بمليم يا حمص الشام) .

وصوت آخر يليه بنغمة أخرى :

(لذيذة يا عال الجوزية .. يا عال الملبن) .

ويصعد إلى السطح ليقف مستندا على حافة السور مطلقا بصره فى مزارع القصب تتمايل أطرافه فى مهب النسيم فيبدو كموج البحر حركة بلا مسيرة وإلى غير هدف ونبت الجبيزة يكسو الأرض . منبسطا فى خضرة نظيفة صافية .

ووراء مزارع القصب يبدو سور قصر طوسون الذى يضم المدرسة وقد تكدست داخله أشجار المانجو المتكاثفة يتوسطها مبنى القصر الذى بدت أطرافه من بعيد .

وتنحدر الشمس ببطء فى مسيرتها الهادئة نحو الأفق الغربى . وأشعتها الحمراء تبدو وهى تتكسر على أطراف القصر وقمم الأشجار كأن رحلة النهار قد أرهقتها .. فهى تجر ذيولها على الأرض فى استرخاء المجهد يأوى إلى مضجعه .

وحمدى يرقبها شاردا .. ونافذة البيت المهجور تحوم فى ذهنه علها تجد مكانها فى مغرب الشمس . والذهن يتصيد بها شبح الغائب يفلت منه تارة ويطل عليه أخرى .

وإحساس بالحزن يرسب فى باطنه .. كجزء من كيانه .. يسرى مع كل فكرة تدور فى ذهنه .. أو رغبة تنبض بها مشاعره .. أو أمل يراود نفسه .

بات الحزن .. إحساسا طبيعيا له .. هو الأصل فى قلبه وكل إحساس سواه طارىء غريب .

كان فقد أبيه صدمة مروعة له .. تركت آثارها عميقة فى باطنه .. وفى كل ما حوله .. وعلى كل من حوله .

انتهاء الرجل نفسه .. كان مفاجأة .. عسيرة القبول .. صعبة التصور .. بكل ما يمثله من عناصر الحياة والقوة والبقاء ..

أن يكون ما يمثله من حقيقة الوجود .. شيئا ثابتا حيا .. مرتبطا بهذا الكون بأوثق أواصر الحياة .. بالحركة والحب والرغبة والأمل .. ثم ينتزع فجأة بهذا العنف والقسوة .. وبغير مبرر ولا منطق .. ويلقى فى غياهب الضياع .. أمرا كان فى حد ذاته .. يملأ نفسه بالمرارة والضيق والسخط على منطق الحياة .

ثم .. أن يحرم فجأة .. من أقرب الناس إليه وأوثقهم صلة به .. ليجده فى لحظة ملء حياته .. وفى اللحظة التالية شيئا لا وجود له .. كان أمرا .. ممزقا .. موجعا .. دفع فى نفس حمدى نوعا من اليأس يصعب اجتثاثه والخلاص منه .. اليأس من كل شىء .. ومن كل رغبة .. ومن كل أمل .

فعندما نجد أنفسنا فجأة عاجزين عن أن نرى .. أوثق الناس صلة بنا .. وأقربهم إلى قلوبنا .. عاجزين أن نراهم الآن .. وغدا .. وبعد غد .. وفى الشهر القادم .. والعام القادم ..

عاجزين عن أن نراهم .. أبدا ..

شىء مرير .. يصعب قبوله ..

ثم .. أن نجد فقد هذا العزيز بعد هذا كله قد أحاطنا .. بالخراب .. والسواد .. والدموع .. والوجوم .. والخوف القاتم من الغد .. والشك الدائم فى أيامنا القادمة .. وما يمكن أن تطل علينا به .. نجد عملية الفقد قد خلطت

اليأس فى نفوسنا بالتمرد .. وبرفض كل ما يمكن أن تحنو علينا به الحياة .. فى خضم أحزاننا وأوجاعنا .

ويمثل هذا الشعور باليأس .. والتمرد .. ومخاصمة الحياة .. كان حمدى يقف ليرقب مغرب الشمس .. بكل ما يدفعه فى نفسه من الذكريات .. تتسلل من النافذة .. بشبح الغائب .. يطل ويختفى .. ويحوم فى الذهن .. حوم الهائم لا يستقر له قرار .

لم ير حمدى صفاء منذ أن رحل عنها إلا مرة واحدة فى الأربعين عندما حضرت وأمها وسط حشد النساء المتشحات بالسواد اللواتى قدمن للعزاء وأقبل عليها وحياها كما يحيى الغرباء .. ولم يعرف كيف يمكن أن يراها بعد ذلك بل لم يحس فى قرارة نفسه أن له الحق فى أن يمنح نفسه أى نوع من العزاء والمتعة والأمل فى أى شىء .. وهو يشعر بالفراغ المظلم الذى يعيش فيه .. ويتقدم إليه .. بلا بارقة ضوء تلوح فى آخره ..

كان يحس أن مجرد مواصلة الحياة .. قد بات فى حد ذاته أملا ليس من السهل بلوغه ..

لقد باتت ضرورات العيش التى كانت تمارس بغير عناء .. وتتحقق .. كشىء مسلم بوجوده .. باتت هذه الضرورات .. أملا عسيرا .. يحتاج إلى تفكير دائم وجهد مستمر .. وتوارت إلى جواره بقية الرغبات والآمال .. وأضحى الاستسلام إلى التفكير فيها والانشغال بها .. نوعا من الترف .. ومعصية يستحق مع امتلاء نفسه باليأس .. وتمرد روحه على الحياة — أن ينهى عن ارتكابها ويزجر عن إتيانها .

كانت مواصلة الحياة .. قد باتت أهم كثيرا من الاستمتاع بها ..

مواصلة الحياة ببضعة جنيهات معاش استثنائى .. وببضعة أخرى معاونة من الجد الذى يكاد دخله من حانوت المانيفاتورة يكفى ابنته وأولادها .

جنيهات تحتاج إلى ساحر كى يدبر بها الحياة .. بطريقة تحفظ للأسرة ماء

وجهها .. ببيت نظيف .. ولقمة نظيفة وهدمة . لا تخجل أصحابها ..

وكان على حمدى .. أن يستذكر لكى ينجح ..

وفيما مضى كان يستذكر لكى ينجح .. حتى يحقق أملا .. يملؤه بالفرحة ويضىء طريق المستقبل أمامه ..

ولكنه الآن أحس بأن عليه أن يستذكر لكى ينجح ..خوفا من أن تضيع عليه المجانية التى سعى أصدقاء أبيه لكى تمنح له .. خوفا من طريق مظلم يمكن أن تزداد ظلمته .. كان الدافع له فى حياته .. هو الخوف .. بعد أن كان الأمل .

ومن أجل هذا كله .. كان عليه أن يطوى صفاء بكل ما تمثله من مشاعر .. وأمانى .. وآمال .. فى باطنه .. وأن يستسلم للحرمان منها .. كما استسلم للحرمان من بقية متعات العيش ومباهج الحياة .

لقد طواها فى باطنه .. ولكنها مع ذلك استمرت موجودة .. يستمد من وجودها — عن غير وعى — إحساسا بشىء من العزاء .. وبصيص من الأمل .

قد يجلس على مكتبه ويمسك القلم .. فيخطط ببساطة .. ملامح وجهها .. أنفها الدقيق وعينيها الواسعتين .

أو يمسك بالقاموس .. ليفر أوراقه حتى يصل إلى وردة جافة تقبع بين طياته .

وقد يقف على سور السطح الذى زحفت عليه أوراق اللوف الخضراء الداكنة وأزهاره الصفر وكيزانه المستطيلة ليداعب فى مغرب الشمس طيفا يسرى مع الشعاع والنسيم .

ظلت صفاء .. أملا يطوى .. ولكنه موجود .

جمرة كساها الرماد .. ولكن ما زال الدفء فى قلبها .

حتى ضاع الأمل .. وضاع الدفء فى جوف الرماد .

فى عصر يوم فى أواخر الخريف ..

والسحب نتف بيضاء تعدو فى صفحة السماء .. والنسمة نجرية رطبة تمس برودتها الجلد ولا تنفذ إلى العظم كريح الشتاء اللاسعة ..

وحمدى قد عاد من المدرسة مجتازا دهليز طوسون الذى تقوم على جانبه أشجار الفتنة الشائكة لتفصل أشجار الحديقة المحيطة بالمدرسة عن المزارع .. يسير بجوار ابن عمته عماد وصاحبه صلاح أقرب أصدقائه فى دراسته الجديدة وودعهما عند نهاية الدهليز وسار كل فى طريقه واتجه حمدى إلى البيت .. وعند وصوله إلى الباب رأى سيدة تندفع مسرعة إلى الطريق ..

وسألها مستفسرا :

— إلى أين ؟..

— سأشترى كازوزة من عند علام .

— لمن ؟

— لست صفاء وأمها .

وانتفض حمدى .. وذهبت عنه قلة اكتراثه .. وهمت سيدة بأن تعدو ولكن حمدى جذبها من كمها قائلا :

— متى حضرتا ؟

— الآن .

— هل معهما أحد ؟

— كلا .

وازدرد حمدى ريقه .. ثم عاد يسائلها :

— معك نقود للكازوزة ؟

— سأحضرها شكك .. قالت لى سيدتى .. أحضرى زجاجة وسنفرغها فى كبايتين .

وفكر حمدى برهة ثم قال فى حزم :

— أحضرى زجاجتين ..

— ولكن سيدتى .. .

— قلت لك أحضرى اثنتين .. سأدبر أنا ثمن الثانية ..

وكانت الأم تقوم بعمل الساحر الذى يدبر من الجنيهات القليلة .. حياة الأسرة ومطالبها .

وكانت تدبرها بهذه الطريقة ..

زجاجة كازوزة واحدة تملأ كبايتين ..

والفطار .. بقرش تعريفة .. أو أقل .. فول مدمس .. وتملأ السلطانية فول .. ومية فول .. ويوضع عليه الزيت أو السمن ..

أما بقية الأصناف التى تصاحب الفول .. فحواشى ممنوعة .. وترف لا لزوم له ..

ممنوع البيض .. ممنوع الجبنة .. ممنوع الزيتون ..

وبائع الفول .. عم ملك .. بعربة اليد التى تتوسطها القدرة .. يقف على الناصية .. متكئا على يد العربة .. هو المصدر الوحيد لفطار الأسرة .. وهو بقامته الطويلة المهيبة ومغرفته فى يده يدفعها فى جوف القدرة فيتصاعد منها الدخان .. يملأ السلطانية فى كرم .. ولا يحتم الدفع فورا .. بل يقيد فى ذهنه حساب بيوت الحتة كلها .. معتمدا فى ذلك على ذمتهم وذاكرته ..

وعطا الله .. يطوف بعربة الجاز .. صوته منكر ونداؤه غير مفهوم .. ولكنه رقيق طيب يملأ فنطاس الجاز ويحوله إلى الصفيحة .. ويجيء ويخرج .. والثمن يدفع له عندما تكون النقود جاهزة .

الناس طيبون .. والباعة طيبون .. والحياة يدبرها الساحر ببضعة الجنيهات .. وبفضل ما يملأ نفوس الناس من طيبة وإحساس بالثقة والمودة ..

وانطلقت سيدة إلى علام بائع الكازوزة .. وعبر حمدى الباب . وهو يتحسس ثيابه ويخلع طربوشه .. ويساوى بكفه شعره .

ولم يحس بطمأنينة إلى شكله ومظهره ..

البدلة تبدو رثة .. إحدى بدل أبيه التى أصلحت لكى ينتفع بها .. وتوفر نقود تفصيل بدلة جديدة ..

وشعره منكوش أسفل الطربوش .. وحذاء متـرب مـن تـراب دهليـز طوسون ..

وهز رأسه فى يأس وهمهم لنفسه :

— يعنى جت ع الشكل ..

ودفع باب الشقة .. ليجد أمه تجلس على الأريكة مع أم صفاء ... ونهضت السيدة مرحبة وهى تضم حمدى إلى صدرها قائلة فى حنان :

— ازيك يا حمدى .. ازيك يا حبيبى ..

— الله يسلمك يا تيزه ..

وقالت السيدة معاتبة :

— خلاص .. نسيت جنينة ناميش .. وأهل جنينة ناميش .

— أبدا يا تيزة .. لكن المذاكرة ..

وقاطعته أم صفاء قائلة :

— بلاش حجج .. لقد قالت لى أمك إنك تحضر إلى السيدة فى بعض الأحيان لزيارة أصدقائك .

— ليس كثيرا .

— إذن مر علينا .. ألا تعتبرنا أصدقاء ؟..

وتدخلت الست فاطمة قائلة فى مودة :

— أصدقاء فقط .. نحن أهل .

وردت صفاء :

— طبعا أهل .. ولو لم نكن كذلك لما حضرت إليكم لأخبركم بخطبة صفاء ..

ومرت الكلمة على مسامع حمدى ببساطة لأول وهلة .. ولم تجد فى نفسه صدى لها .. ولكن بعد برهة أحس بشىء يلتوى فى أحشائه ووجد نفسه يزدرد ريقه بصعوبة وهو يتساءل :

— صفاء خطبت ؟!

— أجل .. عقبال سميحة .. وعقبالك إن شاء الله بعدما تذهب إلى الجامعة وتتخرج .. ونراك موظفا قد الدنيا ..

وعاد يردد السؤال لنفسه دون أن يتطاول على الخروج من شفتيه :

« صفاء خطبت » .

ولم يكن الأمل فيها يراود نفسه .. كان دائما يتوارى .. كان يتركه للظروف التى قد تنفخ فى رماده يوما وتوهج جمره ..

ولكنه مع ذلك كان موجودا ..

خبيئا .. ولكنه مختزن .

يطويه الرماد .. ولكن لا يطفىء جذوته .

ولكن .. ومن غير مناسبة .. ودون أن يطمع فى أكثر من مجرد وجوده كأمل مطوى .. لا يملك حق الاستمتاع به .

تطلق .. الكلمات البسيطة .. لتقضى عليه لتجتثه من جذوره .. لتوقف نبضاته .. وتطفىء جذوته .

هذه الكلمات .. البسيطة ..

تطلق فى طيش فتصيب فى الصميم ..

ذات مرة .. أبوه .. راح ...

وطوى الطلقة فى قلبه .. وابتلع دماءه فى باطنه ..

ومن جديد .. تنطلق الكلمات البسيطة .. تطلق طائشة .. وكأنها مجرد عبث لتستقر فى قلبه ...

ومرة أخرى بات عليه أن يبتلعها فى سكون .. وتنزف دماؤه فى صمت .وفى غير جلبة .. ولا ضجيج ..

ولم يملك سوى أن يزدرد ريقه مرة أخرى .

أو على الأصح يزدرد دموعه .. ثم يقول بابتسامة لا تعرف معنى الابتسام :

— مبروك .. مبروك يا تيزة ..

— الله يبارك فيك يا حمدى ..

وتردد أمه ببساطة :

— ربنا يوفقها يا اختى .. صفاء طيبة وبنت حلال .

وردت أم صفاء :

— العريس أيضا .. ابن حلال .. لابد أنك تعرفه يا حمدى .. إنه مدرس فى الثانوية الملكية .. مدرس رياضة .. اسمه محمد عبد الحميد .

وردد حمدى الاسم فى ذهول :

— محمد عبد الحميد .. أجل أعرفه .. لقد درس لنا فى السنة الثانية .. إنه رجل ممتاز .

وعاد حمدى يردد الاسم لنفسه :

— محمد عبد الحميد .. مدرس ثانوى .. وأنت يا حمدى ما زلت طالب ثانوى .. المنافسة غير معقولة .. والمقارنة نوع من العبث ..

إنه فعلا مدرس ممتاز .. شكلا وخلقا ..

ولكى تصبح مثله .. أمامك كفاح سنوات طويلة .. وقد تصل .. أو لا تصل ..

وصفاء .. جاهزة ..

ليس هناك ما يدعو أبدا .. إلى أن تنتظر سنوات كفاحك الطويلة ..

من أجل ماذا ؟

من أجل الحب ؟..

الحب شيء كبير يا حمدى ..

ولكن فى نفوس أصحابه فقط ..

أما فى نفوس الغير أمام واقع الحياة .. كمستند للاختيار ووثيقة تعامل بين الناس فى حياتهم التى تحكمها آلاف المقاييس والمتطلبات والاحتياجات .. فهو

هزيل مضحك ..

هل يستطيع أحد أن يقول لهذه السيدة الطيبة السعيدة بابنتها لأنها ستتزوج .. رجلا عاقلا ناجحا .. أن تنتظر سنوات حتى ينجح حمدى ويتخرج .. لأنها تحبه ؟..

ولماذا هو ؟!!

لماذا لا تحب الأستاذ عبد الحميد المدرس ؟..

لقد أحبت أمها أباه .. بعد أن تزوجته .. وعاشت معه هـذه السنين الطوال .. على وفاق تام .

وكذلك تزوجت أمه أباه .. ولم يكن الحب يشكل عنصرا من عناصر العلاقة بينهما .. كانت عناصر العلاقة .. أشياء كثيرة غير الحب .. أهمها بالنسبة لأبيه .. أن تتركه أمه فى حاله .. وأهمها بالنسبة لأمه .. أنه يعقل .. ويكف عن التبذير .. وأن يتركها تنظف البيت كما تشاء .

ما هذا التناقض العجيب بين ما يملأ أذهاننا وقلوبنا . وبين ما يعج به الواقع .

ولم يملك حمدى سوى أن يطوى الأفكار المتصارعة فى ذهنه وأن يكرر ما قاله :

— مبروك ياتيزة .

وعادت أم صفاء تردد بإخلاص :

— الله يبارك فيك يا ابنى .. ادخل بارك لصفاء .. إنها تجلس مع سميحة ..

واتجه حمدى إلى حجرة سميحة ..ليلقى صفاء .. بعد أن بددت الكلمات الطائشة أمله المطوى .. وأخمدت فى باطنه .. جذوة .. لم يحاول قط أن يدفىء نفسه بوهجها .. ولكن كان مجرد وجودها يقيه من لسعة اليأس .

(١٩)

عرش من قش

أقبل حمدى على صفاء وقد جلست بجوار سميحة على طرف الفراش .

ومد يده إليها وقد رسم على شفتيه ابتسامة بذل كل ما يملك من جهد لكى يجعلها تعبر عن الكلمات التى نطق بها :

— مبروك يا صفاء .

ومست كفه وكفها والتقت عيناه بعينيها الواسعتين .

وأجابته فى استسلام حزين :

— الله يبارك فيك .. هل أخبرتك نينة ؟

وتعلقت عيناه بعينيها وأصابعه بأصابعها وهز رأسه بالإيجاب .

عزيز آخر .. تحتم عليك أن تشيعه يا حمدى تشيعه وهو حى .. جميل كما تعودت أن تراه .. رقيق كما تعودت أن تسمعه ..

نحن فى هذه الحياة أجراء يا حمدى ..

أكبر من فينا أجير ...

وكل ما نملكه فى الحياة وهم ..

ونزع ملكية .. ما تتخيل أننا نملكه .. هو قاعدة الحياة .

ينزع منا لغير ما سبب .. لا تعرف لأى صالح .. ولا بأى منطق .. اللهم إلا منطق العبث أو الاستخسار .

ومضطر أنت إلى التسليم .. لأنك لا تملك سواه ..

اصرخ .. وأطلق الآهة من أعماقك .. افعل ذلك .. لمجرد أن تفعل شيئا .. ولكنك فى النهاية لا بد أن تسلم .. لأنك عاجز ..

نحن أجراء .. وعجزة .. فى هذه الحياة ..

نفعل ما يتحتم علينا أن نفعل .. ونأخذ مقابله من الحياة لقمة ... ولحظة متعة .. ونظن أنفسنا أصحاب حق .. ملاكا لمصادر نعمتنا .. ومتعتنـا .. ويجرفنا النسيان .. والغرور .. وفى ثانية .. نجد حقنا قد سلب .. مصدر نعمتنا الذى ظننا أنفسنا قد امتلكناه .. انتزع ببساطة .. ونجد أنفسنا نقف بغيره .. لا نعرف لماذا ...

لماذا امتلكناه .. إذا لم يكن من حقنا ..

ولماذا انتزع منا .. إذا كان من حقنا .

ما من إجابة هناك يا حمدى .. لا ترهق فكرك لتعرف لماذا .

لقد كفرت بالتفكير .. وبكل شىء .. حتى بالحزن .

إن حزنك قد بات قطعة منك ..

أنت حزين بغير جهد .. حزين لأنك لا تعرف ماذا تفعل سوى أن تحزن ..

مبروك يا صفاء ..

يا حبيبة القلب فيما مضى ..

يا مصدر النعمة السابقة .

أقام لك الذهن من شعاعه .. عرشا .. وصاغ لك القلب من شغافه تاجا ..

وخيلت له أوهامه .. أنه سينصبك ملكة على مملكة حياته الواسعة المليئة بالأمانى الخضراء والآمال المزهرة اليانعة .

خيل إليه كل ذلك يا حبيبة القلب باعتبار ما كان .

فإذا بالعرش الذى أقامه لك عرش من قش وإذا بالتاج تاج من ورق .. لم يتحملا نفخة واحدة ...

طارا يا حبيبة القلب .. أمام هبة ريح .

وإذا بالمملكة الخـضراء .. يباب .. والأغانى نواح .. والأمانى حطام ..

خطأ من البداية .. أن ظننا أنفسنا غرورا أصحاب ملك .. ونحن فى الحياة

مجرد أجراء .

خطأ لأننا خططنا ورسمنا .. على أرض الحياة .. ونحن لا نملكها .. وإنما هى التى تملكنا .. تملك أن تنتزعنا من فوقها .. فى أى لحظة .. كما فعلت مع الرجل القوى .. الضاحك .. الذى ظن أنه يملك كل شىء .. فإذا به لا يملك نفسه .. وإذا بمن حوله لا يملكون .. منه شيئا ..

مبروك يا صفاء ..

يا ملكة الأمانى الضائعة .. والآمال التى ذرتها الرياح .

مبروك بلا دموع .. وبلا أحزان .

فالدموع قد جمدت فى مآقيها .. والأحزان قد اختلطت بمشاعرنا .. حتى باتت شيئا أصيلا فيها .

وترك حمدى يد صفاء تسقط إلى جانبها . وأحست سميحة أن كلا منهما يود أن يقول شيئا للآخر . فنهضت قائلة :

— يبدو أن نينة تنادى على .. عن إذنك يا صفاء .. سأحضر حالا .

وخرجت سميحة .

وواجه كل منهما صاحبه .

ومد حمدى يده فأمسك بيد صفاء واحتواها فى كفه لحظة ثم نظر إليها مستأذنا ورفعها إلى فمه ببطء ثم مسها بشفتيه .

ومدت صفاء يدها الأخرى فتحسست شعره . وقد ترقرقت الدموع فى عينيها وبدت أنها تبذل جهدا شاقا لتبلع دموعها .

وهزت صفاء رأسها وهمست :

— لم تكن هناك فائدة يا حمدى ..

— لا تعتذرى يا صفاء .. فالاعتذار للذين يخطئون وأنت لا تخطئين أبدا ..

— حاولت أن قول إنى لا أريد .. فلم يقبل أى سبب لرفضى .. ولم أجرؤ أن أقول إنك السبب .. كرهت أن أضعك .. موضع اللوم أو الشك .. أو أعرضك

لمظنة العبث .

وعاد حمدى يرفع يدها إلى شفتيه .

وفى هذه المرة لم يستطع أن يمنع دمعة انزلقت من عينيه فبللت يدها .

وجرت دمعته .. دموعها المعلقة ، وهتفت به :

— لا تبك يا حمدى .. إنى أكره أن أرى دموعك

ومسح حمدى عينيه المغرورقتين بطرف كمه .. وحاول أن يرسم ابتسامة على شفتيه .

وتمتم وهو يزدرد ريقه :

— أنا متأسف ..

— لا تتأسف أبدا .. إذا كنت أنا فى ظنك لا أخطىء .. فأنت فى ظنى لا تفعل أبدا ما يؤسف عليه .

وهز حمدى رأسه ببطء وأطلق زفرة قصيرة قائلا :

— ليس أمامنا .. فى الحياة .. ما دامت قد أبقت علينا .. إلا أن نعيش ونقاوم .

وصمت لحظة ثم أردف يتمتم :

— ما دامت الضربة لم تقض علينا .. فلا بد أن نواصل السير .. ما دمنا لم نمت .. فحتم علينا أن نفعل ما يفعله الأحياء .

وردت صفاء فى حنان ذائب :

— بعد الشر عنك .. ربنا يوفقك .. ويهب لك خير ما فى الحياة .

وهمس حمدى كأنه يحدث نفسه :

— كنت أنت خير ما فى الحياة ..

— أنت طيب .. وصبور .. وشجاع .. وسيحقق لك النجاح .. وتصبح إنسانا عظيما .

ونفخ حمدى نفخة سخرية مريرة :

— أنا إنسان عظيم .. بماذا .. ولماذا ؟

— لأنك تستحق أن تكون كذلك .. هل تعلم يا حمدى .. أنى كثيرا ما جلست أفكر وحدى فى ساعات الليل الطويلة .. أن الله ربما قد فعل ذلك .. لكى يظل كل منا فى نفس صاحبه .. جميلا كما هو .. إن مشاكل الحياة يا حمدى تحطم المثل الطيبة التى نرسمها فى أذهاننا .. ربما قد أبى الله علينا إلا أن نبقى .. كما نحن أمام أنفسنا .. نماذج طيبة لا تحطمها لطمات الحياة .

— أنت رائعة دائما يا صفاء .

— ليتنى أبقى كذلك فى نفسك ..

— ستبقين .

— وأنت كذلك .. لن تبهت من نفسى صورتك رجلا كما أنت .. رقيقا كما أنت .. شهما كما أنت .. طيبا كما أنت .. وبعد عمر طويل .. عندما يبيض منا الشعر .. لن أجد منك إلا ما تعودت أن أراه منك دائما .. أنت يا حمدى لم تكن طفلا .. لقد كنت دائما رجلا ..

وأقبلت سميحة تتمتم فى اعتذار :

— تأخرت عليكما .. أنا متأسفة يا صفاء .. نينة تنادى عليك .

ونظرت صفاء إلى حمدى نظرة أخيرة ثم شدت على يده قائلة :

— عن إذنك يا حمدى .. ربنا يوفقك دائما .

— وأنت كذلك .. ربنا يجيء لك دائما .. كل ما فيه الخير .

وخرجت صفاء وسميحة إلى الصالة واتجه حمدى إلى غرفته .

استلقى حمدى على الفراش بملابسه وغطى وجهه بذراعيه .

انتهت الجنازة يا حمدى ..

عدت وحدك .. بعد أن شيعت .. ذلك العزيز .. الذى يسمونه الحب .

ولكن الخسائر محتملة ..

إما لأنك تعودت .. تشييع الجنازات ..

أو لأن الفقيد الجديد قد هون عليك أمر فقده .

لقد دفع حياته ثمنا .. نموذج رائع ليبقى فى الذهن على مر الأيام .

ثمنا فادحا يا حمدى ..

لقد اشتريت الواقع .. بالوهم ..

واقعا مشكوكا فى نتائجه .. بوهم .. مضمون .. ولكن ماذا نملك سوى قبول الثمن ؟..

شىء — حتى ولو كان وهما — خير من لا شىء ..

راح أبوك .. انتزع القدر ملكيتك له .. بكل ما أفاضه عليك من حب وحنان .. بغير ثمن ..

وراح حبك .. انتزع منك .. بثمن وهمى .

وماذا تملك أنت أن تفعل .. وأنت عاجز .. إلا عن السير .. والتحرك .. لأنك حى .. لم تمت ..

ومن الباب أقبلت سيدة .. تقطع عليه أفكاره المتمردة .. اليائسة .. وهى تحمل فى يدها صينية فوقها كوب كازوزة وهى تقول :

— تاخد كاوززة يا سى حمدى ؟

ورد حمدى دون أن يرفع ذراعه عن وجهه :

— لا .. أعطى الضيوف .

— أعطيتهم كل واحدة كوبا .. اشتريت زجاجتين كما أمرتنى .. وأفرغتهما فى ثلاثة أكواب .. وأعطيت الست الكبيرة كوبا . وست صفاء كوبا .. وبقى كوب لك .

ورد عليها حمدى فى ضيق :

— قلت لا .

— تبل ريقك فى الحر .. كازوزة مثلجة ..

ورفع حمدى ذراعه عن وجهه وبدت عيناه محمرتين . ونهر سيدة قائلا :

— قلت لك لا أريد شيئا .. اذهبى واتركينى .. أعطيه لأى إنسان .. أو

اشربيه .

و لم يكن هناك استعداد من سيدة لأن تذهب وتتركه .

كانت تعرف ما به .. ولهذا أقبلت . بكوب الكازوزة ..

لعلها تستطيع أن تحدثه أو تخفف ما به .

إنها تحس له بالكثير .. وتملك له الكثير .

لو أنه منحها الفرصة .

إنها على استعداد لأن تبذل له كل شيء .. فقط لو أنه يمتعه ..

ولكن لا شيء فيها .. يجذبه .. أو يمتعه ..

إنها .. بحكم إحساسها به كأعز ما فى هذا الوجود .. تشعر أنها قادرة على أن تضحى بكل شيء من أجله ..

ولكنها لا تعرف أى شيء مما تملكه يمكن أن ترضيه تضحيتها به من أجله ..

إنها تملك الكثير من الحنان والحب .

تستطيع أن تضمه إليها وتريحه على صدرها ..

ولكن هل يعنى هذا شيئا بالنسبة إليه ؟.

إنها تملك هذا القرط الذهبى .. تستطيع أن تمنحه إياه .. لو كان يفيده فى قضاء بعض حوائجه التى حرمته منها ظروف الحرمان التى تمر بها الأسرة .

ولكن هل يرضى هو بهذا ؟.. أم سيتلقى التضحية على أنها لطمة مذلة لكرامته ؟

ما هذا الذى يحول بينها وبينه ؟!

أهو الجدار السميك العازل الذى يقسم الناس أنواعا ؟..

ولكن حمدى رقيق لطيف مع الناس جميعا .. لم تحس مرة واحدة أن شيئا يعزله .. عن عطا الله بائع الجاز بشعره الأشيب وجلبابه المخطط وطاقيته من نفس القماش تصل حتى أذنيه .. وهو يهش له .. ويسأله عن أحواله .

لم تشعر قط أن هناك ما يعزله .. عن أبو ستة بائع الصحف .. أو الأسطى

إمام المزين .. أو ملك بائع الفول وهو يخرج إليه بعض الأحيان بالسلطانية عندما تكون هى مشغولة فى المطبخ أو فى الحمام .

ولكن بينه وبينها .. يقف شيء عازل ..

عازل .. غير مادى .. ولا ملموس .. فهو رقيق معها .. لم تشعر مرة واحدة بأنه سيد وأنها مسودة .. بل هو فى كثير من الأحيان يعاونها فيما قد تعجز عن أدائه مما يحتاج لقوة رجل .. كتنفيض السجاجيد أو نقل الدواليب .

ولكن الحاجز مع كل هذا يقوم فى سمك وصلابة .. حاجزا معنويا .. لا يسمح بنفاذ الأحاسيس .. أو تبادل المشاعر .

لا يسمح بأن يريه منها سوى سيدة .. الخادمة .. التى تنحصر أهميتها فيما تؤديه من خدمة .. كنس ومسح وغسيل .. ومشاوير فى السوق ..

حتى جسدها .. الذى لم يترك أحدا فى الطريق أو من الجيران .. إلا وقد بعث فيه نوعا من الإثارة ..

أثار حتى الصبية .. والعجائز ..

بتصفيقة كف .. أو بتلعيبة حاجب .. أو بنداء غزل .. كان يعبر كل من يلقاه .. عن صدى ما تركه الجسد الممتلىء من إثارة فى نفسه .

إلا هو ..

ــ لماذا ؟.. أهو احتقار لنوعها ؟!

ولكنه لم يعبر قط بأية طريقة عن إحساسه بهذا الاحتقار ..

لعله إحساس بالقربى ..

كأنها أخت له .. أو أم .. أو عمة ..

قد يريحها هذا التبرير .. لو كان صحيحا .

ولكنها لا تملك أن تسلم به لأنه لا يعاملها كأخت أو أم أو عمة . لا يلجأ إليها ليسّر لها بمتاعبه كما يفعل مع سميحة .

ولا يسمح بأن تضمه إلى صدرها إذا مرض كما تفعل أمه ..

ولا يحتضنها كما يحتضن عمته .. إذا زارتهم بعد غيبة ..

وهو الآن يرقد كالجريح ..

أو هو جريح فعلا .. بعينيه احمرار ودموع فائضة .. وبوجهه علامات ضياع وتمرد ويأس ..

إن أحدا لا يحس به .. إلا هى ..

خذلتك حبيبة العمر يا حمدى .. يا أعز الناس عند من لا معزة لها فى نفسك .. من تموت ولا تخذلك ..

لم تشفع لك الوردة بين طيات الكتاب .. ولم تشفع لك النفس تذيبها حنانا .. والقلب يقفز من الصدر شوقا ولهفة .

لم يشفع لك شىء من هذا كله ..

وأدارت حبيبة العمر ظهرها لك .. واتجهت إلى أول طارق يطرق بابها .. وشار يتقدم إليها .

أنت ما زلت صغيرا .. وتلميذا .. وأكثر من هذا أصبحت .. وستظل فقيرا .. تمر بك السنون الطوال .. وأنت أعجز من أن تقدم الثمن الذى تغلب به أولئك الذين ينافسونك فى الشراء .

حياة قاسية شريرة يا حمدى ..

لا تملك مشاعرنا الفياضة مقاومة قسوة واقعها ..

أنت بكل ما تملك من مشاعر نحو صفاء .. عجزت عن الاحتفاظ بها .. حتى تستطيع أن تكون أهلا لها .. وجرفكما الواقع كما يجرف النهر الحصى .. كل إلى قدره .

وأنا .. يا حمدى بكل ما أملك لك من مشاعر .. لا أستطيع أن أمنحك همسة عزاء ..

تأبى يا أعز من تطلعت إليه عيناى .. أن أقدم لك شيئا أى شىء .. لأنه فى نظرك لا شىء .

حتى هذا الجسد المثير الذى يتطلع إليه الناس .. كل الناس .. دون أن تخفف من قدرته على الإثارة .. إن صاحبته لا تغلفه فى ثوب أنيق ولا تحيطه بعطر فواح .

حتى هذا الجسد .. الذى — وجق من صنعه وسواه وملأه — بما يشد إليه النظرات ويلوى الأعناق — كان .. وما زال على استعداد لأن يتقدم إليك راضيا سعيدا .. ليحقق لك بعض المتعة وسط أحزانك .. لم يفلح فى أن يثيرك .. أو يقنعك بأنه يمكن أن يكون شيئا .. يستحق أن تتسلى به .. فى أوقات فراغك .. أو تتخذه ملهاتك فى لحظات مللك وضيقك .

ومع ذلك لا أملك إلا أن أحزن من أجلك .. وأود لو فعلت لك بكل عجزى .. وبكل ما أمثله فى نظرك من اللاقيمة واللاشىء .. شيئا يرفعك من هوة اليأس .. ووهدة الضياع .

وخطت سيدة خطوات أخرى فى الغرفة ووضعت الصينية بالكوب على المنضدة الصغيرة ثم اقتربت من حمدى وانحنت عليه وهو يرقد على الفراش بعد أن حجب وجهه بذراعيه مرة أخرى .

قالت سيدة :

— سى حمدى .

— ماذا تريدين ؟

— أريدك ألا تحزن ..

— لست حزينا .

— لا تتضايق لأن ستى صفاء خطبت .

وبدا كأن حمدى يضغط على ضروسه فى غيظ وسأل وهو ما زال يخفى وجهه :

— من قال لك إنى تضايقت ؟

— لأنك .. لأنك تحبها .

ورفع حمدى ذراعيه من فوق وجهه وسألها فى غيظ :

— ما هذه الحماقة التى تقولينها .. من قال لك هذا ؟

— أنا أعرف منذ أن أطارت الريح الوردة .

وحدق حمدى فى عينيها بنظرات ناهرة وكأنه يكره أن يكشف أحد خبايا نفسه وقال فى لهجة صارمة :

— لا تتحدثى فى مثل هذه الأشياء مرة أخرى ..

— ولكنى أكره أن أراك حزينا .

— حزينا .. أو لست حزينا .. هذا ليس من شأنك .. فاهمة ؟

— قد أستطيع أن أفعل لك شيئا يريحك .

— أنا لست متعبا .. ولست أنت التى ستريحيننى عندما أتعب .. فكفى عن مثل هذا الكلام .. والتفتى إلى عملك .

ولكى ينهى الحديث .. ويحوله تماما عن مجراه .. رفع بصره إلى المشجب وقال لها فى لهجة حازمة آمرة :

— خذى القميص الذى فوق المشجب واغسليه بسرعة وانشريه حتى يستطيع المكوجى كيه غدا .

واتجهت سيدة إلى المشجب ومدت يدها فتناولت القميص ثم تركت كوب الكازوزة .. وغادرت الغرفة .

هذا هو حدك يا سيدة .. غسل القميص ونشره .

لا تحاولى أن تنفذى .. منه .. إلى أبعد من القميص .. لا تحاولى أن تتمسحى فى صدره أو تتلمسى طريقك إلى قلبه ..

على السطح فقط مقامك يا سيدة .

فكفى عن محاولة التسلل إليه عبر الحائط السميك ..

إنه لا يراك يا سيدة إلا مرادفة للقميص المتسخ .. والفراش المنكوش والأرض المتربة .. والحذاء المغبر .

لماذا ؟.. لماذا ؟..

حتى هذا البناء المستوى .. المخدوم .. لا يريد أن يراه فيك .

لو كان لك ثوب أنيق .. وطلاء فى وجهك وعطر فى شعرك وصدرك .. تبرز هذا الجسد .. لما عجز عن أن يراه .

أجساد الراقصات اللواتى ترى صورهن فى المجلات وفى إعلانات الحائط .. لا تفضل جسدها .

ولكن من يدريها أن الراقصات لهن قيمة فى قلبه .

وأنى لها .. أن تصبح مثلهن ؟.

كفى عن هذا الهبل يا سيدة .. والتفتى إلى عملك . كما قال هو لك .. ودعيه لأحزانه .. ما دام ليس لديك ما يخففها عنه ..

اختزنى مشاعرك فى باطنك .. فطريقها إلى نفسه مسدود لا سبيل إلى اجتيازه ..

ومرت سيدة بالصالة تحمل القميص فى يدها ..

ووجدت صفاء وأمها تهمان بالنهوض استعدادا لمغادرة الدار .

وسألتها الست فاطمة :

— أين سيدك حمدى يا سيدة ؟

— فى غرفته .

واتجهت سيدة إلى الحمام لوضع القميص .

وصاحت الأم تنادى ابنها :

— حمدى .. حمدى .

وأجابها صوت حمدى من غرفته فهتفت به قائلة :

— تعال سلم على خالتك .. وعلى صفاء .

— حاضر .

وأقبل حمدى .. رافع الرأس منتصب القامة .. ليس به من أثر الهزيمة سوى احمرار خفيف فى عينيه ..

ورسم الابتسامة على شفتيه وهو يمد يده محييا السيدة الكبيرة قائلا :

— مع السلامة .

— منتظرينك تزورنا .. عمك يسأل عليك دائما .

— الله يسلمه .. سأزوركم فى أقرب فرصة .

— إياك أن أعرف أنك حضرت إلى السيدة دون أن تزورنا .

ومد يده إلى صفاء وشد عليها بخفة .

وظلت صفاء تمسك بيده وهى تقول فى لهجة لم تستطع أن تخفى ما بها من حزن :

— لم تعد للحى بهجته بعد ذهابكم ..

وتمتمت أمها فى أسى :

— الله يرحمه .. كان صوته يملأ البيت .. والحى كله .

وأردفت صفاء :

— بتنا نكره البقاء فى البيت .. ونتمنى لو تركناه .

وردت أم حمدى :

— كتر خيرك يا بنتى ..البركة فيكم .. ربنا يديكم طولة العمر .. ويوفقك ويهنيكى ..

وأردفت صفاء :

— وربنا ينجح حمدى .. ويوفقه ..

وأردفت أمها تقول :

— ربنا يخلهولك ويبارك لك فيه .. حمدى طيب وأمير .. ياريت كان عندى بنت تليق له .

وخرجت سيدة تحمل فى يدها زجاجات الكازوزة الفارغة ووصلت إلى أذنها كلمات أم صفاء الأخيرة .

« ياريت كان عندى بنت تليق له » .

الدنيا عجيبة يا سيدة ..

ما يليق .. لا يوجد ..

وما يوجد .. لا يليق ..

ومن الذى يحدد .. ما يليق لنا .. أو ما يليق بنا ..

وجهات نظر يا سيدة .. تسبب كل هذا التصارع .. والاضطراب فى دنيانا .

كل يرى بمقاييسه ويحدد بمعاييره ..

وبين ما أراه يليق .. وما تراه يليق .. هوة سحيقة من الخلاف .. وعلينا أن نتناطح .. وتراق دماؤنا .. وتتهشم عظامنا .. ويفنى كل منا صاحبه لكى .. يؤكد له أن ما يليق .. هو ما يراه هو أنه يليق .

وما يليق يا سيدة فى النهاية .. حائر .. مائع .. يتأرجح .. بين الرغبة فى باطننا والخوف ممن حولنا .. بين ما يرضى شهواتنا .. وما يستر نزواتنا عن الآخرين .. بين ما نريده لأنفسنا من الحياة .. وبين ما يريده الغير منا .. بين حقنا .. وحق الغير علينا .

وتركت صفاء يد حمدى .

وخرجت من شفتى حمدى زفرة قصيرة .. لم يحسها سوى صفاء .

واتجهت الأم وابنتها إلى خارج الدار .

واتجه حمدى عائدا إلى غرفته .

وانطلقت سيدة إلى بائع الكازوزة لتعيد الفوارغ وتعطيه النقود وأحست بأنها تود أن تقذف عن كاهلها عبئا قد ضاقت بحمله ...

أحست بأنها تود أن تتخلص من قيد مشاعرها ..

(٢٠)

منطقة نفوذ

الدنيا واسعة يا سيدة ..

وأنت أسيرة هذا البيت ..

أسيرة لطف أهله ورقتهم .. وحنوهم عليك ..

أسيرة طيبة هذه السيدة وخلقها الكريم التى رغم كل ما تمر الأسرة به من ضيق لم تنس أن تؤكد لك أن حقك محفوظ .. وأنها تجمع لك مرتبك كل شهر ..

— ماهيتك محفوظة عندى يا سيدة .. من الشهر الذى اشتريت لك فيه القرط .. وأنا أحوشها لك لكى اشترى لك غوايش .

— كتر خيرك يا ستى .. لقد بت واحدة منكم .. وليس بى حاجة إلى مرتبى .

— كيف ؟.. هل تظنين أنك ستقضين عمرك معنا .

— ولم لا .

— ياريت يا سيدة .. نحن لا نستغنى عنك مطلقا .. ولكن لك حياتك وأمامك مستقبلك .

— أى مستقبل ؟

— ستتزوجين .. ويصبح لك بيت وأولاد .. وستحتاجين إلى نقود .. إنى أجمعها لك فى المصاغ .. فهو دائما يحفظ قيمته .. وإن شاء الله عندما يحين الوقت .. ربنا يقدرنى على معاونتك ..

وكانت سيدة تأخذ كلام الست فاطمة على أنه مجرد تخيلات ليس هناك من سبيل لتحقيقها .. لأنها قانعة بما هى فيه .. لا تريد خيرا منه ..

قانعة بأن تبقى جزءا من هذا البيت .

قانعة بأن تحوم حول .. صنمها .. الذى تدخر له فى نفسها كل ما تملك من مشاعر .. دون أن تجسر على إطلاقها أو البوح بها .

ولكنها تحس الآن .. بالرغبة فى كسر القيد .. والفكاك من الأسر .. لقد نقل إليها حمدى .. من حيث لا يشعر .. إحساس التمرد ومخاصمة الحياة ..

الدنيا واسعة يا سيدة ..

وكما قالت لك السيدة .. لن تظلى أبدا أسيرة هذا البيت ..

إن لك حياتك .. ومستقبلك .. وطريقك الخاص ..

طريق قد يكون غير مشرق .. ومستقبل قد لا يحقق لك شيئا من آمالك .. وحياة قد لا تحمل لك الكثير من المتع ..

ولكنها على أية حال .. حياتك .. التى لا بد أن تخوضيها .. وطريقك الذى لا بد لك أن تسلكيه اتجاها إلى مستقبلك ..

حياة يا سيدة أبعد ما تكون عن أوهامك الوردية .. ولكنها حياتك .. التى لا مفر لك منها ..

ووصلت سيدة إلى علام بائع الكازوزة .. يجلس على دكة بجوار صندوقه الخشبى الأخضر الذى تسلقته شجرة لبلاب وأحاط به الغاب الأخضر ذو السنابل الريشية فى آخره . ورصت زجاجات الكازوزة على الأرفف فى أعلاه واحتوى باطنه ألواح الثلج .

ومدت سيدة يدها بالزجاجات الفارغة .

و لم يطبق علام على الزجاجات .. ولكنه أطبق على يدها .. قائلا :

— تعالى يا بت اقعدى شوية ..

وجذبت سيدة يدها قائلة :

— اترك يدى .

— تركت يدك .. اجلسى ..

— ليس لدى وقت .

— اجلسى برهة .

— لماذا ؟..

— نتحدث يا سيدة .. نأخذ ونعطى .

— ليس بينى وبينك شيء نتحدث عنه .

— اجلسى يا بنت الحلال .. قد يكون بيننا شيء .

— شيء مثل ماذا ؟

— يا سيدة اجلسى نتحدث .

— لا .. لا أستطيع الجلوس بجوارك .. ماذا يقول الناس ؟

— ليس هناك ناس .. إننا وحدنا .

— قد يمر البعض .. ويظنون بنا السوء .

— والله لا أريد بك سوءا .. أنا أريد بك الخير ..

ونظرت سيدة إلى الرجل .. بجلبابه الطويل واللبدة على رأسه تبدو منها سوالفه الطويلة السوداء ووجهه الأسمر بتقاطيع ابن البلد الفهلوى وشعر شاربه متكاثف فوق شفته . وأحست فى لهجته .. نوعا من الجاذبية .. كانت نغمة حديثه .. لا تحمل ذلك الغزل الصارخ .. والاشتهاء المكشوف .

كانت عيناه تريدانها .. ولكن بغير أكف تصفق أو حواجب تهتز متراقصة فوق عينيه ..

لماذا لا تستمعى إليه يا سيدة ؟..

استمعى إليه ..

ما دام حتم عليك أن تخرجى إلى طريقك الخاص وتمارسى حياتك .

ما دام حتم عليك أن تقطعى الأحبال التى تشدك إلى سماء أحلامك الوردية .

استمعى إليه ..

فقد يكون شيئا ..

بعد أن أصبح كل شيء عندك .. لا شيء .

واتخذت سيدة مجلسها بجوار علام .. ووضع يده على ركبتها بطريقة غير متكلفة فدفعت يده بعيدا وهى تحس بإحساس الأنثى أن مسة يده . لا تحمل البراءة التى تحاول أن تبدو بها .

وقالت سيدة ناهرة :

— ابعد يدك ..

وضحك علام قائلا :

— بعدنا أيدينا .. أنا قصدى شريف يا سيدة .

— باختصار ماذا تريد ؟

— طولى بالك يا سيدة .. الدنيا اتخلقت فى سبعة أيام .

ونظرت إليه سيدة بطرف عينيها وردت ساخرة :

— وبسلامتك تريد أن تخلق دنيا ؟

— لأ .. أدخل دنيا .. وأنت الصادقة .

— ماذا تعنى ؟

— نأخذ ونعطى يا سيدة .. صبرك على .

— عندى شغل يا علام .. قل وخلصنى .

— منذ متى تعملين عند الجماعة الذين تعملين عندهم ؟

— منذ عدة سنوات .

— وماذا يعطونك ؟

— ومالك أنت ؟

— أعرف إذا كانوا ينصفونك أم لا .

— الناس طيبون .. ولا أريد منهم شيئا .. يكفى عشرتهم ومعاملتهم .

ورفع علام حاجبيه فى دهشة :

— تخدمينهم .. بالعشرة والمعاملة ..؟ يبقوا نصابين .

— اخرس .. قطع لسانك .. دول أسيادك .

وضحك علام وعاد يتحسس ركبتها قائلا :

— لا تغضبى هكذا .. أنا أمزح ..

— ارفع يدك أولا .

— وبعدين معك يا سيدة .. ما تروق ..

— قلت ارفع يدك .

— ما هذا الشرف الذى هبط عليك ؟

— شريفة غصب عن عينك وعين اللى يتشدد لك .

— حاضر .. حاضر .. اهدئ .. نعود إلى موضوعنا .. ماذا يعطونك ؟

— وانت مالك .. عندك عمل لى ؟

— جايز .

— ولكننى مستريحة هكذا .

ورد علام فى صوت جاد .

— لقد كبرت يا سيدة .. ولا بد أن تنظرى إلى مستقبلك .. هل تقبضين قرشك ؟.. أم يأخذه أهلك ؟

— ليس لى أهل .

— أبدا ؟

— أبدا ..

— ليس لك أم ؟

— ولا أب .

— من يأخذ مرتبك إذن ؟

— تحوشه السيدة ..

وضحك علام فى سخرية ورد قولها :

— تحوشه السيدة ؟.. ابقى تعالى اقبضى .

ونظرت إليه سيدة فى غيظ وأجابت فى تحد :

— اسمع يا علام .. السيدة أشرف منك ومن أهلك .. لقد أحضرت لى هذا القرط الذهبى الذى فى أذنى .

— أهو ذهبى ؟

— لا فالصو .

— وماذا أحضرت لك أيضا ؟

— ستحضر لى غوايش ذهب ..

— من يضمن لك ؟

— أنا لم أطلب منها شيئا .. ولا أريد شيئا . ولكنها هى التى تصر على أن تعدنى ليوم أحتاج فيه .. يوم يكون لى بيت وأولاد .

وهز علام رأسه معجبا وتمتم قائلا :

— والله ست طيبة . ومتى ستحضر لك الغوايش ؟

ونظرت إليه سيدة فى تشكك وتساءلت :

— ومالك أنت ؟..

— خايف عليكى ..

— كتر خيرك .. وفر خوفك على ..

ثم وضعت يدها فى خصرها على طريقة زوجة أبيها دلال .. واستمرت تقول فى تحد :

— أنا أدها وقدود يا سى علام .. لا تخف على أبدا .

— إنى أريد توعيتك .. أنا أحرص على مستقبلك يا سيدة أنا أخاف عليك من أولاد الحرام .

— كتر خيرك .. ولكن ماذا تريد منى باختصار ؟

ومد علام ذراعه وأحاطها بها وضمها إليه قائلا وقد تلاحقت أنفاسه :

— أنا باحبك يا سيدة .

وأحست بنفسها رغبة فى التجاوب معه حتى تستكشف آخر الطريق الذى يريد أن يصل بها إليه .

فاستسلمت لضمته وتساءلت ببساطة :

ـــ وبعدين ؟

ـــ قلت لك باحبك يا سيدة .

ـــ مفهوم .. وبعد ما تحبنى .. ماذا تريد ؟

ـــ أريد أن تحبينى .

ـــ وبعد ما أحبك ؟

ـــ نصبح مع بعض .

ـــ كيف ؟

ـــ كما تريدين .

ـــ وكيف يمكن أن يصبح الناس الذين يحب كل منهما الآخر .. مع بعض ؟

ـــ يتزوجون .

ـــ وأنت تريد أن تتزوجنى يا علام ؟

ـــ طبعا أريد أن أتزوجك .

وصمتت سيدة لحظة تستوعب الكلمة فى ذهنها .

هذا أول عرض يا سيدة لخروجك إلى الدنيا الواسعة ..

جاد .. أو غير جاد .

ومهما كانت نتائجه .. فهو لا جدال نغمة جديدة فى حياتك ..

شىء غير الألفاظ السباب التى تعودتها من زوجة أبيك وأم عباس وغير ألفاظ السيادة .. التى مهما بلغت من الرقة والحنو .. فهى لا تبدو فى جوهرها .. سوى أسلوب سيادى لتعامل رقيق حنون .. من الأسرة الطيبة الكريمة .. وشىء غير ألفاظ الغزل الفاضحة التى تلاحقك فى كل غدوة وروحة .. من صبية الطريق والباعة .. والأفندية ..

وشىء غير الصد الرقيق الذى يعزلك عن حمدى .. الصنم المعبود الذى يأبى إلا أن يضعك فى موضعك أمام طشت الغسيل أو وراء ممسحة البلاط .

ألفاظ جديدة .. أيا كان صاحبها . وأيا كان غرضه منها .. وأيا كانت نتيجتها لها .

فهى من غير شك تشكل نغمة جديدة فى أذنيها .

لأول مرة يقول لها إنسان ما .. أريد أن أتزوجك بطريقة جادة .

ولكن هل هو جاد فيما يقول ؟

هل هذه هى الطريقة التى يتزوجون بها ..؟

ماذا تهمها الطريقة .. ما دامت ستؤدى إلى الزواج ..

وهل هو يحبها حقا ..؟

وما هو الحب ..؟

أهو ذلك الشعور المخبول الذى تحس به لحمدى .. والذى يحس به هو لصفاء .. والذى يشيد لنا قصورا فى الهواء .. ويعلقنا بحبال ذهبية من نسج أوهامنا .. ويظل يؤرجحنا .. حتى نرتطم بواقعنا .. وننهض لنتلمس طريقنا على الأرض .. نلعق دماءنا ونضمد جراحنا ؟.

قطعا هو لا يحس لك بهذا يا سيدة .. ولا أنت تطلبين منه هذا .. ولا تحتاجين إليه ..

مخلوق واحد لو هيأ بعض هذا الشعور .. لمنحك به .. نعمة كبرى .. تجمل حياتك .. وتسعد أيامك .. وتضىء لياليك .

أما و لم يمنحه إياك .. فقد بت فى غنى عنه من سواه .

وبات عليك أن تهيئى نفسك لقبول ما يمكن أن يمنحه الغير من مشاعر .

هو يقول إنه يحبك .

وقد يكون فى قوله صادقا ..

فليس كل الحب هو هذا الخبل الذى تحسين به لحمدى ..

قد يكون حبه لك .. جزئيا ..

أى يحب بعض ما فيك .. وأغلب الظن أنه يحب هذا الشيء الذى يتطلع إليه الناس منك وأنت سائرة فى الطريق .

هذا الشيء المتفجر الذى لا تفلح الثياب فى إخفائه .. والذى يبدو دائما وكأنه ثائر على ما يحجبه .. يود لو يرفعه عنه ليقول للناس ها أنذا ..

وعيون الرجال تعرفه .. دون أن يزاح عنه الغطاء .. تعرفه .. مكدسا خلف الغطاء .. وتكاد تعريه نظراتهم النهمة ..

يحب فيك علام هذا الشيء الذى يتطلع إليه الرجال ..

وماذا فى ذلك ؟..

لا بد أن يكون هناك فى النساء شيء .. يضحى من أجله الرجال بحريتهم ..

وسرك يا سيدة فى هذا الشيء الكامن تحت الثياب ..

ليكن .. فهذا خير من أن يكون ما جذبه إليك .. شيء لا يخصك .

فبعض الرجال .. يتزوجون النساء .. من أجل الحسب والنسب ، أو من أجل الغنى .

وأنت يا سيدة عاطل من هذا وذاك .

ولكنه سأل عن ماهيتك .. وعمن يأخذها .. وماذا تفعلين بها .. وأنصت باهتمام إلى حديثك عن القرط والغوايش .

وماذا فى ذلك ؟..

إذا كان ينوى أن يتزوجك .. فستكون هذه ثروة زوجته .

ثروة ؟!!

بت ذات ثروة يا سيدة .. يتطلع إليها الرجال ..

يا سيدة .. يا جربوعة .. أصبحت ذات مصاغ .. يسأل عنه الذين يطلبون يدك ..

وعلت شفتى سيدة ابتسامة بغير إرادة ..

وتطلع إليها الرجل متسائلا :

ـ ماذا قلت يا سيدة ؟..

ـ فى ماذا ؟..

ـ فى أن نصبح مع بعض .

ـ أزواج ؟

ـ طبعا .

ـ دعنى أفكر ..

ـ تفكرين فى ماذا .. هل تظنين أنك ستجدين زوجا خيرا منى ؟

ـ ومن أدراك أنى أريد أن أتزوج ؟

ـ لأن كل بنت تتمنى أن تتزوج .

ـ لماذا ؟

ـ لكى تجد رجلا يلمها ..

وضحكت سيدة وأجابت :

ـ ولكنى ملمومة .

ـ فى بيت أسيادك .. مجرد خادمة .

ـ وكيف ستلمنى أنت ؟

ـ ست بيت ..

ـ أين هو هذا البيت ؟

ـ سأفتحه لك .

ـ والعفش ؟

ـ نشتريه .. وتصبحين ست بيت .. ويتوب عليك ربنا من الشقا والمرمطة .

معقول هذا يا سيدة ؟

يجعلك هذا الرجل ست بيت .. تأمرين فيه وتنهين وتنجبين منه أولادا

وبنات .. وهيصة .

ورفعت سيدة رأسها إليه متسائلة :

ـ ومعك تقود يا علام ؟

ـ ربنا يفرجها .

أجل يا سيدة .. ولماذا لا يفرجها !!

الطريق الذى حدثتها عنه سيدتها الطيبة .. مفتوح أمامها ..

ليس الرجل فى حد ذاته أمنية .. وليس له من ميزة تجعله موضع لهفة .. ولكنه رجل كبقية الرجال ..

رجل كهؤلاء الذين تغدو وتروح أمامهم طيلة اليوم ..

ليس وجيها كملك بائع الفول .. بقامته الفارعة .. ووجهه الأبيض .. وعينيه الملونتين وشاربه المبروم .. ولكن ملك متزوج .. ومن غير دينها لأنه قبطى .. فقد رأت الصليب على باطن رسغه .. ثم هو لم يعرض عليها الزواج .. فلماذا المقارنة ؟

ثم إنه ليس قبيحا كعطا الله .. بائع الجاز .

وليس عبيطا كأبو الزيك صبى المكوجى .. الذى يطلب منها الزواج بمعدل خمس مرات فى اليوم ..

علام له سوق رائجة مع خادمات الحى .. وهو ذكى فهلوى ..

وإذا كان يعرض عليك الزواج يا سيدة .. فلا بد أنك تستحقين العرض .. اللهم إلا إذا كان يريد أن يعبث بك .. ويأكل بعقلك حلاوة ..

ولكن « دا بعده » .

لست عبيطة يا سيدة .. حتى يحاول علام بفهلوته أن يأكل بعقلك حلاوة .. ويغريك بالزواج ويجر رجلك ..

وعاد علام يستحثها وهو يحاول ضمها ويقرب شفتيه إلى وجهها :

وتخلصت سيدة من ذراعه ودفعته فى ذقنه لتبعد شفتيه قائلة :

ـ ابعد بوزك .. جاك قطع بوزك .

ـ الله .. وبعدين معاك يا سيدة .. ماحنا حانتأهل .

ـ لما نتأهل ياروح امك .

ـ طب هاتى حاجة على الحساب .

ـ ما بشككش يادلعى .

وضحك علام قائلا :

ـ إذا علقى يافطة على صدرك .... « الشك ممنوع والزعل مرفوع » .

وهزت سيدة رأسها قائلة :

ـ لما أفتحه محل عمومى .. أحط اليافطة .

ورد علام :

ـ لا والله ناصحة ..

ونهضت سيدة قائلة :

ـ عن إذنك .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى البيت .

ـ بدرى .

ـ بدرى من عمرك يا روحى .

ـ لم تعطينى عقادا نافعا .

ـ لما أشاور .

ـ تشاورى مين ؟

ـ أشاور عقلى .. وأشاور الناس اللى آوينى .. أهل نعمتى .

ـ ربنا يتوب عليكى .. وتبقى حرة نفسك .

ـ خليتك بعافية .

ـ يعافيكى يا سيدة .. حاستناكى إمتى ؟..

ـــ لما يجينا ضيوف .
ـــ اشمعنى ؟
ـــ علشان اشترى كازوزة .
ـــ بتتكلمى جد ؟
ـــ أنا معرفش غير الجد .
ـــ يعنى لن أراك حتى يفرجها ربنا بالضيوف ..
ـــ ولماذا آتى لك .. عندك شيء غير الكازوزة ؟
ـــ عندى .. روحى ..
ـــ ما تلزمناش .
ـــ بكره تلزمك .
ـــ لما تلزمنى اقول لك .
ـــ يعنى حاتردى على ..
ـــ ربنا يفرجها .
ـــ منتظرك ..
ـــ إن شاء الله .

وعادت سيدة إلى البيت .. وفى ذهنها خلية نحل .

الطريق الخاص .. مهده هذا الرجل أمامها ..

طريق المستقبل .. قد فتح الباب إليه .

كيف يمكن أن يبدو الأفق مع هذا الرفيق ؟..

بيت صغير .. حجرة أو حجرتين .. فراش وأريكة وطبلية .. أو منضدة .. ودولاب كبير لملابسها ومرآة لزينتها .. وحمام لها وحدها .. وهى ستصبح فيه « الست » أو « الجماعة » .

ست سيدة ..

أجل .. بعض الناس سينادونها هكذا ..

اسمها ليس له رنين .. سيادى .. رغم أن لفظه يحمل معنى السيادة .. ولكن لا بأس به ..

غدا .. تلد . ويصبح اسمها .. أم .. أى حاجة ..

ستنتقى هى الاسم بمعرفتها .. إذا كانت بنتا سمتها نبيلة أو سميحة أو حتى صفاء .. من الذى يستطيع منعها ؟

ستكون الست أم نبيلة .. اسم نظيف محترم .

وإذا كان القادم ولدا .. سمته .. ماذا ؟

ـــ حمدى طبعا ..

وراك .. وراك .. يا حمدى .. إذا استعصيت زوجا .. فلن تستعصى ولدا .. لن يفلت اسمك من حياتى ..

أم حمدى .. الست أم حمدى ..

غدا ستصبحين كسيدتك الست أم حمدى ..

الجيران جميعا ينادونها هكذا ..

عاشت الأسامى يا ست أم حمدى ..

وماذا أيضا يخبيء لك المستقبل فى جعبته ؟

مطبخا تطهين فيه طعامك .. لتأكليه أنت .. وزوجك .. وأولادك ..

أى نفوذ سيكون لك يا سيدة .. وأى سلطان .. وأية سيادة ؟..

كل هذا ستمارسينه وحدك .. أنت صاحبة البيت .. وربة الأسرة ..

ستأمرين أخيرا .. بعد طول إطاعة .. وتسودين بعد طول خدمة ..

ستجلسين فى النافذة لتثرثرى مع الجارات ، كما كانت تفعل أم عباس ..

وتعملين لنفسك فنجان قهوة .. تزنين به رأسك أو فنجان شاى تعدلين به مزاجك ..

ستعدلين مزاجك .. حتى ولو كان معدولا .. وتزنين رأسك حتى ولو كان موزونا .

ستفعلين كل ما تشائين .. دون أن يناقشك إنسان لماذا تفعلين .. وتدعين أى ادعاء .. دون أن يردك أحد .

فتح أمامك طريق السيادة يا سيدة .

فأقبلى عليه ..

لا يهم من الذى فتحه .. علام .. أو عطا الله .. أبو ستة أو أبو الزيك .. المهم أن تكونى سيدة بحق .. لا سيدة اسما ..

وأقبلت على البيت وكانت سميحة تقف فى الشرفة وقد بدا عليها القلق .. ولم تكد تراها حتى هتفت بها :

— كنت فين يا سيدة ؟

— كنت عند علام .. أعيد الزجاجات الفارغة .

— كل هذا عند علام .. لقد استغيبتك نينة .

لماذا يحاسبونها على بضع دقائق تغيبها هنا أو هناك .. لماذا يستغيبونها كأنها قطار سكة حديد يتحتم أن يصل فى موعده ..

ودخلت سيدة إلى داخل الشقة فوجدت السيدة تقف بباب الصالة وقد بدا على ملامحها الغضب .

— نصف ساعة لإعادة الزجاجات .

ولم تستطع أن تواجه نظرات غضب السيدة وعاودها الخوف الطبيعى الذى تعودت عليه ووقفت أمامها كمذنب يستغفر .

وأجابت متلجلجة :

— أصلى .. أصلى .

— أصلك إيه وفصلك إيه .

— أصلى مالقيتش علام .. وقفت أستناه .

— تستنيه نصف ساعة ؟

— حتى عاد .

— ثانى مرة تقذفى الزجاجات فى الصندوق وتعودى .. فاهمة ؟

— فاهمة .

— ادخلى اشطفى هدمتين الغسيل ..

— حاضر .

ودخلت سيدة إلى المطبخ وقد تسرب إلى نفسها إحساس بالتمرد .. والسخط .

لم يكن ما قيل لها جديدا عليها ..

ولكن الجديد .. كان فى نفسها ..

كان فى الغلالة التى نسجها علام بعرضه .. والتى سلطت ضوءا كاشفا على ما يمكن أن يمنحها إياه طريقها الخاص إلى مستقبلها .. طريق السيادة .. طريق السلطان على منطقة نفوذ .. مهما ضاقت .. ومهما تضاءلت .. فهى قادرة على أن تجعلها سيدة .. تأمر .. لا خادمة تطاع .

(٢١)

رحمة ونور

بدأت الحركة فى البيت .. والليل ما زال جاثما .. وأضواء الفوانيس تبدو من خلال النافذة تتراقص مرتجفة .. لا تكاد تبدو من ظلمة الطريق سوى دائرة محدودة الضوء صفراء شاحبة .

ولم تكن يقظة آخر الليل جديدة على أهل البيت .. فقد اعتادوها بعد وفاة الأب والانتقال إلى روض الفرج فى زيارتهم للمقابر أو كما كانوا يسمونها (طلعة القرافة) التى اتخذت توقيتا أسبوعيا كل يوم خميس ثم أخذت الزيارات تتباعد حتى استقرت فى المواسم والأعياد .. والسنوية ..

وأحست سيدة بحركة الأم فى فراشها .. وطقطقة الفراش أسفلها .. وهى تنهض فى تثاقل وسؤال سميحة والنوم يغلبها :

— أليس الوقت مبكرا ؟

وردت الأم فى صوت خافت :

— يا دوبك .. أحضر الأنبتة ..

ثم أردفت فى حنان :

— تستطيعين أن تنامى برهة .. حتى ننتهى من تجهيزها ..

ولكن سميحة طرحت النوم عن عينيها ونهضت فى صحوة كاملة وهى تهتف :

— استريحى أنت وأنا سأجهز كل شىء .

وكانت سيدة قد تركت مرقدها ووقفت على قدميها .. وأقبلت على الحجرة تقول :

— لقد أعددت كل شىء قبل أن أنام .

وسألت السيدة :

— وضعت القرص على بعضها .. والبلح الأبريمى والفاكهة ؟..

— فعلت كما نفعل كل مرة .

وأطلقت الأم زفرة حارة من صدرها :

— إذن نجهز أنفسنا حتى تأتى ست زكية .

وتساءلت سميحة :

— هل ستمر علينا عمتى ؟

— قالت هذا .

وبدأت الحركة فى البيت .

جرت سيدة السلال التى حوت قرص المنين والبلح الأبريمى وغيرهما من أصناف الطلعة .. التى توزع على أرواح الموتى والتى يحضرها الأقارب والأصدقاء إلى البيت ليلة الطلعة .. مساهمة منهم فى الإعداد لها .. بالقرص .. والفاكهة .

واستيقظ حمدى على حركة نقل السلال إلى طرقة السلم ..

وارتدى ثيابه بسرعة بعد أن غسل وجهه ..

واستعدت الأسرة للخروج .. بعد أن وزعت عليهم السلال . ووقف حمدى فى الشرفة ينتظر مجىء العمة .

وبدا شبحها فى الظلام تسير تجاه البيت متثاقلة الخطوات .

ولم يكد حمدى يراها حتى هتف :

— هيا بنا .. لقد قدمت عمتى .

وحمل حمدى أثقل السلال وأكبرها . وحاولت سيدة أن تأخذها عنه ولكنه نهاها فى حزم قائلا :

— احملى هذه .

— ولكن هذه أثقل .

ـــ ومن أجل ذلك سأحملها أنا .

وحاولت سيدة أن تجذب منه السلة قائلة :

ـــ اتركها لى أنا أحملها .

ورد عليها حمدى ناهرا :

ـــ قلت لك احملى الأخرى .. المفروض أن يحمل الرجل .. الأثقل .

ورفعت سيدة السلة الأخف ..

هذا الإنسان هو الوحيد فى هذه الدنيا .. الذى يعاملك كسيدة .

وهو أيضا الوحيد الذى يرفض معاملتك كأنثى ..

دائما يحمل عنك الأثقال ..

ينفض عنك السجاجيد .. وينقل بدلك الدواليب ويشعرك بأنك سيدة .. يجب أن يحمل عنها الرجل أعباءها .. وهو يمنحك إحساسا ممتعا .. عندما يتقدم ليحمل هذه الأعباء عنك .

ولكنه لا يفعل أكثر من هذا ..

إنه يحملها عنك وينصرف ..

لا يمنحك أكثر من هذا ..

إنه يبخل عليك دائما .. بهذه النظرة التى يغرقك بها الرجال .. والتى يتحسسون بها صدرك وبقية الأجزاء البارزة من جسدك .

لماذا ؟.

أى شعور هذا الذى يحكم تصرفاته نحوك ؟

إنه يترفق بك ..

بل .. أكثر من هذا يحنو عليك ..

لو مرضت .. فهو سباق .. إلى رعايتك .. حريص على تهيئة وسائل الشفاء لك .. والاطمئنان عليك .

يتقدم إليك بقرص أسبيرين .. أو يأمرك بأن تستريحى ..

ثم ينصرف عنك .. كأنه لم يفعل شيئا .

وهو يصر فى حزم على أن يحمل عنك الأثقل .

ثم يسير بحمله كأنه لم يفعل شيئا .. أو كان هذا هو المفروض أن يفعله .. بينما غيره لا يفعل ذلك ..

الناس ينهبونها بأعينهم .. ولكن عندما يحسون أنها ستكلفهم جهدا أو تحملهم عبئا .. ينجون بأنفسهم .

هكذا كان يفعل عباس وغير عباس ..

يلتهم شيئا منها .. ثم ينصرف ..

لم يحدث مرة واحدة .. أن تطوع لمساعدتها .

كانت تنوء بحمل صفيحة المياه على كتفها .. وتكاد تسقط بالبساط على ظهرها .. ويمر بها فيدفعها جانبا لأنها تسد طريقه ..

والناس كلهم يفعلون بها هكذا ..

إلا هذا المخلوق المخير العجيب ..

ومع ذلك ففى كثير من الأوقات تحس أنه لا حق لها بالاستمتاع بهذا الرفق الذى يرعاها به لأنه شىء خاص به .. لا يشكل فى حقيقته أى مظهر من مظاهر التمييز لها .

هذا الشىء الذى يمنحه إياها .. يمكن أن يمنحه لأى مخلوقة فى موضعها .. وهو أمر رغم كل ما يمنحها من الارتياح .. لا يجعل نعمته خالصة فى نفسها .. لأنها تفضل النعمة المميزة لها مهما ضؤلت .. على النعمة الشاملة لمن حولها .. مهما كبرت .

ولقد يفضل البعض منا قيراطا من الخير يميزه عن القطيع .. على أربعة وعشرين يتساوى فيها مع القطيع .

ونظرت إليه سيدة وهو يتقدم الركب بحمله الثقيل .. يشد ذراعه وكتفه إلى أسفل .

إنه يسير ببصر شارد فى ظلمات الطريق ..

لا تعنيه هى فى شىء .

تماما كما لقيها أول مرة فى طريق المدبح .. ودرأ عنها غائلة الشر التى أحاطها به الناس .. وحماها من فتكهم .. ودفع للبقال القرشين ثمن المصاصة وعلبة السردين .

ثم فصحها بألا تفعل مثل هذا ثانية .. وتركها وهم بالانصراف .. فلما سألته أن يأخذها لتشتغل عندهم .. ساقها بجواره إلى البيت .. دون أن ينظر إليها ..

كان ممكنا أن يفعل ما فعله .. مع أى إنسان فى مكانها ..

وما زال يفعل ما يفعله نحوها .. بحكم طبيعته .. لا لأنها مخلوق مميز بذاته .

ما عليها .. إنها لا تملك سوى أن تأخذه كما هو .. النبع الذى يمنح من حوله .. نعمة .. دون أن يخصها بشىء ..

إنها أيضا يجب ألا تأمل فى شىء خاص بها .. ما دام يأبى أن يجعل منها شيئا ضمن بقية الأشياء المحيطة به .

فليبق هو فى موضعه بالنسبة لها شيئا عاما .

وعبر الركب يتقدمه حمدى وتليه سميحة وسيدة ثم السيدتان بخطواتهما المتثاقلة .. وابور الطحين بطرقاته الرتيبة .. تشق سكون آخر الليل .. وهمهمة بعض العمال والزبائن تسرى وسط الطرقات ..

ووصلت الأسرة إلى شارع الترام .. خاليا مظلما .. إلا من دوائر الضوء الصفراء المتراقصة حول الفوانيس .

وقالت العمة متنهدة فى نبرات متبرمة :

ــ متعب هذا المشوار إلى الدوران ..

وردت الأم :

ــ لو انتظرنا حتى يسير ترام روض الفرج . لأشرقت الشمس علينا .. قبل

أن يأتى .

وكان على الأسرة أن تسير شارع روض الفرج بأكمله حتى تصل إلى دوران شبرا .. لتأخذ ترام ٨ الذى يخرج من مخزن الترام فى الدوران .

لم يكن المشوار قصيرا .. كان عليهم أن يقطعوا ثلاث محطات للترام بدل أن يأخذوا ترام روض الفرج من محطة المحامى أو من محطة كوبانية المياه عند دوران روض الفرج .

وقالت سميحة وهى تحس بذراعها تكاد تتصلب تحت ثقل سلة البلح الأبريمى التى تحملها :

ــ الحمد لله أن جدى ليس معنا .

وردت العمة :

ــ كان قد جلس على الرصيف .

وقال حمدى :

ــ أذكر مرة ذهبت معه لزيارة أخيه عمى سليمان .. فى بركة الفيل .. وعند عودتنا اقترحت عليه أن نعود سائرين على الأقدام .. وعندما وصلنا إلى ميدان السيدة كان قد فرهد .. ونظر إلى فى غيظ ثم هبط على رصيف جامع السيدة قائلا فى يأس :

« لحد هنا .. وسيدى باعنى » .

وتساءلت سميحة :

ــ ماذا يعنى ؟

وردت العمة :

ــ كلمة يقولها .. عندما يصيبه اليأس ممن معه .. الحمد لله الذى رضى بأن يذهب هو مع الأولاد مباشرة إلى الحوش .. يمكنهم أن ينتظروا حتى يسير ترام روض الفرج .. بدلا من السير إلى الدوران .

ووقفت الأسرة على محطة دوران شبرا .. تنتظر أول ترام يخرج من المخزن ..

و لم يطل بهم الأمر حتى أقبل الترام بصوت طنين عجلاته فوق القضبان وهو يلف ليأخذ مكانه فى طريق شبرا .

وأخذ حمدى يرفع السلال ويضعها بين المقاعد وهو يشير إلى الكمسارى أن يصبر حتى تركب الأسرة كلها .

وكان الترام خاليا .. إلا من شرطى يجلس وراء السائق الذى لف رأسه بمنديل محلاوى فوق الطربوش ..

واستدار السائق ليتعجل ركوب الأسرة صائحا بالكمسارى :

— خلاص ؟..

وأجابه الكمسارى بزمارة طويلة ثم قفز إلى السلم وأقبل على الأسرة ينقر خشبة التذاكر هاتفا :

— تذاكر .

وهمت العمة بإخراج كيس نقودها ولكن الأم جذبت يدها قائلة فى إصرار :

— أبدا .. خلى عنك .

ودفعت الأم ثمن التذاكر .. واسترخت الأسرة فى المقعد الخشبى المستطيل .. وحرك اندفاع الترام ريح الفجر البارد فانكمش كل منهم فى ثيابه .. وبدأت حركة الترام المنتظمة تدفع النوم إلى أعينهم .. فاسترخت أطرافهم .. وتثاقلت أجفانهم .

واستمر الترام فى رحلته مخترقا شارع شبرا إلى المحطة .

وقبيل الكوبرى بدت بشائر الصباح .. حوانيت الفول والطعمية تفتح أبوابها والأيادى الحديدية الثقيلة تلف فى الأجران الحجرية تسحق الفول والبصل والكرات وبقية خلطة الطعمية .. ومقاعد المقاهى تصف خارجها .. بعد أن قام الصبية بعملية الكنس والرش .. وعربات اليد بالشمام والبطيخ تنحدر من ناحية شبرا ..

وعبر الترام الكوبرى وبدت المحطة تعج بحركتها الصباحية .. عربات تاكسى

تروح وتغدو .. وعربات ترام تنطلق منها الزمامير .. والباعة السريحة يتخذون مكانهم على الكوبرى وأسفله بالشرابات والفانلات ومشابك الغسيل والخيار وسرت الشمام وأسبتة الفاكهة والسلال الفارغة .. والقادمون من الصعيد أو الراحلون إليه بأحمالهم وقففهم يدبون فى فناء المحطة الخلفى .

واخترق الترام شارع كلوت بك .. وبدت على جانبى الطريق الأعمدة الضخمة تحمل القبوات المستديرة تبدو وراءها الدرجات الحجرية العريضة المؤدية إلى الأزقة الضيقة .

ووقف الترام فى إحدى المحطات فى الشارع الطويل .

وهتف الكمسارى ينبه فلاحا أغفى على مقعده .

— وش البركة .. يا حضرة .

وصاح الرجل مفيقا من إغفاءته :

— هنا ؟

— أجل .

وهرول هابطا من الترام يتلفت حوله فى قلق وارتياب !

وأطلق الكمسارى زمارته فى شبه زغرودة وصاح السائق ضاحكا :

— يا للا يا ابو حميد .. باين عليه غشيم قوى .. إن شاء الله حايلطشوا منه الجلابية والبلغة .

والتفتت سيدة حولها فى حذر .

إذن هذه هى وجه البركة .. التى كان يذهب إليها عباس .. والتى قال لك ساخرا عندما نهرته عند حانوت اللبان فى شارع السد :

« الكيشة منك فى وش البركة بشلن » .

هنا إذن يفعلون هذه الأشياء المريبة التى كان يفعلها معها عباس .. والتى منّحها عن فعلها قرشا — بدا وقتذاك كثروة طائلة .

وذكرت مبيض النحاس .. ودلال ..

ولكن أين يفعلونها ؟..

لا شك داخل هذه البيوت ..

ولكن هذه البيوت تبدو كبيوت الناس الطيبين .. وبها دكاكين بقالة وجزارة .. وحلوى .. وأشياء أخرى من التى تباع وتشترى .

إذن أين يفعلونها ؟..

داخل هذه الأزقة ولا شك ..

ولمح فى آخر الدرجات المؤدية إلى أحد الأزقة .. امرأة سمينة تجلس على البسطة وقد ارتدت ثوبا رقيقا لا يحجب شيئا من معالم جسدها المبعثر بلا ثياب داخلية تلمه .. ومدت ساقيها العاريتين المكتنزتين مفتوحتين فوق درجات السلم .

هذه لا بد أن تكون إحداهن يا سيدة .. فهى تبدو كبضاعة مرصوصة أمام حانوت .. تعلن عما به من أصناف طيبة .

— ولكن لماذا تجلس فى هذه الساعة المبكرة .. من النهار ؟.. أم لعلها فى ساعة متأخرة من الليل ؟

وهل هذه الكبشة منها بشلن ؟..

بل هل يمكن أن يكون هناك كبشة من هذه بأكملها ..

وتحرك الترام وتباعدت المرأة القابعة على باب الزقاق .

و لم يفت حمدى أن يلقى عليها نظرة .. ولكنها كانت خاطفة بحيث لا يمسكه أحد متلبسا بها .

وسأل نفسه كما تساءلت سيدة :

هذه إذن هى وش البركة التى حدثه عنها أصحابه ..

والتى يأتى إليها صبحى مع شلة الكرة .. كل يوم خميس عقب الماتش .. للترفيه عن أنفسهم عند الفوز .. وللعزاء وللسلوى .. عند الهزيمة .

هذه هى وش البركة .. التى استقر فيها كابتن الكرة .. بعد أن لضم مع

إحداهن .. وفضلها على الدراسة .. بعد أن وجدها .. أربح وأمتع .

هذه هى وش البركة.. التى اتهمه أصحابه بأنه غشيم.. لأن قدميه لم تطآ أزقتها.. المليئة ببيوت النساء والحانات والمقاهى.. دنيا حافلة صاخبة يتعرى فيها الناس من طلائهم البراق وقشرتهم الزاهية.. ويطلقون الإنسان البدائى فى بطونهم على سجيته عابثا صاخبا راقصا قويا مستضعفا.. يخرجون من جوفهم كل المتناقضات العجيبة التى تضمها.. الحب والكراهية والتعالى والمذلة... و... و...

وعبر الترام الشارع الطويل بأزقته .. ذات الدرجات والأسرار .. والأجساد المبعثرة والسيقان الممدودة العارية .. وطويت صورته من ذهن حمدى كما طويت من ذهن سيدة .. أما الباقون فلم يكن يعنى فى أذهانهم شيئا .. ولا يثير من الخيالات أكثر مما يثيره أى شارع سواه .

ووصل الترام إلى العتبة الخضراء وهبط حمدى يجر السلال واحدا بعد واحد .. يرصها متجاورة على رصيف المحطة . ثم أخذ يساعد أمه وعمته على النزول .

واستقرت الأسرة بسلال القرص والمنين والبلح الأبريمى فى العتبة الخضراء وكانت أشعة الشمس قد تصاعدت من وراء الأفق حمراء رقيقة تمسح جدران البيوت وأطراف الشجر .

وحمل حمدى سلته وتناول باليد الأخرى سلة سميحة وهو يتجه إلى عربة سوارس الخشبية الصفراء التى كتب على جانبها بالخط الفارسى العريض « الصبان » وشد فيها حصانان هزيلان يضربان أسفلت الطريق بحوافرهما الأمامية قلقا .. ويملآن الأرض روثا .

ووضع حمدى السلال فى العربة وعاون أمه وعمته على الصعود وتبعتهما سميحة ثم سيدة واتخذ الأربعة مجلسهم على المقاعد الأربعة الخالية فى العربة المزدحمة ووقف حمدى مستندا إلى أحد أعمدة العربة .

ونهضت سيدة من مقعدها هاتفة بحمدى :

— اتفضل اقعد يا سى حمدى .

وزجرها حمدى فى حزم قائلا :

— اقعدى انت ..

— مش ممكن أقعد وانت واقف .

— قلت لك اقعدى .. وبلاش زيطة ..

وجلست سيدة ..

لتكن سيدة .. ما دام يأبى سيدها العزيز إلا أن يعاملها كسيدة .

وشقت عربة السوارس شارع الموسكى يقف سائقها فى مقدمتها بالكرباج فى يده يستحث بطرقعته الخيل أو ينبه به المارة .

سارت العربة تهتز وتتأرجح فى الشارع الضيق المزدحم . ولم تمض بضع دقائق حتى تشابك الجالسون فى الحديث كأنهم معرفة قديمة .

بدأت إحداهن الحديث بقولها ببساطة :

— النهاردة باينه طالع حر ..

ولم تكن توجه الحديث إلى أحد بعينه فقد كانت وحيدة .. صعدت وحدها .. وجلست وحدها . ولكن حديثها بدا موجها للجميع وكأنها تعرف الجميع .

وردت عليها سيدة تجلس فى مواجهتها .

— زحمة النيل .. رطوبة وحر ..

وتدخل رجل يلبس جلبابا وجاكتة .

— يقولون الفيضان هذا العام شديد .. والنيل عالى ..

ولم يجبه أحد ولكن امرأة تلبس الملاءة وتحمل طفلا على كتفها صاحت متسائلة :

— أمال يا اولاد امتى جبر البحر ؟

وأجابها الرجل ذو الجلباب والجاكتة :

— بعد كام يوم ..

وسألت فتاة صغيرة أمها الجالسة بجوارها :

— حانتفرج على الصواريخ يا ام ؟.

— أيوه .

— من أين ؟

— من فوق السطح .

— لماذا لا نذهب إلى البحر ؟

— زحمة .. وليس لنا أحد هناك .

وهتفت المرأة التى تحمل الطفل :

— اتفضلى عندنا يا اختى .. أنا جوزى صاحب قهوة فم الخليج .. المعلم أبو سريع .

ورد الرجل ذو الجلباب والجاكتة :

— دا صاحبى .. راجل سكرة .. أمانة تسلملى عليه .

وبدا للعمة أن تشارك فى الحديث .. فقد تعذر عليها أن تظل محتفظة بلسانها ساكنا بين شدقيها . وقالت بلهجة العارف :

— قهوة أبو سريع فى عمارة شخاشيرى .

وردت عليها زوجة القهوجى :

— لا وانت الصادقة .. عمارة شخاشيرى .. فوق قهوة أبو سريع.القهوة اتوجدت قبل العمارة .

وبدا الخجل على وجه حمدى .. وهو يجد عمته تخوض فى الجدل قائلة :

— القهوة تبقى قبل العمارة ازاى بقى ؟.

وأجابتها المرأة فى ثقة :

— القهوة كانت موجودة فى حتة الأرض قبل ما تتبنى العمارة .. وبعدين لما اتبنت .. نقل أبو سريع عدته فى الدكان اللى فيها ..

— اللى أعرفه . إنه كان فيه أجزخانة قبل القهوة .. عمتى صلوحة طول عمرها ساكنة هناك ..

— أبو سريع هناك قبل شخاشيرى وقبل عمتك صلوحة .

وتدخل الكمسارى قائلا :

— يا جماعة فضوها سيرة بقى .. أبو سريع واللا شخاشيرى .. آهو كله محصل بعضه .

وكانت العربة قد وصلت إلى الدراسة . وتوقفت قبل تلال الشقافة التى تشرف على البيوت الواطئة الواقعة فى آخر الدراسة .

وبدأت العربة تفرغ حمولتها التى ركبتها على غير معرفة .. وغادرتها وقد توطدت بينهم أواصر الصداقة . ولم يبق عند أحد منهم سر لم يبح به .. وتبادلوا جميعا النصائح والاستشارات الطبية . من شيح ولبان دكر وبابونج .. وكافور .

وبدأت الأسرة المرحلة الأخيرة من الرحلة .. وهى أشقها .. مشوار طويل وسط التلال المتربة من الدراسة إلى قطع المرة .. إلى باب الوزير إلى الغفير ..

وعلى جانب الطريق أقفاص رص عليها سعف النخيل وزهور الزنيا والقطيفة .. وخليط من فروع خضراء لأشجار الفلفل .

وحمل حمدى فى يده الخالية صحبة منها بعد أن نقد البائعة بضعة ملاليم .

وواصل السير يتقدم ركب الأسرة فى الأرض المتربة .

وكانت فاطمة طوال الرحلة صامتة شاردة النظرات .. لم تشغلها أحاديث العربة .. ولا ثرثرة العمة .. عن صورة تلتصق بناظرها وتحجب عنها كل ما عداها ..

صورة سى محمد .. بجسده القوى وصوته العالى .. بمزاحه .. وانطلاقه فى الحياة .. يعب منها بلا مبالاة وبلا إحساس بمسئولية . إلا أن يسعد ويسعد غيره .. فى هذه اللحظة التى يحياها .

ثم صورته .. عائدا فى تلك الليلة السوداء .. مترنح الجسد مثقل الجفنين

ورقدته الطويلة فى الفراش بلا كلمة ولا حركة .. ثم خرجته بغير عودة .

وبدأت الدموع تنهمر من مآقيها عندما لاح لها طريق المقبرة بعد أن عبرت الشارع ودخلت فى الزقاق الضيق تقوم على جوانبه شواهد المقابر يعلوها الصبار المتسلق .

الوحيدة التى لم تجف مآقيها منذ موت المرحوم هى فاطمة .

أضحى البكاء عندها عادة .. تجلس جلستها المعتادة متربعة على الأريكة فى الصالة ثم تضع يدها على خدها .. وينساب الدمع من عينيها فى صمت .

وفى أول الأمر كانت سميحة تشاركها البكاء وحمدى ينهاها عنه ولكن طول المدة جعل كلا منهما يسلم بدموعها ويشعر أن هذا قد بات الشكل الطبيعى لها بعد وفاة أبيهما .. تماما كهذه الأغطية السوداء التى كست بها أثاث البيت وأبت أن ترفعها رغم إلحاح الأقارب عليها بعد مرور السنوية الأولى .

ووصل الجميع إلى المقبرة .. وأقبل للقائهم عم إبراهيم التربى بقامته الطويلة وجلبابه المخطط والعمامة البالية المتربة .

وحيا الجميع فى رقة وبشاشة .

— أهلا وسهلا .. الحوش جاهز ..

وفتح الباب الخشبى فأحدث فتحه صريرا ..

وبدت الشواهد الثلاثة التى حوتها المقبرة وقد أحاطت به بعض أصص الصبار . ونقش على رخام أحد الشواهد بخط معقد « هنا ترقد السيدة زينب هانم خاتون توفت عام ١٣١٢ هجرية » .

وفرشت بعض الحصائر حول أحد الشواهد فوق الأرض المتربة ورصت المقاعد فى مدخل الفناء وخارجه .

ولم تكد الأسرة تستقر بالسلال .. حتى اندفع جمع من الصبية والفتيات يطلبون الرحمة . وبضعة رجال .. غبر الوجوه بين أكرش وأعجف يقتحمون

فناء المقبرة .. فى ثقة كأنهم أصحاب بيت وقد خلعوا نعالهم واستقروا فوق إحدى الحصائر وأخذوا فى القراءة بغير استئذان .. رحمة ونور على أرواح الموتى ..

وتتابعت أصواتهم فى نشاز مفزع .. وأخذوا يتبادلون القراءة .. كأنهم فى سباق التتابع يتناول كل منهم آخر الجملة من صاحبه ليلحم بها أول جملته ثم يظل يقرض الكلام بسرعة كأنه فأر يقرض لوحا من الخشب حتى يتناوله منه صاحبه فيلهف الكلمات كما يلهف المتسابق الراية من المتسابق الذى وصل إليه .

ووسط كل هذه الضجة .. واستغراق الأم فى البكاء بجوار المقبرة . والتصاق ابنتها بها تشاركها البكاء وتربت يدها بين آونة وأخرى وتهمس بها فى رفق وهى تشاركها البكاء :

ـــ كفاية يا نينة كفاية بقى .

وحمدى يجلس على أحد المقاعد محنى الظهر يدفن رأسه بين كفيه ..

فى هذا الميدان العجيب الذى اختلطت فيه الدموع بصيحات الصبية والفتيات يطلبون نصيبهم من الرحمة .. والفقهاء يتبادلون كلمات القراءة كأنها بينهم الكرة الطائرة .

وسط هذا الجو العجيب .. وصبى الترب يحمل القربة على ظهره ليرش الأرض بالمياه ..

لم يكن هناك من يستطيع السيطرة على هذا الخليط العجيب سوى العمة .. ومعها سيدة ..

دفعت العمة مظاهرة الصبية والفتيات إلى خارج المدفن قائلة لهم كقائدة طابور عسكرى :

ـــ بنظام منك له .. وإلا مفيش لقمة حاتتفرق .

ثم وجهت نظرة قاسية إلى الفقهاء الذين يعدون بآيات الله .. كأنهم يخشون

من يخطفها من شفاههم ..

وقالت فى حزم :

ـــ إهدا شوية منك له .. ملحوقين على إيه ؟.. اللى فيه القسمة وحاتاخدوه .. لزومها إيه الكلفتة ؟.. ده حتى ما يرضيش ربنا ..

وهدأ الفقهاء من سرعة قراءتهم ..

أما نشاز أصواتهم فلم يكن لهم قدرة على إصلاحه ..

وأخيرا وزعت الرحمة .. وسكبت الدموع .. وأخذ الفقهاء بضع قرص .. وكبشة بلح أبريمى .. نظير كلمات الله التى أطلقوها فى سرعة البرق .

وحضر الجد وأولاد العمة .. وبقية الأقارب .

وبعد أن جفت الدموع .. وقرئت الفاتحة بدأت الأحاديث ذات الشجون .. وتحدثت الأسرة فى مشاكل الحياة .. وقال الجد إنه يجب إصلاح المقبرة لأنها أضحت أنقاضا .. ثم أخذ يلوم إبراهيم التربى النصاب لأنه اقتطع منها قطعة أرض فى المدخل وباعها لإحدى الأسر بنت عليها مقبرتها ثم ادعى أنه عوضهم ببناء قبر آخر داخل فناء المقبرة ..

نصب .. واحتيال .. حتى فى مقابر الموتى .

وأخذ حمدى ينصت إلى الأحاديث الدائرة ..

وبدأ ذهنه هو الآخر ينطلق فى سبيله ..

إنه يوشك أن يخطو فى حياته إلى مرحلة جديدة .. فهو يستعد للحصول على البكالوريا وبعد ذلك عليه أن يختار الكلية التى سيدرس فيها فى الجامعة ..

ورءوف صاحبه يغريه بالحقوق .. وصبحى يغريه بالحربية .. وهو لا يحس أن هناك شيئا يجذبه .. لأنه لا يبصر فى نهاية الطريق شيئا يتطلع إليه .

ووقفت سيدة تلم السلال الفارغة .

وانطلق ذهنها هى الأخرى فى سبيله .

إن علام بائع الكازوزة ما زال يغريها بعرض الزواج .. إنه يحاول أن يمنحها الطريق الخاص والحياة المستقلة .

أتراه جادا فيما يقول .. أم هى مجرد محاولة للتغرير بها ؟

وهى حائرة .. هل تقول له نعم ؟..

وإذا قالت نعم .. فكيف السبيل إليها ؟..

وبدأت الأسرة الاستعداد للعودة .. بعد أن وزعت الرحمة والدموع وتبادلت المشاكل والشجون .

(٢٢)

صاحبة ثروة ..

ختم الشيخ معوض قراءته .. وانفض الغرباء من المعزين وبقى الأهل والأصدقاء والمقربون لتناول العشاء . وضمتهم بعد ذلك حلقات طرحت فيها المشاكل واختلطت الدموع بالبسمات والزفرات والتنهدات بالضحكات .. وروى الأهل الأخبار .. وتبادلوا النصائح والاستشارات .

خديجة ابنة العمة الكبرى قد جاءها عريس يعمل معاون إدارة فى الصعيد وانطلقت تعليقات الأسرة :

— ماذا يكرهها على الغربة ؟..

— العريس مقتدر .. لماذا لا تذهب معه ؟.. كلنا اتغربنا فى شبابنا .

— المهم أنه يكون طيبا وابن حلال .

ورد الجد على التعليق يقول :

— ابن حلال مصفى . أعرف أسرته كلها .. أبوه الحاج متولى كان جارى فى الغورية .. وهو من تجار الأحذية المليانين .. ورجل طيب لا يخطىء فى حق أحد .

وتطاير سؤال طائش :

— هو أبوه جزمجى ؟

ورد الجد فى دهشة :

— وماله .. ما احنا بتوع مانيفاتورة .. هى التجارة عيب ؟

ورد السائل معتذرا :

— لا أقصد إساءة .. ولكنى أسأل فقط ..

وردت العمة :

— وزوج خالته .. الحاج عبده العطار .. له وكالة تحت الربع ..

ورد صوت يساهم فى المناقشة :

— على بركة الله .. الزواج كورقة اليانصيب .. قسمة ..

— ربنا يوفقها .

وفى شلة البنات التى ضمت سميحة وخديجة والصغيرة كوثر وبعض بنات الأسرة . تساءلت سميحة هامسة :

— هل يعجبك يا خديجة ؟..

وبدا الحياء على وجه خديجة وقالت :

— لم أجلس معه سوى مرة واحدة .. وإن كنت قد رأيته من بعيد بضع مرات .. يبدو عليه أنه طيب وأمير ..

وتساءلت سميحة :

— ما شكله ؟

وأجابت كوثر :

— أسمر وذقنه تشك .

وضحكت البنات .. وتساءلت إحداهن :

— أسمر وعرفناها .. ولكن ذقنه تشك .. كيف عرفت ؟

وأجابت كوثر ببساطة :

— كل ما يزورنا يحملنى ويقبلنى .. ويشكنى بذقنه .

وردت إحدى الفتيات ضاحكة :

— إذن فكوثر أدرى به منك يا خديجة .

وانتقل الحديث من زواج خديجة إلى مدارس الأولاد .

عماد ابن العمة قد رسب . وهو يريد أن يدخل البحرية التجارية .. لأنها لا تحتاج إلى بكالوريا .. والكل ينصحونه بأن يستمر فى دراسته .. لأنه بغير

بكالوريا لا يستطيع أن يكمل دراسته العالية ويحصل على الليسانس ويصبح مهندسا أو طبيبا أو موظفا محترما .

وتطايرت التعليقات :

— يعنى حا يبقى إيه فى البحرية التجارية ؟

ورد عماد :

— سأصير ضابطا بحارا .. ومن يدرى ربما أصبحت كابتن مركب .

ورد عليه الجد ببساطة :

— اتلهى .

وأجابت العمة :

— وتبقى طول عمرك متغرب .

— ولماذا لا تكمل دراستك ؟..

— وما الفائدة من التكملة .. ماذا سأصبح ؟

— تأخذ الليسانس .

— ولما آخذ الليسانس .. حا اجيب الديب من ديله ؟

ورد الجد محاولا إنهاء الموضوع :

— ادخل ما تريد .. طول عمرك مخك ضلم ..

وانتقل الحديث إلى حمدى ودراسته .

وسأل أحد الأقرباء :

— وأنت يا حمدى ماذا ستفعل ؟

ورد حمدى فى غير اكتراث :

— أى شىء .

— مثل ماذا ؟

— كله محصل بعضه .

ورد عماد متسائلا :

— لماذا لا تدخل الحربية أو البوليس ؟

— ومن أين لنا بالواسطة ؟

— نجرب .

إنهما يوفران مصروفات سنة .. والوظيفة مضمونة ..

وزفر حمدى زفرة قصيرة .. وانطلق ذهنه يتجول حزينا يائسا فى دروب مستقبله .. بات مستقبلك يا حمدى معلقا بقدرتك على دفع المصروفات .. والقدرة محدودة .. واحتياجات المعيشة تضيق عليكم الخناق .. والمجانية التى أمكن تدبيرها فى سنوات التعليم الثانوى قد انتهت .. وأصبح على الساحر الذى يدبر المعيشة بالجنيهات المعدودة .. أن يدبر أمر مصروفات الدراسة العليا .. أو تتوظف بالبكالوريا .. لتقضى عمرك موظفا منسيا وسط ملفات الأرشيف بين دروب المصالح الحكومية الرطبة المظلمة .

ملكية جديدة توشك أن تنتزع منك يا حمدى .

إحدى الملكيات الموهومة . ملكية الآمال المشرقة فى طريق المستقبل المزهر ..

... تنير حياتنا وتبدد ظلمات الضيق واليأس التى تحيط بنا .

الملكية الأخيرة التى بقيت .. فى زوايا نفسك .. توشك أن تنتزع ..

العزاء الذى منحته لك صفاء .. وهى تنفلت من طريق حياتك .. بأنك ستكون عظيما .. أصبح نوعا من السخريات .

عظيما .. كيف ؟! واستمرار دراستك قد أصبح يشكل عبئا على أكتاف الآخرين .. أمك الحبيبة .. وأختك الرقيقة العزيزة .

بدل أن تتحمل أنت عبئهم .. وتريح أمك من عناء التوفير والتدبير .. وتعد أختك .. لحياتها القادمة .. لتكون زوجة كما توشك أن تصبح ابنة عمتها خديجة .. وكما أصبحت صفاء .

بدل أن تتحمل أنت عبئهم .. ستجعلهم يتحملون عبئك .. أربع سنوات

طوالا حتى تتخرج .. وتصبح إنسانا قادرا على إعالتهم .

واستمرت التعليقات تتطاير عن مستقبله وهو مصغ فى صمت .. ودارت المناقشة حول أى مدرسة عليا ممكن أن توفر المصروفات وتمنحه وظيفة مضمونة فى أقل مدة دراسية ممكنة .

كان ذلك هو أسلوب التفكير فى مستقبله .

وهم هو بأن يعلن فى حزم أنه سيتوظف بالبكالوريا .

ولكن الجد كان أسرع منه إلى الرد على التعليقات عندما قال فى صوت حزين وهو ينقر بعصاه على الأرض :

— حمدى سيكمل دراسته كما يريد .. كان محمد يقول عنه .. سيكون ذا شأن .. ومات قبل أن يجيء له ما يأمل فيه .. ولن أترك الأمل يذوى .. سأفعل من أجله كل ما أستطيع .

وصمت الجد لحظة ثم أطلق تنهيدة طويلة وقال ضاحكا :

— نحن لم نشحت بعد .

وقالت الأم داعية :

— ربنا يعطيك طولة العمر .

ورد الجد فى سخرية :

— لقد سئمت طوله يا فاطمة .. ربنا يريحنا .

ونظر حمدى إلى جده نظرة حب وحمد . وملأه إحساس بالارتياح .. ليس الطريق مظلما كما بدا .. إنه يستطيع أن يواصل السير .

وأخيرا انفض لقاء الأسرة .

وقبل أن تأوى فاطمة إلى مضجعها نادت سيدة .

وأقبلت سيدة تسأل الأم عما تريد .

وقالت الأم وهى تجلس على طرف الفراش :

— اقعدى يا سيدة .

وجلست سيدة بجوارها .

ومدت الأم يدها وفتحت درج الكومودينو ثم أخرجت منه لفافة فتحتها وأخرجت منها بضع غوايش ذهبية ثم قالت لسيدة :

ـــ هذه الغوايش كنت قد أوصيت سيدك الكبير على شرائها من الصاغة .. لقد أعطيته كل ما تجمع من مرتبك منذ أن اشتريت لك الحلق .. وقد أحضرها اليوم معه .. كان يجب أن أشتريها لك قبل الآن .. ولكن الظروف العسيرة اضطرتني أن أسدد بنقودك بعض احتياجاتنا .. ولكن ربنا فرجها أخيرا .. فقلت لنفسي أخلصك قبل زنقة أخرى .

وأمسكت سيدة بالغوايش .. تتنازعها عدة مشاعر .

أضحيت صاحبة ثروة يا سيدة .. لا تملك مثلها أم عباس ولا دلال .. ولا أحد ممن تحكم فيك وبسط عليك سلطانه وفرض سيادته .

تستطيعين يا سيدة أن تخرجي وحدك .. لتواجهي الحياة .. دون إحساس بالضياع .

تستطيعين أن تسلكي طريقك الخاص .. وتفرضي إرادتك وتختاري حياتك .

ولكن أية حياة يمكن أن تكون خيرا من حياتك مع هؤلاء الناس الطيبين .. الذين بت واحدة منهم .. شاركتهم سراءهم .. وتشاركينهم ما يلاقونه من ضراء .

سميحة الرقيقة الطيبة التى تعجز شفتاها عن إطلاق اللفظ الجارح ، أو الكلمة النابية .. التى لا تملك مواجهة الشر إلا بالانطواء ولا تقدر على رد الأذى بغير الدموع .. والتى لم تشعرك بأنها سيدة .. إلا برقتها وطيبتها وخلقها الكريم .

وهذه السيدة العجيبة التى أقامت بناء هذه الأسرة بعد أن انهارت دعامتها ووقفت فى حزم الرجال لتواصل السير رغم قسوة الصراع .. ومرارة الهزيمة .

وحمدى ! هذا الإنسان الرقيق مع الناس الصارم مع نفسه .. يواجه لطمات

القدر فى حزم وصبر وجلد .. ويعين الغير فى مصابه بكل ما يملك من حنان وحب ومودة أصيلة تنبع من ذاته .. يظلها بحمايته وحنوه .. على غير قصد منه .. وبغير تفضل .

هؤلاء .. ورجلهم الراحل الطيب الكريم .. قد هيأوا لك فى صحراء حياتك واحة .. استظللت فيها من هجير الضياع .

لماذا تريدين أن تسلخى نفسك منهم .. وتنزعى نفسك من حياتهم ؟.

لأنك تريدين أن تعيشى حياتك أنت .. لأنك تريدى أن تكونى حرة .. تواجهين الدنيا بإرادتك بكل ما فيها من مساوىء وحسنات .

تريدين أن تمارسى سلطاتك وسيادتك .

ولكن على من ؟.. على علام بائع الكازوزة .

أى إنسان .. ليكن من كان .. ما دام سيهيىء لها منطقة النفوذ .. ومجال السيادة .

ولكن هل حقيقة .. ستمارسين السلطان .. وتحققين السيادة .

و لم لا ؟..

إن مجرد خروجك من نطاق هذه الأسرة .. بإرادتك هو نوع من ممارسة السيادة ..

وقبولك لعلام بائع الكازوزة .. أو لغيره من الرجال .. كائنا من كان .. هو تحقيق لحريتك فى الاختيار . وإرادتك فى صياغة مستقبلك .

وعندما تتزوجينه يا سيدة ..

من يضمن لك السيادة والسلطان .

من يضمن لك .. ألا تدخلى فى منطقة نفوذ أخرى ..

من يضمن لك أن علام أو سواه هو الذى سيمارس سيادته عليك .

مهما كانت السيادة الجديدة .. فلن تحرمك من الاستقلال الذاتى .. ومن ممارسة السلطان فى دائرتك الصغرى .. فى بيتك .. وعلى أولادك .. إذا أنجبت

أولادا ..

وفتحت سيدة اللفافة وتحسست الغوايش .

وعادت الأفكار تطن فى رأسها .

هذه الغوايش لا شك قد كلفت السيدة غاليا .. إنها تحتاج لكل مليم .. تشهد على ذلك القروش التى توفرها من هنا ومن هناك .. والحرمان الذى تفرضه على نفسها وعلى الأسرة كلها من أقل مظهر للرفاهية ومن أبسط أشكال الترف والكماليات .. ومع ذلك فقد أخذت نفسها بحزم وصرامة لكى تجمع أجرها .. وتشترى لها به ما تراه نافعا لها فى أيامها القادمة .

ومدت سيدة يدها بالغوايش وهى تتمتم قائلة :

— إنى لست فى حاجة إلى شىء .. لقد عشت معكم كواحدة منكم .

وربتت السيدة على ظهرها وأجابتها فى عطف ورقة :

— هذا حقك يا سيدة .. ولقد بت فى حاجة إليه الآن أكثر منك فى أى وقت مضى ..

— ما دمت معكم فإنى لا أحتاج إلى شىء .

— ولكنك لن تبقى معنا إلى الأبد يا سيدة .. غدا ستتزوجين .. ويصبح لك بيتك وزوجك وأولادك .. ولا بد أن يكون لديك شىء تستعينين به على أيامك القادمة . إن العيش ليس سهلا يا سيدة .. غدا ستعرفين قسوة الحياة على حقيقتها عندما تواجهينها وحدك ..

— لقد واجهت قسوتها وأنا صغيرة .

— ستحسين بقسوتها أكثر عندما تواجهينها .. وأنت صاحبة مسئولية .. كما أواجهها الآن .. وكما كنت أواجهها دائما بإحساسى الخفى الذى كان يتوقع دائما .. هذه الأيام المريرة .

ومدت سيدة يدها مرة أخرى بالغوايش وهتفت بسيدتها :

— ومن أجل هذا لا أريد هذه الغوايش .. إنها قد تعينك يا سيدتى .

— إنها حقك .. ويجب أن تأخذيه .

— لقد أخذت حقى منكم .. حبا وعطفا .. طوال وجودى معك ..

— الإنسان لا يأكل حبا .. وعطفا يا سيدة .. الإنسان يأكل خبزا ..

ثم أردفت وقد علت شفتيها ابتسامة طيبة :

— ومع ذلك .. فلم تكن عشرتنا كلها حبا .. طالما ضربتك وقرصتك ونهرتك .

— كما تفعلين مع ست سميحة .

— لقد كنت دائما كسميحة .

— إذن لماذا لا تعاملينني مثلها ؟

— إن سميحة حبيبتى مشكلتها أعوص. إن على أن أدبر لها من الآن قيمة الجهاز، لقد حوشت من أيام المرحوم بعضه ولا بد أن أدبر بقيته ..

— ربنا يرزقها بابن الحلال الذى يستحقها .

— وأنت أيضا يا سيدة .. ربنا يوفقك إلى من يصونك ويحرص على راحتك. ليس هناك نعمة خير من الزوج الطيب ..

واتجه ذهن سيدة رأسا .. إلى علام .

أترى يمكن أن يكون هو الزوج الطيب الذى يهيىء لها البيت ويكفل لها الراحة ؟.. لا تعرف .. .

إنها لا تعرف ما له .. وما عليه ..

ولكنها تعرف أنه هو الوحيد .. الذى تقدم إليها .. يمهد لها الطريق الخاص ، ويعرض عليها منطقة النفوذ التى يمكن أن تمارس فيها سيادتها ..

وهو شكلا كبقية الرجال .. ليس به ما ينفر .. وليس به ما يجذب .

وقد يمتاز عنهم .. بأن رغبته فيها وإعجابه بها .. لم تكن طيارى .. بل كانت مصحوبة بعرض جاد للزواج ..

أما لماذا .. عرض الزواج ؟.. فأمر قد يدعو إلى التساؤل .

أهي رغبته فيها .. التى دفعته إلى ذلك .. باعتبار الزواج .. هو أضمن وأسهل طريق للحصول عليها .

ولكن أهو حقيقة أضمن .. وأسهل طريق .. للحصول على امرأة .. من ناحية .. أضمن .. فأجل .

أما أسهل فتتوقف على المقارنة بين ما يمكن أن يكلفه الحصول على ما يريد .. بطريق الزواج .. وبين ما يكلفه إياه .. إذا ما سلك غيره من الطرق .

مثلا .. عباس .. كلفه ما يريد الحصول عليه فى أيام مضت .. قرشا ..

وقد كان بالنسبة لها حينذاك .. مبلغا .. فوق التصور .

وإن كان بالنسبة له .. أسهل كثيرا .. من الزواج .. لو كان متيسرا حينذاك .

أما بالنسبة لعلام فالأمر قد يختلف كثيرا .. فهو لا يعرف ماذا يمكن أن يكلفه ما يريد الحصول عليه .. بغير الزواج .. بل هو لا يعرف .. ما إذا كان ممكنا .. أو مستحيلا ..

وعلى ذلك فهو السبيل الأضمن .. أما ماذا يكلفه .. فأمر نسبى .. متوقف على ما ينوى أن يفعله .. وعما يملك من إمكانية فعله .

ولكن لماذا تشغلين رأسك يا سيدة بكل هذا ؟..

إذا كان الرجل قد اختار إليك طريق الزواج .

فما شأنك ترهقين رأسك بمحاولة استقصاء الأسباب ومعرفة المبررات ؟

وتناولت السيدة الغوايش وأعادتها إلى درج الكومودينو قائلة :

— سأحفظها لك معى .. خشية أن يلطشها منك أحد .. فأولاد الحرام كثيرون .

ترى هل يمكن أن يكون علام ؟.. من أولاد الحرام هؤلاء .. الذين يمكن أن يطمعوا فى الغوايش ؟

ولكنه لا يعرف أن عندها غوايش ؟

كيف لا يعرف !؟

إنه يعرف أن لها مرتبا .. وأن المرتب يتجمع وأن عندها قرطا ذهبيا .. وأن سيدتها ستشترى لها غوايش .

ولكن أتعنى معرفته لكل هذا أنه يغريها بالزواج حتى يلطش منها الحلى الذهبية ثم يتركها ؟

على أية حال يا سيدة .. يجب أن تكونى حريصة ..

إذا كان يطمع فى جسدك .. فلن تسلميه له قبل أن يدفع ثمنه زواجا .

إذا كان يطمع فى الحلى .. فلن يعرف الطريق إليها قبل أن يصبح زوجا لك .

إذا كان يظن أنك .. (هفية) .. وأنه يستطيع أن يضحك عليك .. ويستكردك .. فقد جاء نقبه على شونة .

ليس كل الطير الذى يؤكل لحمه .. يا سى علام ..

ونهضت سيدة تاركة الحجرة وملء نفسها الثقة ..

ولا مائة مثل علام .. يضحكون عليك يا سيدة .

ونامت سيدة فى تلك الليلة .. ملء أحلامها .. الدنيا الجديدة التى توشك أن تخوضها .. بالقرط فى أذنيها .. والغوايش فى يدها .. وبيت .. وعلام .. وأولاد .. وأشياء كثيرة مزدحمة متشابكة .

وتدافعت الأيام .. وأقبل الخريف من جديد .. بائع حمص الشام تتصاعد أنغامه مع أذان المغرب .. وأشعة الشمس الغاربة تنعكس وراء حقول الخبيزة المترامية .

وأعواد القصب تترنح أطرافها فى مهب النسيم .

وحمدى يجلس فى انتظار الرفاق يتوافدون للجلوس فى الشرفة الواطئة .. لا يعرفون طريق البيت من الباب بل يقبل كل منهم ليقف أسفل البيت ويمد يده إلى الواقف فى الشرفة ويضع قدمه على حافة سور الشرفة السفلى وبجذبة سريعة يقفز إلى السور ليتخطيه ثم يهبط منه إلى الداخل .

وضمت الجلسة رفاق المدرسة صلاح وحلمى وطلعت .

وبدأ الحديث عن مجلة المدرسة وفرقة التمثيل والمظاهرات ووزارة الوفد والمفاوضات والحب والمذاكرة والتجديف وتيم الهوكى وعلوى افندى مدرس الألعاب الرياضية ومباراة كرة القدم بين مدرسة شبرا ومدرسة التوفيقية .

وكان حمدى قد أخذ يندمج فى حياته الدراسية الجديدة .. واستطاع زملاؤه بعد عام من الفرقة والحزن أن يخرجوه من قوقعة يأسه وتمرده الصامت إلى صخب الحياة .. ولم تعد ممتلكاته العزيزة الضائعة تمثل لنفسه خنجرا يدميه كلما طاف بذهنه .. ويذكره بأن أجمل ما فى حياته قد راح بغير رجعة ويحيطه بجو خانق من اليأس يثقل أنفاسه ويحجب عنه أية بارقة يمكن أن تلوح بالأمل فى حياته .

بدأ حمدى يخرج من عزلته الحزينة التى سببها موت أبيه .. ثم فقد صفاء وينشغل بأشياء صغيرة .. وصلت بينه وبين الناس والحياة .. ولم يعد أبوه الراحل .. يجذبه بفقده إلى هوة من اليأس لا قرار لها .. بقدر ما أصبحت ذكراه الطيبة بكل ما تجسده من معانى المودة والحب والمرح والقوة والإقبال على الحياة .. تملؤه بالإيمان والأمل والصفاء والود للناس .

ولا أضحت صفاء .. تشده بفقدها إلى وهدة التمرد والضياع .. بقدر ما أضحت تمثل فى نفسه طيفا رقيقا .. يمر به ليمسح جبينه .. ويربت كفه فى رفق وحنان .. ويبدد من حوله ظلمة اليأس .

وجلس حمدى وسط أصحابه وقد اتكأ بكرسيه إلى الخلف ووضع قدميه على سور الشرفة .

وقال صلاح رئيس فرقة التمثيل فى المدرسة محاولا إقناع حمدى بالانضمام للفرقة :

— هذا العام سنمثل عطيل .. وسيدربنا جورج أبيض .. ما رأيك فى أن تشترك معنا منذ البداية ؟

وقال حلمى .. أو الشيخ حلمى كما تعودوا أن ينادوه :

— دعك من حمدى يا صلاح .. إنه يخجل من خياله .

— اتركه لى أنت وأنا سأقنعه .. ما رأيك يا حمدى ؟

— أنا أمثل ؟

— ولم لا ؟..

— ولماذا لا تأخذ الشيخ حلمى ؟

ورد صلاح فى اقتناع :

— ومن قال لك إنى لن آخذه ؟

والتفت طلعت وهو باك المدرسة فى كرة القدم .

— اسمع يا صلاح .. لكى تقنعنا بالانضمام إلى فرقة التمثيل .. قل لنا قطعة من عطيل ..

— متى ؟

— الآن .

— هنا فى الشرفة ؟

— ولم لا ؟

— هل تريد أن تلم الناس علينا ؟

— ما رأيك يا حمدى ؟

وأجاب حمدى ضاحكا :

— إذا أفلح فى لم الناس .. نرص الكراسى فى الشارع .. ونتنافس على الكسار فى روض الفرج .

وقال طلعت :

— هيا يا صلاح .

ورد الشيخ حلمى :

— عيب يا جماعة ما تفرجوش الناس علينا .

وقال طلعت محاولا استشارة صلاح :

— اتكسفنا ؟

ورد صلاح وهو ينهض من فوق الكرسى .

ويتراجع إلى الوراء قائلا :

— إن كان على الكسوف .. أنا ما انكسفش .. أنا أمثل فى أى مكان ..

— طب .. يا الله ابتدى .

واستند صلاح على سور الشرفة ثم مد ذراعه فجأة فى عنف صائحا بأعلى صوت :

— وراء .. وراء .. إليك عنى لقد مددتنى على خشب التعذيب .. أقسمت أنه خير للإنسان أن يخدع كثيرا من أن يعلم ..

وقبل أن يتم قوله اندفعت سيدة إلى الشرفة وهى تتساءل فى جزع وقد اصفر وجهها :

— خير يا سى حمدى ؟.. ستى بتسأل حصل حاجة بينكم ؟

وضحك طلعت وحمدى وهز الشيخ حلمى رأسه فى أسف قائلا :

— تعجبك هذه الفضائح ؟.. اجلس يا سى صلاح .. واعقل ..

وقال حمدى لسيدة :

— اذهبى ..

— وماذا أقول لسيدتى ؟

ورد طلعت ببساطة :

— قولى لها إن عطيل سيقتل ديدمونة .

ورد الشيخ حلمى :

— استمر فى مزاحك .. وودينا فى داهية ..

ونظر إلى سيدة قائلا :

— قولى لها إن صلاح كان يؤدى دورا تمثيليا .

وردت سيدة متسائلة :

— دورا تمثيليا ؟

وقال حمدى محاولا أن يصرفها :

— اذهبى وقولى لها .. لا تهتم كثيرا بما يحدث هنا .. لتعتبر هذه الشرفة خارج البيت ..

وقال طلعت مؤكدا :

— أجل .. لتعتبرها مكانا للمجانين .

وخرجت سيدة ونهض صلاح عن مقعده قائلا :

— ما رأيكم فى أن نذهب لنأكل جلاس من الرجل الذى عند الناصية ؟.

وأحس حمدى بفزع من سيرة الجلاس .

كان يعرف أن الجلاس يحتاج إلى قرش .. وكان يعرف أن القرش لا يجد طريقه إلى جيبه بسهولة ..

ورغم أنه كان واثقا أنه يمكن لأى من الأصدقاء أن يدفع عنه .. بل كان واثقا من أن أحدا منهم لا بد أن يدفع للجميع .. ولكنه كان يكره أن يذهب إلى هناك بغير قرش فى جيبه .. يطمئن إليه .

كان يسأل نفسه :

— هب أن أحدا منهم لم يعزم بالدفع .. ماذا يفعل ؟.. هل يطلب من أحدهم أن يدفع له ؟.. ولماذا أتى ليأكل الجلاس إذا لم يكن يملك ثمنه ؟..

إن أحدا لن يسأله هذا السؤال المحرج .. ولكنه هو سأل نفسه ..

وهم الأصدقاء بالقفز من الشرفة ولكن حمدى استوقفهم قائلا :

— لا .. لا .. لا داعى للجلاس .

وسأل الشيخ حلمى :

— لماذا ؟

— مشوار والوقت متأخر .

ورد طلعت قائلا :

ـــ يا أخى .. لا تكن كسولا .. هيا ..

وعاد حمدى يدفع بسبب آخر :

ـــ لا أستطيع أن آكل جلاس .. لأن معدتى متعبة .

ـــ إذن تعال معنا ولا تأكل .

وقال الشيخ حلمى :

ـــ ما دام لا يريد أن يأكل فلا داعى للذهاب .. دعونا نتم سهرتنا هنا .. نستذكر ثم نتعشى .

وقال طلعت :

ـــ فكرة طيبة ما رأيك يا أبو حميد ؟

ومرة أخرى أسقط فى يد حمدى ..

لا يعرف ماذا يوجد من بقايا الغداء ؟.. ولا كيف ستكون وقع الدعوة على والدته ؟.. ولكنه لم يجد مفرا من التسليم قائلا :

ـــ إذا كنتم على استعداد لأن تأكلوا أى شىء .. فأنا على استعداد لأن أعشيكم .

وصاح الشيخ حلمى :

ـــ اتفقنا إذن .. أدخلنى أنا المطبخ .. واترك الأمر لى .

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب .

وأقبلت سيدة مرة أخرى وأشارت لحمدى قائلة :

ـــ كلم .

ونهض حمدى من بين أصحابه .. فوجد أمه وأخته ترتديان ثياب الخروج .. وقالت الأم .

ـــ سنذهب إلى بيت جدك .. صحة عمتك متوعكة وسنذهب لنطل عليها . هل تريد شيئا ؟

وتردد حمدى برهة ثم قال متسائلا :

ـــ هل عندنا شىء للعشاء ؟

ـــ عندنا بقية الملوخية والرز .

وتردد حمدى مرة أخرى قبل أن يقول :

ـــ الجماعة سيتناولون العشاء معى .

وضربت الأم بيدها على صدرها فى جزع :

ـــ يا ندامة .. إن الملوخية والأرز ليس بجانبهما شىء .. لقد أكلنا الأرانب كلها فى الغداء ..

ـــ لا ضرورة للأرانب .

ـــ هل تريد أن تفضحنا مع أصحابك ؟

ـــ يا نينة ليس هناك فضيحة .. يكفيهم جدا الأرز والملوخية .

ونظرت الأم إلى سيدة قائلة وهى تخرج من كيس نقودها قرشين :

ـــ إذن اذهبى يا سيدة واشترى بيضا نقليه لهم بجوار الأكل الموجود .

وأمسك حمدى بيد أمه قائلا فى إصرار وهو يعرف جيدا قيمة القرشين عندها :

ـــ لا داعى لأى شىء .. اذهبى أنت إلى جدى واتركى لى الأمر ..

ونظرت الأم إلى سيدة قائلة ؟

ـــ عندما يطلبون العشاء يا سيدة .. سخنى حلة الملوخية .. ثم ضعى الصفيحة على الوابور قبل أن تضعى عليه حلة الرز .. وعندك طرشى من الغداء ..

ولم تبد المائدة مقنعة للأم فعادت تتمتم :

ـــ يادى الفضايح .

ونظرت إليها سيدة فى تعجب .

.. هذه الأم يا سيدة .. مخلوقة عجيبة حقا ..

مع كل التدبير الذى تضغط به المصروف .. تجزع من دعوة عشاء يقدمها

ابنها لأصحابه .. ليس لأنها ستكلفها شيئا بل لخوفها ألا تسترابنها مع أصحابه ..

وقبل أن تتجه إلى الباب قالت سميحة :

— أنتظر أنا لأعد العشاء وتذهب معك سيدة ؟

وردت سيدة :

— وهل سأعجز أنا عن إعداد العشاء ؟

وخرجت الأم وسميحة متجهتين لبيت الجد .

وعاد حمدى إلى الشرفة ليجلس مع أصدقائه .. ولمحت الشلة الأم والابنة تغادران الدار .

وهتف طلعت :

— يا أبو صلاح .. الجو خلى .. قم وأرنا كيف قتل عطيل ديدمونة ؟

وهز صلاح رأسه قائلا :

— خلاص .. نفسى انسدت عن التمثيل .. المسألة تحتاج إلى اندماج .. ولسنا على استعداد له .

وقال الشيخ حلمى :

— نبدأ الاستذكار .

— ما زال الوقت مبكرا .. أمامنا السنة طويلة .. دعونا نفكر .. كيف نخرج مجلة المدرسة .. لقد أسند إلى رئاسة تحريرها هذا العام .. ماذا ستفعل لنا فيها يا حمدى ؟

— كل ما تريدون .

— لقد كتبت قصيدة وطنية .. وسأقول ..

وقاطعه حمدى قائلا :

— قل لنا القصيدة التى قلتها فى عبد المجيد افندى .

وقال طلعت :

— قل لنا أولا .. القصيدة التى قلتها فى زكية المربربة .

والتفت صلاح إلى حمدى قائلا :

— أنا مستعد أقول قصيدة فى سيدة المربربة .

ورد عليه حمدى ناهرا :

— اختشى يا صلاح .. عيب .

وأجاب طلعت :

— استمر هكذا فى الاختشا والعيب .. حتى يضيع عمرك .. هل تأتى معنا يوم الخميس ؟

وتساءل حمدى :

— إلى أين ؟

— إلى بيت دلال ..

وكانت سيدة قد أقبلت إلى الشرفة وسمعت الجزء الأخير من الحديث .

وأحس حمدى بالحرج أمام سيدة وسألها قائلا :

— ماذا تريدين ؟

— هل أسخن العشاء ؟

— لا .. سنخبرك عندما نريده .

وفهمت سيدة أن هذا الأمر بألا تعود إلا إذا طلبت .

وعادت سيدة إلى المطبخ وهى تسائل نفسها عن بيت دلال .

بيت يذهبون إليه كل يوم خميس .. ويدعون حمدى للذهاب معهم .. ويشعر حمدى بالحرج .. عندما تصل هى .. خلال توجيه الدعوة .

من تكون دلال .. صاحبة البيت الذى يذهبون إليه كل يوم خميس ؟

— أيمكن أن تكون هى ؟!! زوجة أبيها .. المُلعب . التى تسرب من حجرتها مبيض النحاس .. ليلة وفاة أبيها ؟

أيمكن أن تكون قد أصبحت صاحبة بيت .. يذهب إليه هؤلاء الصغار ؟

أى بيت هذا الذى تقتنيه دلال ؟

لا يمكن أن يكون بيتا ككل البيوت التى تراها فى الطرقات .

بل أغلب الظن .. بعد أن سمعت من مبيض النحاس عن بيت أم دلال فوق دحديرة المدبح الذى كان يذهب إليه بعد أن ضربته الهجانة وهو يمارس العيب فى إحدى حفرات تلال زينهم .

أغلب الظن أنه بيت كبيت أم دلال .

ولكن هل يذهب الصغار النظاف إلى بيت بدحديرة المدبح ؟

لا بد أن يكون لدلال بيت فى مكان أفضل .

ربما فى هذا الشارع الطويل ذى الأعمدة الضخمة والأزقة الضيقة والسلالم العريضة .

ولكن كيف يذهب إليه الأولاد ؟

وكيف يدعون إليه حمدى ..

لا شك أنه لم يذهب معهم من قبل .. فالدعوة تعبر عن استنكارهم له لأنه يختشى ..

ولكنه قد يذهب فى يوم ما ..

أمعقول يا سيدة .. بعد كل هذا الوله فى صنمك أن يتركك .. ويذهب .. إلى دلال ؟..

دلال ؟!

الآن ؟!

ليس حمدى .. أبدا .. ولا حتى فيما مضى .

فهرس الجزء الأول

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى